خَالد البسَّام

شخصيات بحرينية

جداول Jadawel

مقدمة «مركز لؤلؤة البحرين للدراسات والبحوث»

تتميز ثورة البحرين بعمق جذورها التاريخية، والتي تمتد لاكثر من قرنين هي تاريخ قدوم عصابة آل‌خليفة لحكم البحرين بمساندة الإستعمار البريطاني؛ اضافة إلى انها تغطي مساحة شاسعة من المفاهيم والاسباب تتعدى الفساد المستشري في البلاد او انتهاك حقوق العباد، والتي من اجلها كانت ازمة ثقة حادة بين العصابة الحاكمة والشعب، مما ادى لإستجلاب الأول للمرتزقة في كافة اجهزته القمعية.

قدم المعارضة البحرينية من جهة، وتمتع شعبه باعلى المستويات الاكاديمية من جهة اخرى كانت رافداً لإثراء المكتبة العربية بالكثير من الكتب والمصادر، والتي تُمنع باجمعها في البحرين ضمن سياسة تكميم الافواه وإزهاق الأرواح، ومن أجل هذا يقوم «مركز لؤلؤة البحرين للدراسات والبحوث» المنبثق من «إئتلاف شباب ثورة 14 فبراير» بنشر نسخة رقمية مصورة من تلك المصادر والتعريف بها وما تحويه اولاً، اضافة لتعاونه مع كافة المراكز والمؤسسات المعنية بالأبحاث السياسية والاجتماعية والتاريخية في مجاله لاحقاً.

هذا الكتاب

الكتاب: البحرين تروي

المؤلف: خالد البسام

سنة النشر : 2011 م

الناشر: جداول للنشر والتوزيع

تعريف:

لا يمكن لأي كاتب يؤرخ للبحرين مهما كان حذراً من شرطة الفكر وطوامير آل خليفة ان يخفي عمق ازمة الثقة التي كانت بين الشعب والعصابة منذ احتلالها للبحرين بحماية الاستعمار البريطاني؛ فتاريخ البحرين منذ ذلك الحين حراك سياسي وميداني مناهض لآل خليفة، لا يدونه المؤرخون خوفاً على انفسهم وابنائهم، وهو ما ذكره الكاتب في مقدمة تجربته في تدوين التاريخ الشفاهي قائلاً:

> «واعتبر آخرون أن سيرهم تتخللها أحداث لا يستطيعون روايتها الآن لتأثيرها على حياتهم الحالية وربما على اولادهم ايضاً، ووجد غيرهم ان الظروف لم تكن مناسبة، وجاهر البعض بالقول ان رواية سيرة حياتهم تحتاج الى شجاعة وكسر حاجز خوف لا يمتلكونه الآن. [ص 7] »

ومع كل الحذر الذي بذله الكاتب في تجنب ذكر اسماء عصابة آل خليفة، إلا ان كل بحريني يعرف المقصود بمن ينفذ اوامر الاستعمار البريطاني مثل التالي في سيرة عبدالعزيز الشملان:

> «لم يكن قرار النفي الى الهند مفاجئاً على السياسي سعد الشملان، لكنه كان مؤلماً على مثقف وسياسي وجد أن **مصيره ومصير عائلته وربما بلاده كلها في يد رجال ينفذون أوامر التاج البريطاني الذي يتحكم بمقدراتهم** [ص 49] »

شخصيّات بحرينية

ائتلاف شباب ثورة 14 فبراير
مركز لؤلؤة البحرين للدراسات والبحوث

إئتلاف شباب ثورة 14 فبراير
مركز لؤلؤة البحرين للدراسات والبحوث

خالد البسّام

شخصيّات بحرينية

ائتلاف شباب ثورة 14 فبراير
مركز لؤلؤة البحرين للدراسات والبحوث

Jadawel S.A.R.L جداول

الكتاب: شخصيّات بحرينية

المؤلف: خالد البسّام

جداول

للنشر والتوزيع

الحمرا - شارع الكويت - بناية البركة - الطابق الأول

هاتف: 00961 1 746638 ـ فاكس: 00961 1 746637

ص.ب: 5558 - 13 شوران ـ بيروت ـ لبنان

internet site: www.jadawel.net

e-mail: info@jadawel.net

الطبعة الأولى

كانون الثاني/ يناير 2011

جميع الحقوق محفوظة © جداول للنشر والتوزيع: لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

طبع في لبنان

Copyright - by

Jadawel S.A.R.L

Hamra Street - Al-Barakah Blg.

P.O.Box: 5558 - Shouran

Beirut - Lebanon

First Published 2011 Beirut

المحتويات

تقديم 7
الشاعر إبراهيم العريّض 11
الصّبّي عبدالعزيز الشملان في الهند (1923 - 1926 م)
تلميذ في المنفى 49
الصحافي علي سيَّار يتذكّر: «قمر الدين» مع الملك فاروق
وحماس «القافلة» 63
الفنان يوسف قاسم عمر من الذكريات والفنون 125
الشاعر والمثقف سلمان التاجر صداقة العلم
والصحف والأشعار! 171
المثقف ناصر الخيري يسابق العصر شجاعة طرح
الأسئلة المشاكسة 179
الصحافي والأديب عبدالله الزائد اللآلئ تصدر الصحف..
والشعر يُلقى في «عصر المضحكات» 195
المطرب الشهير محمد زويد: جسد ناحل .. وقلب جريح . 207
الفهارس العامة 215
كتب خالد البسام 229

ائتلاف شباب ثورة 14 فبراير
مركز لؤلؤة البحرين للدراسات والبحوث

تقديم

عندما بدأتُ كتابة وتسجيل مذكّرات بعض الشخصيات البحرينية قبل سنوات طويلة كان هدف مشروعي وقتها هو ببساطة جعل الكثير من هذه الشخصيات، التي عاصرت وصنعت الكثير من الأحداث والأزمنة والتجارب المتميّزة، تروي وتتذّكر فقط.

وبينما نجحت مع بعض تلك الشخصيات فقد فشلت مع آخرين، وكانت الأسباب ـ ولا يزال بعضها وجيهًا ـ أكثر من أن تعد فقد شمل «التواضع» معظم الشخصيّات إلى درجة اعترفوا لي بأن حياتهم لا تستحقّ أن تُروى. واعتبر آخرون أن سيرهم تتخللها أحداث لا يستطيعون روايتها الآن لتأثيرها على حياتهم الحالية وربما على أولادهم أيضًا، ووجد غيرهم أن الظروف لم تكن مناسبة، وجاهر البعض بالقول إن رواية سيرة حياتهم تحتاج إلى شجاعة وكسر حاجز خوف لا يمتلكونه الآن. أما الذين رووا مذكّراتهم أو بعضها فقد وجدوا أن تجربتهم وحياتهم لم تعدا ملكهم وأن الحديث عنها للأجيال القادمة واجب عليهم ليُستفاد من العبر والدروس.

وأيًا كانت الأسباب ومشروعيتها ووجهات نظر الذين رووا والذين رفضوا أن يرووا، فإننا لا نزال ندهش من أن نشر المذكرات والسيّر الذاتية هي مشاريع كتابة وتاريخ لا نعرفه حتى الآن في البحرين ومنطقة الخليج، رغم أنه فن أدبي جميل وكتب

تاريخ ممتعة انتشرت في الغرب منذ عشرات السنين وعرفته البلدان العربية منذ فترة طويلة.

قد حاولت مع الشخصيات التي سجّلت مذكراتها أو جزءًا كبيرًا منها وهم المرحوم الشاعر الكبير إبراهيم العريّض، والمرحوم عبدالعزيز الشملان، والصحافي علي سيّار، والفنّان المرحوم يوسف قاسم، توثيق تجاربهم الشخصيّة أكثر من حياتهم العمومية، ورواية الأحداث التي صنعوها أو التي شاركوا في صناعتها، وتجاربهم أكثر من الوقائع التي عاشوها. وقد اكتفيت برواياتهم وتركتهم يتذكّرون، وسجلتها كما هي، ولم أتدخّل فيها إلا بإضاءة معلومات هنا أو تصحيح وقائع فاتت عليهم أو زيادة معلومات للقارئ.

أما الشخصيّات التاريخية التي كتبت عنها أمثال الصحافي عبدالله الزائد، والمثقف ناصر الخيري، والشاعر سلمان التاجر، والمطرب محمد زويد، فكانت الكتابة عنهم مختلفة طبعًا، لأنها ببساطة كتابة عن سير أشخاص لم أقابلهم، واعتمدت على أعمالهم وما كُتب عنهم وما حصلت عليه من معلومات وثيقة الصّلة بهم.

يأتي بعض تميز هذه الشخصيات في هذا الكتاب في كونها تجمع ما بين الفنّان والصحافي والسياسي والشاعر والمطرب والمثقف وقد شاركوا جميعًا في هذا التنوع عبر الأزمنة البحرينية المختلفة وأسهموا في كتابة روزنامة تاريخ مختلفة ورواية عصر غير عادي.

لعل تنوع سير الشخصيّات ومذكّراتها ليس في أزمنتها وثراء تجربتها وتنوع إسهاماتها فقط، بل في كونهم كانوا سابقين لعصرهم وشاهدين عليه، وسجّلوا شجاعة نادرة وخلقوا تميّزًا فريدًا.

يبقى هذا الكتاب في النهاية مجرّد محاولة أولى لتوثيق سِير بعض الشخصيّات المتميّزة الذين أثروا روزنامة البحرين حيويّة وتألقًا وأضافوا إلى حياة بلادنا في القرن العشرين الكثير من الإبداع والتألّق والصوت المتميّز وبعض الشجاعة والكثير من التواضع.

خالد البسّام

ائتلاف شباب ثورة 14 فبراير
مركز لؤلؤة البحرين للدراسات والبحوث

ائتلاف شباب ثورة 14 فبراير
مركز لؤلؤة البحرين للدراسات والبحوث

الشاعر إبراهيم العريّض

دواؤك مِـــنـــكَ ولا تـــشـــعـــرُ   وداؤكَ فـــيـــكَ ولا تُـــبـــصـــر

«الأستاذ يرحِّب بك وينتظرك».. جاء صوت منصور سرحان في الهاتف يحدّد اللقاء مع الشاعر البحريني العربي الكبير إبراهيم العريّض، وأحد شهود العصر العربي المتميِّزين في القرن العشرين.

لم يكن الأستاذ وحده ينتظرني، كنت أشعر وأنا أستعد للقاء «العريّض» أن هناك عشرات الأشياء تنتظرني ومئات الذكريات والتجارب وعشرات الكتب والدراسات والقصائد والكثير من الإبداعات والإنجازات. كانت تنتظرني فعلًا أبيات شعر جميلة، وعمر طويل من الزمن صنعها رجل شامخ هزم كل يأس وصنع أيامًا من الطموح والمجد والتألّق الباقي حتى اليوم.

في المساء دخلنا بيت الشاعر الكبير في إحدى ضواحي مدينة المنامة، عاصمة البحرين، وكانت ابنته «دعد» واقفة بالباب في انتظارنا.

دخلنا البيت المتواضع فعلا صوت شاعرنا مُرحِّبًا «أهلًا بك يا ابني». تذكرت الترحيب المشهود للأستاذ العريّض وشردت في ذهني ورجعت أكثر من عشر سنوات، ربما عندما رأيت الأستاذ المعلم العريّض لأول مرة في حياتي.

ففي عصر من صيف عام 1981م كنت أهمّ بالدخول إلى نادي

العروبة في مبناه القديم عندما شاهدت «العريّض» منزويًا في أحد أركان غرفة قديمة في النادي وبقربه مجموعة كتب يقرأ في أحدها. وفي الحال دخلت عليه للسلام لئلا تضيع هذه الفرصة العظيمة.

رحّب بي وسألني من أكون؟ فاكتشفت أنه كان مدرِّسًا لوالدي ويعرف الكثير عن أقربائي.

أخجلني ترحيبه فعلًا وخرجت من عنده مسرورًا بأن يكون لي عنده مثل هذا الترحاب الجميل.

عدت من شرودي لأجد نفسي بين الأستاذ العريّض ومعه ابنه الدكتور جليل إبراهيم العريّض والأستاذ عبدالله الشيخ والأستاذ منصور سرحان، مدير إدارة المكتبات العامة في البحرين، أكثر أصدقاء الأستاذ تواصلًا، وابنته دعد إبراهيم العريّض، وكان الجميع ينصت إلى كلمات الأستاذ في بداية اللقاء.

بعد الترحاب المعتاد خرجت من بعض خجلي واستعددت لكلمتين في مدح هذا الرجل الشامخ أمامي. لكن بعد كلمة واحدة ذُهلت بأن العريّض نفسه هو الذي يمدحني ويقول كلامًا جميلًا في حقّي وبأنني كذا وعملت كذا وأنه قرأ لي هذا وأعجب بذاك. وتصوّرت أن الأستاذ يقول كلمتي مجاملة في حضرة ضيفه، غير أن المدهش أن الرجل يقرأ فعلًا وقرأ لي كل ما قاله.

ازددت خجلًا وأنا في حضرة شاعر كبير وشخصية لامعة، كان من المفروض أن أقول أكثر من هذا الكلام في حقه إلّا أنه سبقني في الكلام.

وفعلًا إن الكلام في حق العريّض صعب، بل أصعب من الصعوبة نفسها. وما زلت أستغرب حقًّا هؤلاء «العباقرة» الذين

استطاعوا في عشرين سطرًا أو أقل أن يكتبوا كلامًا قليلًا سموه «إبراهيم العريّض في سطور». فأي سطور يمكن أن يختصرها في شاعر ملأ الدنيا وشخصية عاصرت قرنًا بأكمله تقريبًا، كتب في الشعر والمسرح والنقد وكان أحد فرسان الأدب العربي، وذهب محاضرًا في مهرجانات ومنتديات عربية وعالمية، عمل في الإذاعة وشركات النفط والترجمة والتدريس والعمل الدبلوماسي ورئيس مجلس نواب البحرين بعد الاستقلال وغيرها، أي سطور تختصرها في إبراهيم العريّض منذ نهاية العشرينات إلى نهاية التسعينات؟!

جاء إبراهيم العريّض إلى الدنيا في ربيع عام 1908م. حيث ولد في مدينة بومباي بالهند من أبوين عربيين، فوالده من عائلة العريّض في البحرين، ووالدته من مدينة كربلاء في العراق، وأقاما السنوات الأولى من حياتهما الزوجية في البحرين، ثم نزح أبوه معها إلى الهند للعمل في تجارة اللؤلؤ المنتشرة بين الخليج والهند آنذاك، وبعد سنوات قليلة ولد الشاعر في بومباي لكن في حالة ألزمت أمه الفراش، فلم تستطع إرضاعه، حتى توفيت بعد شهرين من الولادة ودُفنت في مدينة «بونا» بالهند.

عندما وجد والده أنه لم يكن في بيتهم العربي غير الضيوف، والخدم فقد قبل أبوه أن تأخذه جارة لهم هندية في كنفها طفلًا تغذّيه بألبان الجاموس والأتان، حتى أخذ الطفل يدبّ على الأرض، وكان في طفولته يعيش معها في قريتها، بمعزل عن والده، ثم لما عادوا به إلى بومباي بعد أربع سنوات ـ نظرًا لانحراف صحة تلك الجارة الهندية ـ ربّته في بيت والده خادمتهم الطيبة القلب، واستمر الحال على هذا المنوال حتى أكمل الصبي دراسته الابتدائية.

بالطبع كان الطفل «العريّض» في كل هذه الفترة لا يحسن النطق

بالعربية بحكم نشأته تلك، كما أن والده كان لا يحادثه، إذا قابل الصبي في الأسبوع مرّة إلا بالهندية! فكان كل زاده من هذه اللّغة الكريمة ما كان يلتقطه بين الفينة والفينة من كلمات يسمعها من أحاديث والده والضيوف العرب، حتى قدّر له أن يعود إلى البحرين برفقة عمه المرحوم، لأول مرة لعام 1922م. لصيفية واحدة، رأى فيها أهله وشاهد أوضاع البحرين بعيني صبي. ولكن هذه الزيارة لم تستغرق وقتاً طويلًا حيث اضطّر للعودة إلى الهند لمواصلة دراسته حتى أكمل تعليمه الثانوي في بومباي العام 1925م.

كانت الطفولة هي أولى تحديات الشاعر إبراهيم العريّض ويعبّر عنها قائلًا: «إنّ أهمّ ما بقي في ذاكرتي من الطفولة هو شعوري بالغربة، لأنّي كنت في البيت مع الوالد وحيدًا بعد وفاة والدتي، وكان رحمه الله مشغولًا طوال النهار بعمله وكنت متروكًا لنفسي، آخذ منه المصروف اليومي وأرجع إلى البيت، وأدرس بمفردي إلى أن يأتي في وقت متأخر من الليل. هذه الغربة أشعرتني معها أيضًا بنوع من التحدّي يقتضي أن أتفوّق عليهم في كل درس من الدروس. وهكذا بقيت خلال أيامي في المدرسة الثانوية، وكنت دائمًا أخرج متفوّقًا على الجميع».

بعد انتهاء الدراسة الثانوية عاد إبراهيم العريّض، الشاب البحريني العربي، إلى بلاده وهو لا يعرف كلمةً عربيةً واحدةً!

قبل التحدي الثاني وربما كان أهمّ التحديات التي واجهها العريض: «فقد جئت من الهند وأنا لا أعرف كلمة عربية واحدة، ولم أكن أستطيع الكلام ولا فهم ما يقوله الناس في البحرين، صحيح أنّني كنت وقتها أقرأ القرآن الكريم ولكنّني لم أكن أفهم معناه.. كنت أبكي لعدم معرفتي باللغة العربية. مع الأيام وجدت أن

بكائي لن يفيدني بشيء وعليّ مواجهة الحقيقة المرَّة وهي أن أتعلم العربية كأنّني أجنبي أو كأنّني مستشرقٌ!

الواقع أنني تعبت كثيرًا أثناء تعلّمي للّغة العربية، فلا مناهج موجودة ولا دروس معدّة لذلك ولا مدرسون متخصصون. غير أنني قبلت التحدي وعدت تلميذًا مرة أخرى لأدرس في مدرسة الهداية الخليفية بالمحرّق وهي المدرسة النظامية الوحيدة في البحرين آنذاك. ومع الدراسة في «الهداية» كنت أتردّد على مكتبة التاجر في سوق المنامة وهي من أفضل مكتبات البحرين التجارية آنذاك. وكنت من خلالها أقرأ كتب الأدب العربي الكلاسيكي فقرأت «العقد الفريد» و«الأغاني» و«نهج البلاغة»، كنت أقرأ رغم الصعوبات الهائلة للنحو، ولكنني قرأتُ وقرأتُ ولم أشبع نهمي.

كان تحدي اللغة العربية وقبلها تحدي الغربة هما طريقا الانتماء إلى العروبة. فأنا العربي العائلة وأنا العربي البلاد وأنا العربي اللغة وأنا العربي الأفكار والطموحات وأنا العربي الانتماء وأنا العربي بالشعر وأنا العربي بالحياة والعمر».

خرج «العريّض» من مدرسة «الهداية» تلميذًا ليعود إليها بعد فترة بسيطة أستاذًا لبضع سنوات في نهاية العشرينات.

وفي حوالي العام 1929م. بعدما افتتحت «المدرسة الجعفرية» في المنامة في آذار 1928م. عُيّن العريّض نائبًا لمدير المدرسة الأستاذ العربي محمد سعيد الجمعة.

كانت مدرسة المنامة فاتحة الخير على «العريّض» في الشعر، ففي أروقتها نظّم أولى قصائده الموزونة وفيها تعرّف إلى المدرّسين العروبيين، وشجعّه مدير المدرسة محمد الجمعة أن يذهب معه في الصيف إلى بغداد ويطبع أول ديوان له.

بالطبع لم يكن «العريّض» متحمّسًا للتجربة فإضافة إلى أنها بدايات الشعر والخوف من طباعة ديوان يشكّلان قلقًا كبيرًا. غير أن العريّض حسم أمره في السفر في إجازة الصيف مع مدير المدرسة إلى العراق، لكنه سيعود بعد شهور قليلة بمركب يصل من البصرة إلى فرضة ميناء المنامة محمَّلاً بصناديق نسخ ديوانه الأول «الذكرى».

فعلى غلاف الديوان كتب تحت كلمة «الذكرى» عبارة: «إن الحياة طائر متنقّل صدى صوته الذكرى». وكتب أيضًا: «الجزء الأول من ديوان إبراهيم العريّض،(1350 هـ ـ 1931م) مطبعة النجاح في بغداد».

أما رقم النسخة الموجودة عندي فهو 1033.

في الديوان أربع مقدمات تقريبًا، حيث كتب عمر يحيى من (حماه ـ سوريا) مقدمة، وعبد الستار القرغولي من (بغداد ـ العراق) مقدمة، ومحمد علي التاجر الشاعر البحريني مقدمة أيضًا، أما الشاعر نفسه إبراهيم العريّض فكتب يقدّم ديوانه قائلًا:

«الحمد لله ربّ العالمين والسلام على نبيّنا الكريم محمد نبيّ الرحمة وآله نجوم الهدى وصحبه مصابيح الدجى.

وبعد، فإن هذا الجزء الأول من (ديوان الذكرى) أقدمت على طبعه بعد تردّد غير قليل، ولولا يقيني من أن جانبًا عظيمًا منه كُتب عن شعور ويمثّل صورة صادقة لحياتي والعوامل التي تناوشتني ـ أنا ومن معي ـ من حزن وسرور في محيط البحرين لكنت أول من يُحجم عن إعادة النظر فيه. ولعلّ اللهجة الصادقة التي تتخلل هذا الديوان تكون عذرًا لشاب مثلي لدى أصحابي الذين ساعدوني على طبعه قولًا وفعلًا.

وقد قسمت محتويات هذا الديوان في خمسة أبواب:

1- في الطبيعة ومظاهرها.

2- في العاطفة ونواحيها.

3- في الوصف وموحياته.

4- في العلم والاجتماع وما له مساس بهما.

5- في المتفرقات.

ويلاحظ أني وضعت في كل باب ما يصلح له من المواضيع. وقد أدى هذا إلى تقسيم القصيدة إلى أبواب متفرقة على حسب ما تتضمنه من المعاني. وغرضي منه إظهار الديوان تحفة بين أيدي الأدباء يروق للناظرين.

ولعلّه باتّباعي هذا النهج فاتني ما قد يتحقّق لغيري (من الذين يثبتون القصائد كاملة) من إظهار خيال الشاعر بأجلى مظاهره في موضوع وتنقله فيه من معنًى إلى آخر وارتباط هذه المعاني ببعضها بعضًا. ولعل هذا هو السبب في إثبات بعض القصائد من الديوان كاملة في بعض الأبواب.

ويلاحظ أني ثبّتُ في آخر الكتاب فهرسًا عامًا حافظت أن يكون في الوقت ذاته تاريخيًا. والأحرى بنا في عصرنا هذا ـ عصر الدرس والتمحيص وعصر النقد والتحليل ـ أن نحيط علمًا بأوائل شعر الشاعر ونميّزه عن أواخر منظوماته وأن نضع الفصل بينها لإصابة الحكم، فعندها نطّلع كيف يتوسّع خيال الشاعر للمعاني بعد ممارسته لنظمها في القوافي زمنًا ما».

ويكمل «العريّض» تقديمه قائلًا: «هذا وإني أرجو من الأدباء

الكرام أن يغضّوا الطرف عن قليل أو كثير من الزلّات التي قد تمرّ بهم في هذا الديوان ويجروا ذيل الصفح على مواقع العثرات. وذلك لأن صاحبه يقرّ على نفسه أنه ليس من أرباب هذا الفن سوى أن ما كتبه (ولم يكن يعلم الله خوفًا أو طمعًا) كان شعورًا يشعر به فينفثه صدره على لسانه موزونًا.

على أن الشعر هبة من الله جلّ وعلا لبعض النفوس يجدر بأصحاب البيان أن يحيوها ويتعهدوها بالتهذيب في نفوس أبنائها كما يتعهّد الغرس بالسقي. ليقوم الشعر بما هو حقيق به من إطلاعه الإنسان على حقائق الكون وأسرار الحياة بعد الدرس والتمحيص الجديرين بالشاعر الحقيقي.

والشعر عقد من نظيم الحج ... من شاءه رب الحجي قلده»

إبراهيم العريض، 25 صفر 1350هـ.

احتوى الديوان «الذكرى» على نحو 120 صفحة اشتمل على «الطبيعيات» ويغنّي في قصيدة «ذكريات الربيع»:

«أذكى النسيم بفيضه ... نفحًا كأنفاس العبير

فتناشدت شدوًا على ... الأفنان أزواج الطيور»

وفي القسم الثاني «العاطفيات» منها مثلًا «مياه الخليج»:

«ومياه الخليج تدنو اقترابًا ... ثم ترتد مزبدات تباعا

فتراها كالجيش عكسًا وطردًا ... فوق متن الصخور ولّت قراعا»

وفي قصيدته «الوطن المفدّى» يقدم لها قائلًا:

«فجئته شابًّا قد أخصب بتصوير معاهده خيالي قبل أن تشهدها العين عيانًا، وتمتّع بلذيذ أخباره سمعي قبل أن يجلو حقيقتها

البصر، ثم رأيت، رأيت وطنًا كريمًا يكتنفه شعب كريم، فلحظته بنظرة تتبعها دمعة، ثم حيّيته بابتسامة استفزّها منّي الشعور بالحب.

«تلك أرض الجدود أرض أوال».

وما لي ولتاريخ القوم فلقد عاشوا وعاش بعدهم ذكرهم، أحيوا بحياتهم المجد فلمّا ماتوا لم يمت، وإذ خلد بهم خلدوا به. وهذا التاريخ قد حفظ بين فصوله الخالدة الممتعة صحيفة لهم بيضاء لا تنكرها أعين الجاحدين. ذلك ما شعرت به نحو وطني المفدّى، فقلت ويجدر بمثلي أن يقول:

وينشد «العريّض» القصيدة:

«سقطت الغاديات أرضًا رعتني طاب للظبي في رباها المقام
ورعى الله تربة أنشأتني وعهود الصّبا بها أحلام
خلعت حسنها عليها الليالي وازدهت في ظلالها الأيام
وعليها تناثرت درر القطر انتثارًا وانحلّ ذاك النظام
إن غصنًا أطل في القلب غنّى فوقه بلبل وناح حمام
كلما اهتز جانب القلب للذكـ رى فللوجد فوقه أنغام.

ومع أن الديوان لاقى بعد صدوره صدًى طيبًا على الصعيدين المحلي والعربي، إلا أن الشاعر العريّض وبعد 50 سنة تقريبًا على صدوره أي العام 1981 م. تمنّى لو أنه يستطيع جمع نسخ الديوان ويقوم بإحراقها بنفسه.

أما اليوم، أي بعد 68 سنة من ديوان الذكرى فوجد أنه «محاولة تلميذ يتعلم الإنشاء في الكراريس». أيضًا فقد كان «محاولة منّي لنظم الشعر العربي ولكنه ليس الشيء الذي وجدت

نفسي فيه. غير أنني لا أتبرّأ منه، فالإنسان لا يستطيع أن يتبرّأ من شيء يمثّله».

وفي 31 يوليو/تموز 1931م. زمن صدور الديوان الأول للشاعر إبراهيم العريّض بدأ عمر جديد من حياته الخصبة.

ومع بدايات الشعر وجد «العريّض» تحديّ الحضارة يقف في أولى جبهاته وخنادقه في التعليم وخاض هذه المعركة بضراوة، فبعد التدريس في «مدرسة الهداية الخليفية» شارك في إدارة مدرسة المنامة «الجعفرية»، غير أنه بعد سنوات قليلة وجد اسمه في «القائمة السوداء» التي وضعها مفتش التعليم آنذاك «فائق أدهم» المشهور بعمالته لسلطات الاستعمار البريطاني. فقد وجد «أدهم» بعد احتجاجات طلّاب وأساتذة وأهالي البحرين على نفي مدير «مدرسة الهداية» الأستاذ السوري عثمان الحوراني العام 1929م. أن هناك أساتذة وطنيين يجب إبعادهم عن التدريس لرفضهم الامتثال لأوامره التي تأتيه من إدارة السلطات البريطانية والخاصّة بالقضاء على استقلالية التعليم الأهلي وتقليص سلطة الإدارة الوطنية على المدارس، وإبعادهم عن أي إشراف أو إدارة أو توجيه في المدارس، علاوة على التغييرات في بعض المناهج وغير ذلك.

وقَبِلَ «العريّض» تحدي التعليم الذي كان هو تحدّي منطقة الخليج العربية كلها، ولم يستسلم لمنعه من العمل في المدارس الحكومية ـ ولم يفصل ـ وهو الشاعر والأديب المرموق، الذي كان بإمكانه الحصول على وظيفة مريحة ويكتب الشعر مرتاحًا، البقاء صامتًا، فوقتها وجد العريّض أن الحاجة للتعليم وللقضاء على الأميّة ولمحو الأميّة الثقافية هي من أولويات أي مثقف وطني عليه أن يبذل ما يستطيع من أجلها والنهوض بها.

وهكذا يبدأ العريّض مع العام 1932 في إنشاء إحدى أوائل المدارس الخاصة الحديثة في البحرين. ويتذكّر الأستاذ: «ذهبتُ إلى عمي منصور العريّض عندما وجدت أنه يمتلك بيتًا صغيرًا في المنامة وطلبت منه أن يؤجّرني إياه.. وسألني: لماذا تريده؟ فقلت مزهوًّا: أريد أن أنشئ مدرسة».

ووافق وأعطاني البيت الصغير ـ الذي هو مقابل المخبز الشرقي في شارع الشيخ عبدالله بسوق المنامة ـ حاليًا وأسّستُ «المدرسة الأهلية».

كان أجمل شيء في المدرسة أن وراء البيت أرضًا واسعة جعلناها ملاعب ثم الأهم مكان المسرحيات الشعرية.

والمدرسة الأهلية ضمّت أكثر من ستين أو سبعين تلميذًا، هم من صفوة العائلات البحرينية وغيرها في البحرين. وكان بها أولاد العائلات النجدية أمثال: البسام، العجاجي، القاضي، وكان عندي طلبة أهلهم من العراق، بل كان عندي تلاميذ يهود، لم تكن هناك تفرقة فكلّهم ينتمون إلى وطن واحد هو البحرين وجميعهم يتكلّمون العربية وبعادات متقاربة باستثناء اليهود.

مستوى التدريس كان عاليًا وكان يُسهم معي في ذلك علي التاجر وعبدالله الكارش. وكنا نأخذ من الطلاب روبية واحدة (مائة فلس الآن) غير أن هناك بعض الطلبة الفقراء لم يستطيعوا دفع ذلك المبلغ فندرّسهم مجانًا.

لم يكن لدينا كتب مدرسة، وكنا نضطر إلى الإملاء على التلاميذ. وفي أحد الأيام جاء يزور المدرسة أحد أدباء العراق واسمه درويش المقدادي ورآنا ونحن ندرّس التلاميذ بدون كتب، فتبرّع أن

يرسل لنا مجموعة كتب من العراق وفعلًا وفى بوعده وأرسل الكتب».

وفي المدرسة «الأهلية»، التي استمرّت سنتين وأغلقت لعجز صاحبها المادي عن الاستمرار، حقّق بعض أهم طموحاته وأحلى إبداعاته وهي المسرحيات الشعرية، وقام بتأليف وإخراج مسرحية «وامعتصماه» ثم بتأليف مسرحية أخرى هي «بين الدولتين».

ويروي: «في الساحة الكبيرة وراء المدرسة بدأنا تجهيز خشبة المسرح لتمثيل «وامعتصماه»، وأنشأنا مسرحًا بدائيًا وستائر عادية من المدرسة. وفي أحد الأيام مرّ علينا المرحوم عبدالرحمن المؤيد ولم يعجبه ما قمنا به، فقال لي: «سأساعدك في تجهيز المسرح». وبالفعل وفّى بوعده وأمدّنا بمسرح حقيقي وستائر وغيرها.

من جانبي قمت بإعداد أدوار الطلاب وتحفيظهم إياها. وتحت مساعدة أخرى من رئيس بلدية المنامة آنذاك، علي حسين خلفان، الذي أمدّنا بحوالى 500 كرسي للجمهور وساعدنا في بيع التذاكر.

وبالفعل مثّلت المسرحية ولها فضل الريادة، فهي أول مسرحية شعرية تمثّل في منطقة الخليج، علاوة على كونها الأولى في البحرين.

ومن الممثلين البارزين في المسرحية كان هناك «عبدالله الباكر» الذي مثّل دور إسحاق الموصلي وكان يغني على العود، ود. علي فخرو، والذي مثّل دور عاشق.

اشترك في التمثيل حوالى 50 طالبًا من بينهم حسن جواد الجشي وعبدالرحمن الباكر وعبدالرسول التاجر وعبدالرحمن تقي ورضا الموسوي وعبدالعزيز البسام وغيرهم.

طبعًا واجهنا صعوبات هائلة في الإخراج وتلقين الممثلين، غير أنني أستطيع أن أقول إننا نجحنا. أما الأدلة فكان أهمها أن

السجّان «محمد علي خميس» عندما يدخل ويضرب الحضرمي الهارب المسجون، حفّظنا السجان دوره بأن يضرب المسجون من دون أن يعرف بأنه سيضرب، وعندما ضرب جاءته الضربة مفاجئة وغير متوقعة. ولاحظنا صدق التمثيل وتفاعل المشاهدين، إن الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة، حاكم البحرين آنذاك، تفاعل مع المسرحية وأُعجب بها جدًا لدرجة أنه كان يردّد كلمة «يستاهل» مع تنفيذ الضربة.

وكان هناك مشهد ساقٍ يصب كأسًا من الخمر بحسب المسرحية. وعلّمنا الساقي كيف يصبّ في الكأس ـ واستخدمنا بدلاً من الخمر طبعًا شراب «الفيمتو» للشبه في اللون والإيحاء ـ ووصل إلى درجة أن الممثّل حسن الجشّي والممثل عبدالرسول التاجر قالا لي إنه عندما صُبّ الشراب لنا في غمرة التمثيل تصورنا أن الشراب هو خمر حقيقي!

ونجحت المسرحية واستقبلتها البحرين بحماس عظيم».

ويلخّص «العريّض» المسرحية قائلاً: «وقعت حوادث هذه الرواية في عصر ذهبي عندما كانت الدولة الإسلامية في أوج رفعتها. فقد توفي المأمون عام 217هـ. وكان قد عهد بالخلافة بعده، إلى أخيه محمد بن هارون الرشيد فبايعه الرؤساء والقواد، وكانت أم المعتصم تركية، فقرّب لذلك الأتراك وأولاهم المناصب العالية، وجعلهم بطانته وحاشيته، وكان «أفشين» قائده الأكبر، في أول عهده، أكرمهم حظوة لديه.

لم يكن المعتصم كأخيه المأمون مثقفًا عالمًا، وإنما كان رجلًا حربيًا بمعنى الكلمة، فكان يتولى قيادة الجيش وتدريبه بنفسه، ولذلك اضطر إلى مغادرة بغداد ونزول أرض فضاء صالحة في شرقي

«دجلة» استوطنها وعمّرها وما زالت إلى يومنا البقعة التي سماها «سر من رأى» تشهد أنقاضها بما كان لها من نضرة وبهاء للعارفين. وأهم حادث وقع في حياته هو اكتساح ملك الروم «توفل» الثغور الإسلامية فقتل ونهب وسبى وحرق، وفتّ في عضد المسلمين وهو يكسر شوكتهم وذلك العام 221هـ. فدعا الناس بالويل والثبور، ولا يزال التاريخ يدوّي بصرخة المسبية الهاشمية التي همَّ بقتلها علج من الروم أو ما إلى ذلك، فما كاد يصل الخبر إلى المعتصم حتى نهض قائمًا معرضًا عما كان فيه من لهو، كما نادى بالنفير، ولم يهدأ له حال ولم يقرّ له بال، حتى فتح «عمورية» أقوى حصن في أرض الروم، وهزم «توفل» واكتسح بلاده على خيول بلق، ثم دخل على الهاشمية وهو يقول: لبيك! لبيك!».

أما المسرحية الثانية التي كتبها الشاعر العريّض فكانت «بين الدولتين» العام 1933م ولم يستطع تمثيلها في المدرسة رغم أنه أكمل الكثير من الاستعدادات لذلك بسبب إغلاق المدرسة نفسها العام 1934م. وأراد نشرها في مجلة «الرسالة» المشهورة لصاحبها أحمد حسن الزيات في القاهرة العام 1939م لكن لم تنشر بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية.

يعلّق الناقد المعروف د. إبراهيم عبدالله غلوم على تجربة العريّض المسرحية، قائلاً: « لقد كتب العريّض مسرحية (وامعتصماه) سنة 1932م. وقد طبعها في العام نفسه في كتيب صغير صدر في مصر مغفلًا تاريخ النشر. وقد نظم هذه المسرحية ليمثّلها طلبته في المدرسة الأهلية التي افتتحها في العام 1932م. أيضاً، والمرجّح أن يكون تاريخ عرض المسرحية في العام نفسه، لأن العريّض بعد أن أحسّ بجدة تجربته السابقة أتبعها بكتابة

مسرحية «بين الدولتين» في العام 1933م. وليمثّلها طلبته في العام نفسه، ورغم الاندفاع الجاد الذي كان وراء نظم هذه المسرحية، حيث نظمها هذه المرة كأثر أدبي وليس لطلاب المدرسة فحسب رغم ذلك فقد لحق بهذه المسرحية من الخيبة ما جعله يتغافل عن نشرها حتى هذه الفترة، فقد أغلقت المدرسة في 1934م. بعد أن أعدّ نفسه لإخراج المسرحية، ثم إنه حين أعدّها للنشر في مجلة الرسالة في العام 1939م. أعلنت الحرب العالمية الثانية، ولم تنشر المسرحية بسبب اندلاع هذه الحرب. وتشتمل «بين الدولتين» على قسمين، نظم العريّض القسم الأول منها فقط، وهو الذي يعالج سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، أما القسم الثاني فلم يتمكن من إتمامه، وهذا لا يستدعي منا أن نبعد القسم الأول من الجهد المسرحي الذي قدّمه العريّض، ذلك لأنه يكاد يمثل مسرحية كاملة، تامة الفصول.

ويمكن أن يقال في ما يتصل بارتباط «وامعتصماه» و«بين الدولتين» بالثقافة المسرحية في البحرين خلال الثلاثينيات والأربعينيات إن العريض في هاتين المسرحيتين يُعدّ رائدًا من روّاد التجربة المسرحية، فقد نظم مسرحيته في فترة كانت الثقافة المسرحية فقيرة، ومتبسطة إلى حدٍّ بعيد، وقبل هذه الفترة لا نعرف أحدًا من الشعراء والأدباء في البحرين ومنطقة الخليج العربي قد حاول الكتابة في هذا الفن الأمر الذي يجعلنا نقول بأن «وامعتصماه» هي أول عمل مسرحي مكتوب يصل إلينا من تلك الفترة المبكرة، قد تكون هناك بعض الأعمال التمثيلية الارتجالية التي لم تدوَّن، والتي لا شك بأن البعض قد اهتدى إليها في إحياء المناسبات، وصوّر عن طريقها بعض المشكلات الاجتماعية العابرة البارزة فوق السطح.

لم تلاقِ مسرحيات «العريّض» الشعرية نجاحًا في البحرين فقط، بل إن بعض البلدان العربية مثل العراق طلبت منه تمثيل «وامعتصماه».

ويردّ «العريّض» في رسالة كتبها في 21 إبريل/نيسان 1947م. على عرض التمثيل في ما يلي نصها:

حضرة محترم المقام العربي الكبير مدير مدرسة ثانوية كربلاء

ـ دام كما يجب ـ .

تحياتي العاطرة. وبعد، كتب لي بعض الإخوان ممن حضروا الأعتاب الطاهرة عن قيام مدرستكم العامرة بتمثيل رواية «وامعتصماه» وما ظفرت به لدى الخاص والعام. فسرّني نبأ ذلك. وشعرت كأنّي عدت إلى ذلك العهد المدرسي الذي كنت أنشط له نشاطكم (وقد طوته الأيام الآن) فهل تسمحون لي أن أنتهز هذه الفرصة السعدية فأهدي على يدكم نسخًا من الرواية إلى الذين اشتركوا في تمثيلها من شباب المدرسة كإيماءة تقدير وإعجاب من محبٍّ لهم فاته أن يشهد التمثيل فودّ لو حفظوا فن الرواية لصاحبها أجمل الذكريات. وختامًا أتمنّى لكم وللقائمين بشؤون المدرسة كل توفيق ولطلابها العاملين خير نجاح.

المخلص/ إبراهيم العريّض

وبعد المسرح جاءت الإذاعة.

لم يهدأ «العريّض» في التحدي الثقافي والحضاري الذي واجهه، فقد كان يعلّم التلاميذ وينشر الوعي ويكتب الشعر ويحاضر في المنتديات الثقافية، وكان أبرز أعضاء نادي العروبة الثقافي الذي تأسّس في المنامة العام 1939م.

وعلى أكثر من جبهة كان العريّض يحارب التخلّف والجهل والأمية. وكانت «الإذاعة» هي أحد الأسلحة الذي حارب به.

ففي بداية نوفمبر/ تشرين الثاني العام 1940م. أُنشئت في البحرين إذاعة صغيرة أُطلق عليها «إذاعة الخليج العربي» أقامها الإنكليز لخدمة مصالحهم أثناء الحرب العالمية الثانية.

شارك «العريّض» في تلك المؤسسة الإعلامية من باب أنها مهما كانت أهدافها فإنها ستُسهم في وعي الناس وترفع من مستوى أفكارهم علاوة على أنها مشروع ريادي حيث إنها الأولى في منطقة الخليج.

وعمل «العريّض» في إذاعة البحرين معرّبًا للمقالات والتقارير من الإنكليزية إلى العربية، وكان يكتب بعض نشرات الأخبار.

الطريف أن «العريّض» لم يملك مصادر للأخبار ويروي: «كان عليّ كتابة نشرة الأخبار في الإذاعة. فكنت أذهب إلى نادي العروبة والذي كان عندهم راديو كبير وجيّد واستمع إلى إذاعة (BBC) الإنكليزية وأترجم الأخبار منها وأضعها بين يدي محمد دويغر وسالم العريّض، المذيعَين في إذاعة البحرين آنذاك. ولكنّني بعد فترة ضقت ذرعًا بهذا العمل وشعرت بالانقباض وتبرّمت منه وتركته نهائيًا حتى لا أُسهم في أعمال دعائية للإنكليز!

وتركت الإذاعة وحصلت على عرض عمل إلى الهند ورحلت!

رجع من الهند ووجد أكبر نكبة في تاريخ العرب تنتظره وهي نكبة فلسطين في 1947و1948م.

وأضاف يتذكر: «في ذلك الوقت خرج الناس في تظاهرات صاخبة في البحرين عبّرت فيها عن غضبها العارم تجاه

العصابات الصهيونية وتشريد شعب فلسطين واحتلال فلسطين البلد العربي الحبيب.

بل إنني أتذكر أن الغضب في البحرين كما هو في بقية البلدان العربية كان كبيرًا إلى درجة أنه كان ينفلت ويحدث من ورائه شغب صعب السيطرة عليه. كان غضب الناس لا يوصف. فالشعور القومي في عزّه ونهضته. فقد كانت بواكيره في الثقافة والصحف والتعليم وغيره ثم انطلق مع نكبة فلسطين إلى السياسة والتضامن والوحدة.

طبعًا تأثرت جدًّا بالنكبة وملأتني حزنًا وحماسة أيضًا وسجّلت نقلة كبيرة لي في شعري وترجمت كل مشاعري وغضبي في الشعر عندما كتبت «أرض الشهداء».

لست وحدي من بين الشعراء، فقد لاحظت أنها كحدث عربي خطير قد زلزلت الدنيا وقلبت كيان العرب، وأحدثت تحوّلًا كبيرًا في الشعر العربي كله، ونقلت معظم الشعراء العرب من الشعر الكلاسيكي إلى الشعر الحديث.

ولاحظت أيضًا أن الكثيرين من الشعراء راحوا يراجعون شعرهم في الطبيعة والغزل ومخاطبة العربي إلى النظر في قضايا القومية ووحدة العرب ومخاطبة الأجانب والكتابة بنَفسٍ إنساني جديد يعبِّرون فيها عن قضاياهم حتى يكون شعرهم قابلاً للترجمة أيضًا كذلك.

ويمكن ملاحظة ذلك بصورة واضحة في أشعار نازك الملائكة ونزار قباني وفدوى طوقان.

كان الهم العربي مع فلسطين وقبلها يتفاعل عندي كثيرًا. وكنت أتردّد على لبنان في الأربعينيات واجتمع مع الأدباء العرب هناك،

مثل ألبير أديب وأحمد الصافي النجفي، ورحت أتفاعل أكثر مع القضايا العربية نفس تفاعل الأدباء العرب الآخرين.

كنت أنشر شعري أولًا في الثلاثينات في مجلة «الرسالة» المشهورة للأديب المصري أحمد حسن الزيات. ومن الأربعين حتى منتصف الخمسينيات رحت أنشر أشعاري ودراساتي النقدية والأدبية في مجلة «الأديب» المعروفة في لبنان.

وقبل «أرض الشهداء» كنت أصدرت ديوانين هما «العرائس» عام 1946م. و«قبلتان» عام 1948م. ثم «أرض الشهداء» في عام 1951م.

وبخصوص الالتزام والشعر فقد عبّر «العريّض» عن ذلك في مجلة «كتابات» التي أصدرت عنه عددًا خاصًا في البحرين عام 1981م. قال فيه: الشعر كله التزام، والالتزام يأتي مفروضًا على الشاعر، لكنه مفروض من الداخل لا من الخارج.. العاشق يندفع في الشعر الذي يكتبه من الغزل من دون أن يعرف ماذا هو ملتزم به، ولكن كل ما يكتبه هذا العاشق هو الالتزام.. التزام الصدق.. التعبير الذي يصوِّر واقع الحياة كما هو، أما إذا اعتبر نفسه كعاشق وينظر إلى نفسه كما ينظر إليها الآخرون ويريد أن يصف نفسه كعاشق فهذا التزام باطل. ولذلك كل ما يأتي من الأشياء التي يدعو فيها الشعر ويستهدف بها الإصلاح ورفع المستوى يأتي من غير قصد.. لا يأتي مباشرة وإنما يأتي من ضمن التداعي. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، قضية الإنسان في الحياة كمخلوق. إن أكبر ميزة يتميّز بها الإنسان في الحياة هي أن يكون في حالة كونه مخلوقًا ـ خالقًا، لأن المخلوق بحكم حياته مفروض عليه أن تكون حياته محدودة. والمخلوق دائمًا في صراع مع الموت. ولذلك هو يحاول

أن يخلق. عندما يتزوّج وتكون له الصلة الجنسية مع المرأة ثم تأتي له بولد، في مثل هذه التجربة هو يشعر بشعور الخالق، والشيء نفسه بالنسبة للفنون.. المجال مفتوح في الفنون لكي يكون خالقًا.. المجال مفتوح في السياسة، في التجارة، ليس كل تاجر خالق، ولا كل سياسي خالق، ولا كل من أمسك بالقلم خالق. ونحن لماذا نهتم بالذي يخلقه الأديب أو الشاعر؟ لأننا بكون حكمنا مخلوقين إذا جئنا إلى عمل فقد دخل فيه عامل الخلق، فإن هذا العامل يعدّنا لكي نستجيب إلى مشكلات الحياة بالصّبر والجلد والتعلّم. ولقد استشهدت في إحدى محاضراتي بما جرى في إنكلترا عندما كانت القنابل تُلقى عليهم في الحرب، وهذه الحقيقة فعلًا فتّحت ذهني إلى شيء لم أكن أدركه من قبل، وهو أن كل أثر فني دخل فيه عامل الخلق لا يزال حيًّا. عندما كانت القنابل تُلقى على الإنكليز ثم تأتي فترة استجمام، فإن اللوحات الفنية المودعة في المتاحف كانت تُخْرج وتوزّع على أبواب المخابئ حتى إذا مرّ من أمامها المارة ونظروا إليها وهم يعيشون في ذلك الكابوس واليأس والتشرد فإن الروح التي دخلت في خلق هذه اللوحة تصيبهم بعدوى حب الحياة. وإذا أنت أحببت الحياة صارت عندك القدرة للدفاع عنها، ولذلك لم تمت الإرادة عندهم للمقاومة والتغلّب على العدو.

الالتزام بالعروبة قضية لا فكاك منها وقضية محسومة لا رأيان فيها لكن فيها بعض كلام للعريّض يقول فيه: «عندما جئت إلى البحرين في العشرينات من الهند لاحظت وجود التعصب كغيرها من البلدان العربية. فأهل المنامة مثلاً يعتبرون أنفسهم في معزل عن مدينة المحرّق، وأهل المحرّق يعتبرون أنفسهم كذلك. بل إن المحرّق كانت تعتبر نفسها أولى بالثقافة وأنها الأكثر تميزًا، بسبب النشاط الثقافي فيها ووجود النادي الأدبي. والغريب أن هناك

تعصبّات أخرى مع أن عدد سكان البحرين آنذاك لا يتجاوز المائة ألف أو أقل بكثير!

غير أن هذا التعصّب أفادني على العكس وجعلني أنظر إلى الأمور بنظرة أبعد، كانت هذه النظرة هي العروبة كانتماء وخيار، وأنظر إلى أن الجميع أبناء بلد واحد، بلد عربي الانتماء في اللغة والحضارة والتاريخ والدين. ووجدت العروبة هي خياري وملاذي.

بل إن العروبة جعلت أفقي يتّسع لجميع البلدان العربية وأعرف عنها وأكتب في الصحف العربية.

وكل هذا جعلني معروفًا عربيًا أكثر من داخل بلادي البحرين. وكان شعري يُقرأ ويُسمع في أي منطقة عربية. حتى أنني فوجئت عندما ذهبت مع شركة النفط التي أعمل بها إلى حضرموت مع بداية الستينيات عندما عرفوا بوجودي فطلبوا مني إقامة أمسية شعرية. ذهلت لوجود عدد كبير من اليمنيين الذين قرأوا لي ويعرفونني شعرياً.

غير أن أجمل تواصلي مع العروبة كان مع لقائي بزعيمها الراحل جمال عبدالناصر. ففي عام 1957م. كنت مدعواً لحضور مؤتمر الأدباء العرب المنعقد في القاهرة. ووقتها شاركت ممثلًا عن شخصي وعن أدباء البحرين مع أدباء العرب.

في أحد أيام المؤتمر لبّينا دعوة عشاء أقامها الرئيس العروبي الراحل جمال عبدالناصر لنا كأدباء. وقبل العشاء وقفت مع الأدباء في طابور للسلام على الزعيم عبد الناصر الذي وقف بجانبه الأديب المصري المعروف يوسف السباعي وراح الزعيم يصافح الجميع. وعندما وصل دوري صافحته وقبّلته على جبينه وقال لي: «أهلًا بك». والتقط في تلك اللحظة أحدهم صورة لي وأنا أصافح الرئيس ولم أكن على علم بشيء.

وانتهت تلك اللحظة النادرة والجميلة غير أنني فوجئت في الصباح في فندقي بالقاهرة بزميل يركض إليّ ويقول لي انظر صورتك مع عبدالناصر في جريدة الأهرام وعلى الصفحة الأولى أيضًا.

وفعلًا رأيت صورتي وأنا أقبل جبين عبدالناصر في الصفحة الأولى والمانشيت يقول «البحرين تصافح الرئيس» هكذا كُتب.

طبعًا بُهرت بهذه الصورة والخبر. وسألت في الحال أصدقاءنا المصريين عن مصوّر الصورة فأخبروني أنني أستطيع الحصول عليها من الأهرام.

حصلت على هذه الصورة الجميلة منذ ذلك الوقت وبقيت ذكرى أيام عظيمة ذهبت. وفي المؤتمر ألقيت محاضرة أدبية أعجب بها الأدباء ونشرت في أكثر من مجلة أدبية وثقافية.

لم ننسَ الزعيم العروبي ولم يَنْسَنا هو أيضًا. ففي مناسبة رأس السنة الهجرية في الخمسينيات أرسل لي برقية يقول نصّها: «الأستاذ الكبير إبراهيم العريّض. نادي البحرين. يسرني أن أبعث إليكم بخالص التهاني بمناسبة عيد رأس السنة الهجرية، وبتوقيع جمال عبدالناصر».

وصلنا الآن إلى منتصف عمر الشاعر البحريني الكبير إبراهيم العريّض، وبقيت في روزنامة عمر العريّض المديد أيام كثيرة زاخرة وتألّق، وطموحه يسابق السنوات.

ورغم بلوغ الشاعر الكبير العريّض التسعين إلا أن إشعاعه لم ينطفئ، فهو لا يزال يقرأ ويتابع ويقول رأيه والأهم أنه لا يزال يكتب أيضًا، فحتى عام (1998م)، أصدر العريّض في البحرين

ديوانَي: «يا أنت» «إطلالة من شرفة الألفية الثالثة» ونقرأ تحت عنوان «لا كان أمس»:

«وما خطبنا اليوم؟
ماذا يقال؟
ونحن الذين سددنا المسالك؟
طريق الهدى لم يعد مستقيمًا
ولا هو سالك
لكثرة ما طل فيه
دم الأبرياء
اغتيالات.. وصبرا
نراه على ضوء ما كان أمس
(لا كان أمس)
جوازًا لمستنقع في الدماء
كما لو بنينا هناك
جدارًا!
فيا شر حاله!».

نعود إلى سنوات بعيدة ونتجوّل بين أوراق الشاعر العريض ومراسلاته. ونبدأ مع الشاعرة المعروفة نازك الملائكة التي تكتب له من بغداد في 12 ديسمبر/ كانون الأول 1950م. رسالة تقول فيها: أرقّ تحية وأجملها... وألف شكر على هديتك الثمينة التي نزلت من نفسي أجمل منزل، وقد وصلتني منذ أسبوعين مع إحدى تلميذاتي.

ولعلّك تعذر تأخري في الكتابة إليك وشكرك، وعذري جهلي لعنوانك، فلست أكتمك أن «فكرتي» (التي لا أعرف منشأها) عنك أنك تنتقل بين لبنان ومصر والبحرين باستمرار، وقلما تستقرّ في إحداها، وتفاديًا للخطأ سألت التلميذة التي جاءتني بـ«أرض الشهداء» عن عنوانك فجاءتني بالكلمات الثلاث التالية مكتوبة على ورقة صغيرة «إبراهيم العريّض - البحرين».وهو عنوان وقفت منه موقف الشّاك المتردّد - لأسباب أحدها أن البحرين بلاد لا مدينة (وإن كانت بلادًا صغيرة - فهي على كلٍّ بلاد).

وأنا أحب، طبعًا، أن أبعث إليك بديواني الأخير «شظايا رماد»، وقد رأيت أن أتحقّق من صحة العنوان قبل إرساله تجنبًا لإضاعة الوقت، ولذلك أبعث بهذه الرسالة التي أرجو أن تصل سالمة.

قرأت قصيدتك الأخيرة في «الأديب»، ولاحظت حالاً وزنها الذي يندر استعماله في الشعر، على الرغم من أنه أحد البحور الستة عشر المحفوظة. ولو حدّثتك بتاريخ هذا البحر الشعري في نفسي لأدركت سبب سروري بقراءة قصيدتك.

ويكتب الأديب المصري وديع فلسطين رسالة إلى العريض في 12 أكتوبر/ تشرين الأول 1951م. يقول فيها: «أشكر الظروف السعيدة التي هيّأت لي أن أجتمع بكم في القاهرة، وكنت أود أن تتاح لي فرصة أطول لأستمتع بحديثكم وأتمكن من تعريفكم ببعض الذين كنت أود أن تجتمعوا بهم كالأستاذ فؤاد صروف والأستاذ سلامة موسى والسيدة وداد إلياس وغيرهم، ولكن عطلة الصيف جعلت القاهرة تقفر من أبنائها، فلجأ معظمهم إلى الثغور أو سافروا إلى الخارج. ولعلّنا نلتقي ثانية، ولعلّ الفرصة تكون أوسع وأطيب من سابقتها، وبيننا الأيام تعين لنا مواعيدها.

وقد تلقّيت رسالتكم التي بعثتم بها إليّ من الإسكندرية، ووزعت صورتكم على الذين تفضلتم فعيّنتم أسماءهم. ثم جاءتني رسالة أخرى من بيروت وفيها صورتان تذكاريتان أعتزّ بهما، ولعلي أوفّق في استخراج نسخ أخرى منها لأوزعها على سائر الزملاء.

وإذا كنت قد أبطأت في الرد على رسالتكم، فما ذلك إلا لأنني كنت على يقين من أنكم تقومون بجولة واسعة في الشرق، وأنكم لن تعودوا إلى مقرّ عملكم قبل انقضاء شهرين أو نحوهما، ولعلكم الآن قد عدتم سالمين، ولعلّ هذه الرحلة تكون حافزًا لنشاط أدبي جديد موصول.

وأظنكم تذكرون أنني وعدتكم بأن أطلب من صديقنا الدكتور أحمد زكي أبو شادي ما أذاعه عنكم من أميركا لأوافيكم بنصه. وقد كتبت إلى الدكتور فردّ عليّ قائلاً: نوّهت بالأستاذ إبراهيم العريّض غير مرة، وللأسف ليس لدي نصوص كلماتي. وسأنوّه به مستقبلًا كذلك وسأوافيك بنص ما أذكر عنه، وأرجو التفضل بتبليغه تحياتي وتقديري.

وما على الرسول إلا البلاغ، وسأكون ساعي البريد بينكما».

ويرسل مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني، من القاهرة بتاريخ 21 مايو/ أيار 1952م. هذه الرسالة للشاعر العرّيض: «حضرة الوطني الفاضل والشاعر المبدع الأستاذ إبراهيم العريض المحترم. تحيةً واحترامًا وبعد، فقد وصل إلى صديقكم الفاضل الأستاذ وديع فلسطين نسخة من الملحمة الشعرية التي نظمتموها عن فلسطين وسميتموها (أرض الشهداء). وقد تلوتها معجبًا بروحكم القوية وعاطفتكم القومية وشعوركم الوطني الفاضل، مع حسن التعبير وفصاحة الألفاظ وبلاغة المعاني التي قصدتم إليها، وتصوير مأساة

فلسطين الشهيرة في أروع صورة وأجلى بيان، وإني أشكركم خالص الشكر على هديتكم القيمة، كما أشكركم على ما قدّمتم لفلسطين وللأمة العربية من خدمة جليلة النفع عظيمة القدر بإخراجكم هذه الملحمة الشعرية إلى الناطقين بالضاد وأسأل الله تعالى أن يبارك فيكم ويكثر في الأمة العربية من أمثالكم». مفتي فلسطين.

ومن فلسطين أيضًا كتبت الشاعرة المعروفة فدوى طوقان رسالة إلى شاعرنا العريض من نابلس في 29 مارس/آذار 1954م. تقول فيها:

«سيدي الشاعر الملهم الأستاذ إبراهيم العريّض

تحية خالصة

وافاني البريد بمجلة «صوت البحرين» الزاهرة، ويسرّني أن أوفق إلى التعبير عن مدى سروري بمقالك القيم «قضيتنا الخاسرة»، وثنائك فيه على قصيدتي «حلم الذكرى». وإذا كان من عادة الناس في هذه الأيام أن يحرصوا على كتمان شعورهم مهما سما، فإنني أرجو أن تعذر سذاجتي حين أعبّر لك عن فرحتي الكبرى بإعجابك بقصيدتي. ولعل هذا هو المكان المناسب الذي يصحّ فيه أن أعلن أنني لا أعتزّ بإعجاب ألف قارئ قدر اعتزازي بكلمة تقدير صادقة أسمعها من زميل شاعر أو قارئ حسن التذوق للشعر الحقيقي. وإنه لكسب أدبي لي أن يتجاوب شاعر مثلك مع شعري ويتحسّسه كلمة كلمة ونغمة نغمة. وقد ضاعف من تقديري لمقالك وغبطتي به أن ترافق ظهوره حملات ـ غير مباشرة ـ ضد اتجاهي الشعري، فكثير من الكتّاب والشعراء الوطنيين كالذين أشرت إليهم في مقالك يعتبرونني شاعرة إعلام وعواطف ذاتية بعيدة عن راية النكبة التي أعيش في وسطها. وهم في الوقت ذاته لا ينقصهم التبجح والادعاء بشأن ما ينشرون من شعر (وطني) تافه لا

قيمة فنية له إطلاقًا، وإنما هو إعلام صحف لا أكثر. والله يشهد وديواني يشهد أنني لم أقصّر في شعري من هذه الناحية. إن ما نظمته في موضوع النكبة لا يتجاوز بضع قصائد، ولكني أعتقد أن هذا القليل خير من كثير لأنه أصدق شعورًا وتعبيرًا.

أكتب إليك وأنا غير متأكدة من عنوانك. فقد سبق أن أرسلت إليك رسالة بعد وصول هديتك الجميلة «أرض الشهداء» عبّرت لك فيها عن إعجابي القديم بمآثرك الأدبية وحرصي على شراء كل كتاب جديد لك. كما أني بعثت إليك فيما بعد بديواني (وحدي مع الأيام) أول ظهوره، غير أنني لا أعرف هل استلمت الرسالة والديوان أم أني كنت سيئة الحظ ولم يصلك شيء مني.

أخيرًا.. لا يفوتني أن أبدي إعجابي العميق بمجلة (صوت البحرين) لما تمتاز به من حيوية. ولكم مني كل التقدير والإكبار، واسلم.

المخلصة فدوى طوقان»

وفي 28 مايو/ أيار 1967م. يكتب سكرتير حكومة البحرين رسالة إلى الشاعر العريّض يقول فيها بالنص:

«وردت إلى حكومة البحرين المذكّرة المرفقة من جامعة الدول العربية بشأن الترشيح لجائزة نوبل.

وحيث إننا نود ترشيحكم لهذا الغرض فإننا نرجو لو تفضّلتم بموافاتنا بالبيانات المطلوبة والمؤشر عليها بعلامة (×) في الذمة، هذا ما لزم ودمتم».

ويردّ العريّض على الرسالة بتواضع عجيب قائلًا ببساطة:

حضرة محترم المقام سكرتير حكومة البحرين الموقر

تحية واحترامًا وبعد:

أشكركم على اهتمامكم في كتابكم الكريم رقم 62/ 1275 بتاريخ 28 مايو/ أيار 1967م. والذي عقّبتم عليه بكتابكم الأخير رقم 62/ 1530 بتاريخ 3 يوليو/تموز 1967م. ومطلوب فيه موافاتكم بالبيانات المطلوبة في مذكرة الجامعة العربية حول موضوع الترشيح لجائزة نوبل. وأودّ أن أؤكد لكم أن آثاري الأدبية ـ في رأيي ـ لا تحمل أية مؤهلات للحصول على هذه الجائزة ولذلك فإن كل إيضاح حول هذه الآثار غير ذي موضوع.

أشكركم من جديد على الاهتمام بالموضوع وتفضّلوا بقبول خالص تمنياتي.

المخلص إبراهيم العريّض

ونخرج من حزمة الرسائل والمكاتيب إلى واحة الشعر، حيث يقول العريّض في تجربته مع ترجمة الخيام المشهورة، ونشر هذا الرأي في مجلة كتابات البحرينية:

«ما كنت أعرف الخيام، ولا درسته مبدئيًا في اللغة الفارسية، وإنما تعرّفت عليه عندما كنت طالبًا في ترجمة فيتزجيرالد، عندما وقع في يدي كتاب مختارات من الشعر الإنكليزي بينها تلك الرباعيات التي بلغ تعدادها خمسًا وسبعين رباعية، هي التي ركّز فيتزجيرالد عليها ترجمته وهي من عيون الشعر. فلما جئت إلى الوطن أخذت أطّلع على التراجم العربية التي صدرت، وكان أولها ترجمة البستاني ، ثم ترجمة السباعي (والد الكاتب يوسف

السباعي) وكان لها أثر أدبي كبير وقت صدروها بالفصحى واستخدم فيها الأساليب العربية المألوفة، لكنه أظهر الخيال بسيطًا من ناحية أسلوبه الفلسفي وغنى المعاني التي تناولها، ثم جاءت ترجمة الزهاوي وترجمة الصراف نثرًا وصدرت دراسات ثم ترجمة الصافي، أخذت أشعر: هل هؤلاء الذين ترجموا للخيام استطاعوا أن يخلقوا فيّ إحساسًا للشاعر كالإحساس الذي آنسته عندما اطلعت على ترجمة فيتزجيرالد في شبابي؟ فقلت في نفسي: لا. لقد افتقدت في التراجم العربية جميعها شيئًا لم يكن ميسورًا إلا للذي يعرف ترجمة فيتزجيرالد، من ناحية روح الخيام. فلما توسّعت في الاطلاع بالفارسية ظهرت أمامي حقائق ثلاث:

الحقيقة الأولى: أنه ليس هناك كتاب محدود المعالم، رباعياته محفوظة معروفة تستطيع أن تقول إن هذا هو الخيام فتأتي إليه وتترجمه. ومن جملة ما اطلعت عليه أن الرباعيات التي ترجمها فيتزجيرالد مأخوذة من نسخة موجودة في مكتبة حكومة الهند البريطانية في كلكتا، ولقد كتبت هذه النسخة بعد الخيام بثلاثمائة عام، وكانت بها مائة وثمانية وخمسون رباعية.

وهنا ظهرت **الحقيقة الثانية**: وهي أن فيتزجيرالد لما جاء ليترجم الخيام لم يترجمه حرفيًا، إنما أخذ هذه الرباعيات واستطلعها أولاً، فوجد أن بها أشياء كثيرة مكررة. المعنى نفسه تكرّر بقافية ثانية وهي مرتبة في مجموعات وليس فيها تنسيق، فإذا كان المترجم حريصًا على أن يرتفع بترجمته إلى مستوى عالٍ فهو مضطر ألا يكرر المعاني ولذلك اقتصر فيتزجيرالد على ترجمة 75 رباعية من أصل 158 المثبتة في الأصل. كما أنه لم يأخذ ترتيب هذه الرباعيات كما ورد في الأصل.

ولأنه تعمّق في دراسة المعاني الواردة فيها وعوّل على أن يجعل رباعيات الخيام في ترجمته تبدأ من نقطة وتنتهي إلى نقطة. فوجد في رباعية أنها تشير إلى إنسان يأتي إلى حبيب ويحاول أن ينبّهه ويقول له لا تضيّع عمرك في اللوم فالساعة التي تنقضي من يدك لا تعود إليك. ثم في رباعية أخرى الشاعر يمشي مع حبيبته في ليلة قمراء فيلتفت إلى القمر قائلًا: إن هذا القمر يطل علينا الآن ولكن سيشرق بعدي مرارًا ولن يجدني. فهنا الحاسة الشعرية جعلته يبدأ من نقطة خاصة وينتهي إلى نقطة خاصة وينسّق المعاني الباقية من دون أن يكرّرها في الوسط. وهذه الحقيقة جعلتني أفكر بأن الترجمة في الشعر، لأن الشعر غاية في ذاته وليس وسيلة إلى شيء، الشعر أصلًا لما يكتبه الشاعر يكتبه لغاية في ذاته، ولذلك عندما ترجم فيتزجيرالد الخيام خلق أمامه أثرًا إنكليزيًا جديدًا، حيًّا، يعطيك روح الخيام. بينما هؤلاء الذين ترجموا الخيام والتزموا المعاني الحرفية فيجوز أنهم أعطوك الترجمة الحرفية لكنها جافّة لا توحي إليك بالفيلسوف الذي كان أصل التكوين وكان يدرس النجوم ويحيط بالمعاني الفلسفية.

والحقيقة الثالثة التي اهتديت إليها فيما بعد: عندما أخذت تتجمع بين يديّ نسخ مختلفة للخيام: هو أنه كلما تطاول الزمن على الخيام أخذت تتكرّس هذه الرباعيات التي تنسب إليه فبلغت من 158 في المجموعة التي كانت ميسورة لفيتزجيرالد إلى 200 إلى 300 إلى 400 إلى 500 رباعية إلى أن تجد نسخاً يزيد فيها عدد الرباعيات على الألف. فمن هنا تبين أن هؤلاء الذين يجمعون الرباعيات يجدون معاني ربما تتكرر عند شعراء آخرين على الغرار الذي عند الخيام فيأخذونها وينسبونها إلى الخيام. فمثل الخمريات التي تُنسب إلى أبي نواس وهي في الأصل ليست له. ومن هنا ظهر

بأن الخيام أصبح أسطورة عند الناس، لكنهم يتصوّرون بأن هذه الأسطورة ـ لكثرة ما تردد في هذا المعاني التي تنسب إليه وهي أصلاً ليست له ـ تدور كلها حول الشراب واللعب والاستمتاع بينما الخيام أصلًا كان مفكرًا. وكان يعيش عصره، وكان عصره يختلف عن عصرنا الذي نعيش فيه. وكانت الفتن قائمة، والدول تتذابح، والفرد لا ضمان له في حياته مثلما هو موجود اليوم. فنظر نظرته إلى الحياة كما هي، ثم نظر نظرته إلى الدين كما يفهمه الناس، ووجد أن نظرة الناس إلى الدين من ناحية إيمانهم بالأشياء يجعلهم يؤمنون بأشياء كثيرة تتناقض مع نفسها. فعندما يؤمن هذا الرجل (أن الخير والشر من الله)، ظاهر القول هذا يؤدي إلى التناقض، لأنه إذا كان الخير والشر من الله فكيف يحاسب الله الإنسان على الشر وهو لم يفكر ويشذّب هذه المعتقدات لأنه كان خلافها، وإنما كان الخيام يعرف أن مفهوم الناس بالنسبة للقضاء والقدر بالنسبة لوحدانية الباري عزّ وجلّ».

وبالنسبة للغموض في الشعر العربي المعاصر يرى العريّض أن الشاعر بحكم موهبته يريد أن يعبّر عن شيء ولكون الظروف غير الطبيعة لا تساعده على التعبير، تدفعه الموهبة لكي يتّخذ الأسلوب الذي يستعين به على التعبير عن الشيء المحذور. الغموض هو من العناصر الأساسية في الشعر، لاختلاف أسلوب الشعر ـ كما قلت ـ عن النثر، فأسلوب النثر معنى مجرّد من دون أن يقترن بأي شيء آخر: جئت، ذهبت، أخذت، أكلت. بينما في الشعر فإن الاسم أو الفعل إذا استعملها الشاعر فإنها بالإضافة إلى ما يعنيه مرتبط بظرف خاص وفي حالة خاصة من شعوره الذاتي، فإذا كان الشيء المراد التعبير عنه ـ بحكم التداعي الذي يجري في كلام الشاعر ـ لم يأخذ مكانه الصحيح فإنه يخلق تناقضًا بين بعضه

والبعض الآخر عند القارئ، وهذا التناقض يخلق الغموض، لأن القارئ هنا أمام إنسان يجمع بين النقيضين، يعني مثلًا أنك إذا قرأت فيه معنى من المعاني تصور في ذهنك أنه يعني كذا. ثم تمضي في القراءة، التداعي الذي ينشأ للمعنى الثاني يوحي إليك أنه يعني شيئًا آخر، بمعنى أن التداعي ليس حرًّا وليس صحيحًا وإنما هو مفتعل، وهذا الافتعال لا يصير إلا عن عجز. أما لو كان عن قدرة فاللغة، التي هي لغة الشاعر، يفهمها جميع الشعراء. فالشيء الذي يجب أن نحتاط إليه في تفهمنا للشعر هو هذا الأثر الذي أمامنا، وهل هو لذي موهبة؟ فإذا لم يكن لذي موهبة فمحاولة تفهّمه ضياع وقت، فإذا كان ذا موهبة، هل اعتمد على موهبته فحسب؟ أو أنه استطاع أن يروّض المادة لكي يعبّر عن هذه الموهبة؟ إذا كان في أول تجربة فنحن نتحمل منه المحاولات حتى يستقيم عوده، حتى يصلب عوده، هذا هو التشجيع الذي يحتاج إليه الشاعر، أن نتقبل منه الأشياء حتى يتقوّى، فإذا تقوّى وتعرّض إلى دروس لا يستطيع فيها أن يطلق العنان لموهبته أن تجابهه به الناس للذي يريد أن يقول، فإن موهبته نفسها تشقّ لها طريقًا شعريًا آخر للتعبير عن هذا الذي يريد أن يعبّر عنه. يفهمها الشعراء لأنها لغتهم بينما لا يفهمه غير الشعراء لأنها تختلف عن اللغة التي يفهمونها، وهذا هو عنصر الغموض.

وحتى سبتمبر/ أيلول 1999م. كتب العريّض هذه القصيدة «بين يدي الزمان» نقتطف منها:

جار في حكمه الزمان وحابى ... عالمًا في غبائه فتغابى
في اختلاف اللونين بيضًا وسودًا ... كعداة طورًا، وطورًا صحابا
واعتناق الحدود إن هي قرّت ... في مراعٍ، أو هاجروا أسرابا

فاختراق، ما كان في الأصل إلا ... ثغرات، أو للحداثة بابا
معرض الحلم كالحقيقة، لولا ... فأصل الجد في التمثيل ذابا
فإذا الفن ليس بالفن أصلاً ... وإذا الرشد بان للرشد عابا
لم يعد فيه للمروءة شأنٌ ... إنما الشأن فيه عاد انتسابا
بقوى الأرض مواطنًا لغلو ... طمس الحسن جذوة ورغابا

وأخيرًا سألت الشاعر الكبير إبراهيم العريّض: لقد عشت هذا القرن وعاصرته منذ البدايات وحتى النهايات. ماذا تقول؟

أجاب:

«دواؤك منك ولا تشعرُ ... ودواؤك فيك ولا تبصرُ
أتحسب أنك جرمٌ صغيرٌ ... وفيك انطوى العالم الأكبرُ»

في هذين البيتين الشعريين تلخيص لرؤيتي للإنسان في هذه الدنيا.

وعندما لملمت أوراقي وجهاز التسجيل وأنا أهمّ مغادرًا، قلت للأديب الكبير: أنا عاجز عن الشكر، ففاجأني بتواضع العالم وبساطة العظماء الجميلة: سامحني يا بني إن جعلتك تُصاب بالملل.

اعتذرت من الشاعر العريّض، وغادرت البيت والشعر والسنوات الجميلة والكتب والقرن كله![*]

(*) ذكريات سجّلها الكاتب مع الشاعر إبراهيم العريّض في نهاية أكتوبر/ تشرين الأول 1999م

يلقي إحدى قصائده في الستينيات

الشاعر العريض يقبل جبين الزعيم الراحل جمال عبدالناصر في القاهرة عام 1957

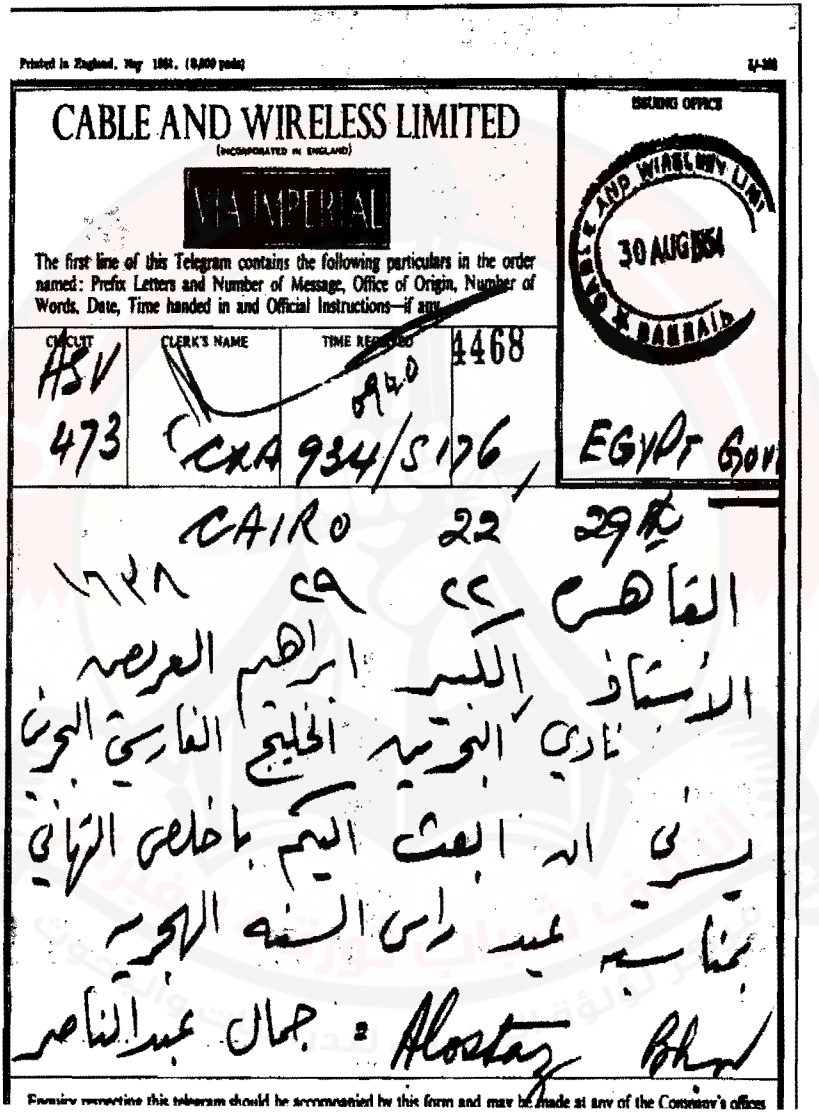

Printed in England, May 1951. (8,000 pads)

CABLE AND WIRELESS LIMITED
(INCORPORATED IN ENGLAND)

VIA IMPERIAL

The first line of this Telegram contains the following particulars in the order named: Prefix Letters and Number of Message, Office of Origin, Number of Words, Date, Time handed in and Official Instructions—if any.

ISSUING OFFICE

CABLE AND WIRELESS LIMITED 30 AUG 1954 BAHRAIN

CIRCUIT	CLERK'S NAME	TIME RECEIVED	4468
ASV 473		0940	

CKA 934/S176 EGYPT GOVT

CAIRO 22 29

القاهرة ٢٢ ٢٩ ١٦٢٨

الأستاذ الكبير ابراهيم العريض

نادي البحرية الخليج الفارسي البحرين

يسرني أن ابعث اليكم باخلص التهاني

بمناسبة عيد رأس السنة الهجرية

جمال عبدالناصر = Alostaz Ibra

Enquiry respecting this telegram should be accompanied by this form and may be made at any of the Company's offices

برقية تهنئة من الزعيم عبد الناصر إلى إبراهيم العريض

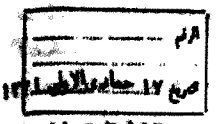

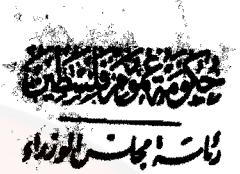

حكومة عموم فلسطين

رئاسة مجلس الوزراء

الرقم ....

صريح ١٧ جمادى الاولى ١٣٧١

١٣ / ٢ / ١٩٥٢

حضرة الاديب العربي الكبير الاستاذ ابراهيم العريض

تحية واحترام وبعد ، فقد تلقيت مع عظيم التقدير وكبير الاعجاب كتابكم القيم ((ارض الشهداء)) وانى اذ اقدم لحضرتكم خالص شكرى على اهدائى هذه التحفة الادبية الرائعة التى صورتم فيها كارثة فلسطين اروع تصوير واهبتم فيها بالمخلصين من رجال الامة العربية الكريمة ان يستردوا هذا الوطن العربى المقدس وينقذوه من براثن الصهيونية الباغية ... الله سبحانه وتعالى ان يكثر من امثالكم ممن يخلصون لله وللوطن ...

وتقبلوا ... فائق التحيات مشفوعة بالاجلال والاحترام ،،،

DIRECTORATE OF MUSEUMS & HERITAGE

المخلص

رسالة من حكومة عموم فلسطين إلى العريض

الصّبّي عبدالعزيز الشملان
في الهند (1923 - 1926 م):
تلميذ في المنفى

بعد صدامات عنيفة ونشاط علني وسرّي معادٍ لسلطات الاستعمار البريطاني في البحرين، وجد مسؤولو الوكالة البريطانية في المنامة وعلى رأسهم المعتمد «كلايف ديلي» أن أفضل وسيلة لإسكات الناشط السياسي والزعيم الوطني البحريني «المشاغب» في نظرهم سعد الشملان هو نفيه إلى الهند.

لم يكن قرار النفي إلى الهند مفاجئًا على السياسي سعد الشملان، لكنه كان مؤلمًا على مثقف وسياسي وجد أن مصيره ومصير عائلته وربما بلاده كلّها في يد رجال ينفّذون أوامر التاج البريطاني الذي يتحكّم بمقدراتهم.

كان «عبدالعزيز» -أحد أبناء الزعيم سعد الشملان- أكثر من ذاق مرارة قرار النفي، آنذاك في بداية شهر مايو/ أيار 1923م. شعر عبدالعزيز الشملان بأن أيامه الجميلة وصحبته الرائعة مع تلاميذ «مدرسة الهداية الخليفية» بالمحرّق؛ المدرسة النظامية الوحيدة في البحرين آنذاك، توشك أن تنتهي، إن لم تكن قد انتهت فعلاً.

لم تكن مدرسة الهداية بالنسبة للشملان الابن مجرّد مدرسة عادية، بل كانت بيتًا وأصدقاء وملاعب طفولة وثقافة وتشكيل وعي

سياسي. كانت «الهداية» بالنسبة للتلميذ عبدالعزيز عالمًا جميلًا مملوءًا بالطموحات والأيام السعيدة والمستقبل المفتوح.

وفجأة، مع قرار النفي إلى الهند، شعر بأن كل شيء ينهار، وكل هذا العالم الجميل يكاد أن ينتهي، وكانت المرارة أكبر من أن يتعلّمها تلميذ صغير في الحادية عشرة من عمره تقريبًا.

وفي صباح أحد أيام نهاية مايو/أيار 1923م. وصل مرسال الوكالة البريطانية إلى بيت سعد الشملان في الجفير على حماره، يحمل الأخبار السيئة، ورسالة تحديد يوم النفي إلى الهند.

وبالفعل يقرأ سعد الشملان رسالة الوكالة البريطانية بلهفة، والتي تقرّر فيها يوم النفي، والمركب الذي سيأخذه من ميناء المنامة. لم يمهل الإنذار أو الرسالة سعد من الوقت كثيرًا، فكان كلّ ما حمله هو حقيبة صغيرة مملوءة بالاحتياجات الضرورية من ملابس بسيطة وغيرها، وطعام يكفي لمدة الرحلة.

في ذلك الوقت كان سعد اختار الرحيل منفردًا، حتى يرتّب أموره في الهند ثم يجلب عائلته التي لم يكن عندها مُعيل في البحرين سواه.

وبسرعة تمّ كل شيء، ورحل سعد الشملان على أول باخرة إنكليزية متوجّهة إلى الهند، وترك وراءه المرارة وإحساس الخيبة وانهيار الأحلام، خاصة لدى ابنه عبدالعزيز.

بعد أسابيع قليلة جاءت رسائل سعد الشملان إلى عائلته حول الاستعداد للسفر ونصائحه في ذلك، بل وشروحات كثيرة حول إرشادات السفر والعيش في الباخرة.

ومع ازدياد وتيرة السفر والرحيل إلى المنفى، حاول عبدالعزيز

البقاء في البحرين والعيش مع عمته في المحرّق، لكن كل محاولاته فشلت، وفي النهاية لم يجد حلًا أو خيارًا سوى الامتثال لرغبة والدته التي أقنعته بعدم جدوى البقاء في البحرين وحيدًا.

أوهم التلميذ نفسه بالاقتناع، لكن هذا «الاقتناع» المزيّف كان ينهار عندما ينزوي في إحدى الغرف، ويذهب في نوبة بكاء شديد، ومع الوقت عرفت العائلة كلها أن عبدالعزيز يبكي بكاءً حارقًا، وتصوّرت أن هذا البكاء بسبب نفي والده والمصير المجهول الذي ينتظره، لكن الواقع ـ كما يروي المرحوم عبدالعزيز الشملان(*) ـ هو أن البكاء الحار كان بسبب فراقه للبحرين، وفراق مدرسته وأصدقائه وعالمه الجميل.

حتى الدموع الحارّة لم تنفع شيئًا، فقد أرسلت البرقية من العائلة إلى سعد الشملان تخبره عن موعد وصول الباخرة ورقمها حتى يكون بانتظارهم.

في صباح السادس والعشرين من شهر يونيو/حزيران عام 1923م. أطلقت الباخرة «باربيت» صفاراتها في فرضة (ميناء) المنامة معلنة بداية رحلة طويلة إلى الهند.

كان التلميذ عبدالعزيز الشملان يجلس في الباخرة ويتأمّل البحر ويشاهد كل شيء؛ الميناء وهو يختفي، والأمواج وهي تتلاطم. كان يسافر لأول مرة غير أنه أحسّ بأنه يغادر البحرين وكأنه لن يعود.

في الأيام الأولى من الرحلة كانت الساعات تمضي بسهولة،

(*) جزء من مذكّرات رواها المرحوم عبدالعزيز الشملان للكاتب في شهر سبتمبر/أيلول من العام 1986م

وكانت الرحلة إلى مسقط: المحطة الأولى في الرحلة، تبدو وكأنهم في نزهة جميلة.

ولكن بعد توقف مسقط والإبحار إلى الهند تغيّرت الأوضاع، فقد تعبت العائلة من السفر، وكان تأثير الرياح الموسمية التي هبّت على المحيط الهندي كبيرًا، وكانت الرياح كالجبال في قوتها. وكانت أوامر قبطان ومسؤولي الباخرة عدم الطلوع إلى السطح، كي لا يسقط أحد الأطفال أو النساء من متن الباخرة، بسبب الأمواج العالية التي كان بعضها أعلى من الباخرة نفسها.

قبل نهاية الرحلة التي استغرقت حوالي أحد عشر يومًا من السفر، وصلت الباخرة إلى ميناء كراتشي، وتوقفت هناك لبضع ساعات، ثم مضت إلى نهاية الرحلة، إلى بومباي أخيرًا.

وفي ميناء بومباي كان سعد الشملان في استقبال عائلته المكوّنة من زوجته وابنيه: عبدالعزيز وعبداللطيف. وخلال دقائق ركبت العائلة عربة تجرّها خيول أوصلتها بعد عبور شوارع وعرة وزقاق ضيق إلى شقة متواضعة في أحد أحياء مدينة بومباي.

كانت الأيام الأولى للتلميذ المنفي عبدالعزيز الشملان في بومباي أيامًا مملوءة بالدهشة لصبي لم يتجاوز عمره الحادية عشرة يأتي من جزر البحرين الصغيرة الهادئة إلى بلد غريب وعجيب مثل الهند. ولعل أكثر ما أدهشه هي الشوارع المرتّبة والبيوت المنظمة والخضرة والسيارات و(الترام)، وكلها غير موجودة في البحرين آنذاك.

دهش التلميذ أكثر من البيوت الكثيرة التي تحيطها الحدائق، وكانت كلها مناظر مثيرة للعجب، وأُعجب أكثر بالعمارة وطرازها.

لكن الكثير من الدهشة اختفى أو كاد عندما تلقى الصدّمة الكبرى بعد وصولهم إلى الهند بعدة أيام، عندما قال لهم والدهم: سنمكث في الهند يا أولادي أربع سنوات، فاستعدوا لهذه المشقة.

شهقت الأم في الحال عندما سمعت الخبر، وصُدم عبدالعزيز وأخوه، وكانوا يردّدون لبعض الوقت: أربع سنوات.. أربع سنوات.. أربع سنوات في الهند وفي الغربة ومن دون وطن ومن دون أصدقاء ولا أحلام.

هكذا بدا الوضع الحزين للتلميذ عبدالعزيز، فالانقطاع الذي تصوّر أنه موقت عن الدراسة في مدرسة الهداية، وجده الآن طويلًا، وكل الأحلام التي خطّط لها في البحرين حول تكملة الدراسة والذهاب إلى الجامعة تبخّرت وذهبت مع رياح المحيط الهندي.

كانت الأسئلة الصعبة تبدو أكثر قسوة وأكثر مرارة: كيف ستمرّ أربع سنوات في الهند؟! ما هو مستقبلنا هنا؟ وغيرها من الأسئلة.

بدت الأسئلة مع الوقت أسهل من كل شيء. ففي بومباي المدينة المدهشة للوهلة الأولى بدت قساوة الحياة ومرارة المنفى وشظف العيش. فسعد الشملان لم يكن ميسور الحال، إذ كان مجرد تاجر صغير في بيع اللؤلؤ، وكان بالكاد يكفي معيشته ورزق أولاده. وزادت المأساة حينما لم يكن يستطيع الأب سعد بيع لآلئه في الهند بسبب تدني الأسعار وكساد البيع، ووجد أن الاحتفاظ بها أفضل.

أما على الصعيد السياسي، فكان مجموع المنفيين البحرينيين آنذاك، أمثال: الشيخ عبدالوهاب الزياني، وقاسم الشيراوي، وأحمد ابن لاحج، وسعد الشملان ينشطون في رفع قضاياهم في المحاكم بالهند، وتصعيد الحملة ضد الإنكليز وحكمهم التعسّفي في البحرين.

نجح المنفيون البحرينيون في توكيل أشهر محامي الهند وقتها، أمثال الزعيم الهندي الشهير المهاتما غاندي،والزعيم المسلم المعروف محمد علي جناح: مؤسس باكستان في ما بعد.وكان التاجر النجدي المقيم في بومباي محمد السديراوي يقف إلى جانب المنفيين ويساعدهم ماديًّا ومعنويًّا. فاتحًا لهم بيته لعقد الاجتماعات المكثّفة مع المحامين ومناصريهم من الهنود ، وكان العمل في قضية المنفيين يجري ليل نهار.

في ظل هذا النشاط السياسي والحقوقي واجه الصبي عبدالعزيز وعائلته مأساة النفي، وكان أكثرها إيلامًا هي الإقامة الجبرية التي فرضها الإنكليز في الهند على العائلة كلها.

فقد كانت عائلة الشملان تخرج في الأوقات المسموح بها فقط، وهي من الساعة الثامنة صباحًا حتى الساعة الثانية عشرة ظهرًا، والخروج في بقية اليوم يكون بتصريح أو بإذن خاص والتواجد في البيت في الساعة السادسة مساء. أما يوم السبت فكانت العائلة تذهب إلى مركز الشرطة القريب والبقاء فيه لمدة ساعتين لإثبات حضورها.

سبّبت مشكلة الحضور والخروج بتصاريح انتكاسة لسعد الشملان والصبي عبدالعزيز، اللذين لم يتمكنا من دخول محاكمة المنفيين البحرينيين الشهيرة التي ترافع فيها غاندي ومحمد علي جناح.

ففي بداية العام 1924م. انعقدت المحاكمة الشهيرة، واستطاع المحامون فيها إبطال كل حجج الإنكليز الباطلة، ودافعوا عن حقوق المنفيين البحرينيين في العودة إلى بلادهم، وقالوا في المحكمة: إن ما قام به الوطنيون في البحرين هو جزء أساس من حقوقهم في الوقوف ضد الاستعمار والنضال ضده، وهي حقوق شرعية تضمنها الحقوق الدولية ما دام نضالهم بالوسائل السلمية.

وبعد مرافعات استمرت ثلاث ساعات كاملة، أصدرت المحكمة أحكامها بتأجيل القضية لمدة شهرين.

خارج المحكمة كانت الأوضاع في شوارع بومباي مشتعلة، حيث كانت هناك اشتباكات طائفية عنيفة بين الهندوس والمسلمين. ورغم أن الشملان الأب والصبي وصلا إلى المحكمة في الوقت المحدد، إلا أنهما لم يستطيعا دخولها رغم كل المحاولات التي بذلاها.

فقد حاول سعد مثلاً رشوة الشرطة القريبين من المحكمة، ولكن أحد الشرطة قال لهما بصراحة: يمكنني أن أدعكما تجدان طريقة لدخول المحكمة ولكن من يضمن خروجكما؟ لا تعرّضا حياتكما للخطر.

كانت الاشتباكات الدامية والاقتتال بين الهندوس والمسلمين في كل شوارع بومباي تقريبًا قرب المحكمة، بل وعند بابها، وكان الصبي عبدالعزيز ووالده في قلب أماكن إطلاق الرصاص، ويقتل هنا وهناك رجالٌ من الجانبين.

المهم، انتهت المحاكمة بالتأجيل، ورجع الشملان وابنه إلى البيت سالمين، وأخبار المحاكمة وصلت إليهم. وبرغم تأجيل القضية إلا أن المرافعات القوية والحجج الدامغة وأصداء المحاكمة في الصحف كلها دفعت الإنكليز إلى الإحساس بخسارتهم للقضية وربما تأكدهم من ذلك.

ودلّلت على ذلك بتخفيف الكثير من القيود والضغوط على المنفيين البحرينيين، ورفعت الإقامة الجبرية عنهم.

وبعد تحسن تلك الأوضاع بعض الشيء للوطنيين، جاءت المحاكمة الثانية، والتي سجلت انتصارًا كبيرًا لقضية البحرين. فقد

قضت المحكمة ببطلان الإجراءات البريطانية لنفي الوطنيين جميعًا، وأمرت بعودتهم إلى بلادهم. وقالت المحكمة في حثيثيات الحكم: إن ما قام به البحرينيون هو دفاع شرعي عن وطنهم، وإن ما قاموا به في نضالهم كان بوسائل سلمية وليست عنيفة.

وحاول الوطنيون الحصول على تعويضات مالية من سلطات الاستعمار من جرّاء النفي، إلا أن المحكمة لم تقض بذلك.

بعد تلك المحاكمات الشهيرة توفي في بومباي الزعيم الوطني الشيخ عبدالوهاب الزياني، وكانت وفاته خسارة كبيرة لقضية البحرين. كان الشيخ الزياني من أكبر الزعماء الوطنيين وأشهر المُعادين للإنكليز، وأكثر الشخصيات الداعية للإصلاح في البحرين. وكانت وفاته بعد معاناته الشديدة في المنفى، وهو الشيخ الكبير في السن، وخسارته في تجارة اللؤلؤ.

للوهلة الأولى شعر المنفيون ورفاقهم بأن قضية البحرين قد انتهت بوفاة الزياني، إلا أن الجماهير العربية الغفيرة التي شيّعت الزعيم الوطني البحريني في المقبرة الإسلامية أكّدت إصرار الجميع على مواصلة نهج الكفاح ضد المستعمرين الإنكليز في البحرين وفي كل مكان في البلدان العربية.

خارج تلك الأجواء السياسية الملتهبة وعذابات المنفى المريرة، كان الصبي عبدالعزيز يحاول تخفيف تلك المأساة.

ولم يخفِّف كل تلك العذابات غير «بيت المشاري»، بيت التاجر الكويتي خالد المشاري المقيم مع عائلته في بومباي.

ففي «بيت المشاري» خرجت أول الآمال، وهي الدراسة والالتحاق بمدرسة تدعى «انجمن إسلام سكول». درس فيها

عبدالعزيز اللغة الإنكليزية، ولكنه قرّر إلى جانب اللغة الإنكليزية دراسة لغة «الأوردو». ففي ذلك الوقت كان الشملان ومعه ثلاثة تلاميذ عرب في المدرسة مثال سخرية التلاميذ الهنود، لأنهم لا يعرفون «الأوردو». فقرّر الشملان وحده قبول التحدي ودراسة «الأوردو»: لغة الهنود. كان التحدّي هو دراسة هذه اللغة ليلًا، والليل كان يعني الخوف بسبب الاضطرابات العرقية وقتها، ولكن التحدي سهّل كل شيء، فقد كان الشملان يركب الترام ويصل إلى المدرسة ويتعلّم. وإلى جانب مشقة الدراسة وتحدّياتها، وجد عبدالعزيز في مكتبة «المشاري» كل ما يتمنّاه، فكان يقضي بقية أوقات فراغه وكل أيام إجازاته في قراءة أمهات الكتب العربية التي كانت تزخر بها المكتبة، مثل «الخطط الشامية» لمحمد علي، و«سيرة ابن هشام»، و«الأدب في تاريخ العرب» وغيرها.

بعد المدرسة الإنكليزية التحق عبدالعزيز الشملان بمدرسة الفلاح لصاحبها تاجر اللؤلؤ الحجازي المشهور محمد علي زينل، المخصّصة لأولاد العرب المقيمين في الهند.

في هذه المدرسة وجد فيها مدرّسين متميّزين استفاد منهم كثيرًا. فقد كان هناك المدرس الشيخ عبدالقادر الحجازي: مدرّس اللغة العربية، وكان مدرسًا كبيرًا وعبقريًّا في اللغة العربية وخطّاطًا مشهورًا. وكان هناك مدرّس من البنجاب اسمه بشير أحمد يدرّس اللغة الإنكليزية، وكان مدرسًا متميزًا جدًا.

أما خارج مقاعد الدراسة والمدارس، فقد دخل عبدالعزيز في أنشطة مختلفة وحياة زاخرة أخرى، حاول من خلالها طرد كآبة الغربة وأحزان المنفى.

سريعًا ما تعلّم لعبة «الكريكت» الشهيرة، وراح يلعبها كثيرًا، ووجد نفسه متحمسًا لها مع أصدقائه، أمثال ناصر المشاري وناظم خوجة. وإلى جانب «الكريكت» أوصلت العلاقات الحميمة مع الهندي ناظم إلى حضورهما حفلات موسيقية تُعزف خلالها الموسيقى الكلاسيكية الراقية.

كان صديقه «ناظم» هو أول من دعا الشملان إلى حضور هذه الحفلات (كونسرتو) في بومباي، وكانت هذه الحفلات لا تحضرها إلا الطبقة المترفة من الناس، لأن تذاكرها كانت باهظة الثمن، والموسيقى لا يتذوقها إلا أناس قليلون. كان ناظم يعرف أن صديقه البحريني لا يمتلك ثمن تذاكر تلك الحفلات، لذلك كان يحضر تذاكر مجانية، ويذهبان معًا ويستمتعان بالموسيقى الكلاسيكية وسمفونياتها الخالدة.

في البداية كان الأمر صعبًا جدًّا ـ كما يتذكر الشملان ـ فالحفلات وموسيقاها كانت مملة، ولا يستطيع معها «الطرب»، وهو المتعود على الطرب الشرقي. لكن الخجل منعه في أيامه الأولى. ففي اليوم الأول حاول الخروج في منتصف الحفلة، لكنه تذكّر في النهاية أنه مدعو إلى الحفلة أولًا، وهناك صديق معه، فكيف يتركه بمفرده؟! وهكذا مضت أيام «الحفلات» الموسيقية الكلاسيكية سريعًا، ومن الملل وصلت إلى التذوق والاستمتاع.

وعلاوة على الموسيقى، أُعجب الصبي عبدالعزيز بالسينما، ووجدها فنًّا مدهشًا.

على رغم الأجواء المتوترة والاضطرابات وظروف الإقامة الجبرية، كان عبدالعزيز يجد الفرصة للتمتع بهذا الفن الساحر ومشاهدة الأفلام الأميركية خاصة. وأُعجب الصبي كثيرًا بفيلم «لص بغداد» وشاهده مرات عدة، ووجد فيه روعة في التمثيل.

لكن لم يمض غير وقت قصير حتى كرهها. أما السبب فكان أن السينما وقتها كانت عادة ما تثبّت أفلامًا إخبارية قبل الفيلم، وكثيرًا ما كان يظهر في تلك الأفلام ملك بريطانيا، وكان جميع الهنود الذين يحضرون السينما يقفون «احترامًا» للملك!

أثار هذا «الاحترام» والوقوف للملك البريطاني غضب وحنق التلميذ البحريني المقيم في بومباي والمنفي من بلاده، لأن والده كان يناضل ضد الاستعمار، وبسبب هذا الوقوف للملك الاستعماري كره السينما.

ففي البداية وجد عبدالعزيز أنه من المستحيل أن يفعل مثل الهنود ويقف مثلهم «احترامًا» للملك البريطاني، لكن عدم وقوفه سبّب له بعض المشاكل. ففي إحدى المرات أثار موقف «تلميذ المنفى» فضول أحد الهنود الواقفين أثناء عرض الفيلم الإخباري لملك بريطانيا، فقال لعبدالعزيز: لماذا لا تقف مثلنا لصاحب الجلالة؟!

فرد عليه ردًّا بليغًا قائلًا: «ولماذا أقف له؟ إن هذا الشخص الذي أنت تحترمه هو مستعمر بلادي ومتحكم في مصير شعبي، فكيف تريدني أن أقف احترامًا له؟ وكيف أقف له وقد قتل منكم الكثيرين ويقتل كل يوم؟! إن هذا عيب عليكم، فهو الذي يستعمركم». وكادت تحدث مشكلة كبيرة، لولا تدخل بعض الهنود.

وبسبب «الاحترام الزائف» والوقوف المُهين لرّواد السينما لملك بريطانيا، قرّر الصبي عبدالعزيز ترك السينما إلى الأبد. وبسبب هذا القرار ذهب في أحد الأيام وشاهد ثلاثة أفلام سينمائية دفعة واحدة، كل ذلك من أجل أن يُشبع نهمه من السينما ويودّعها الوداع الأخير.

خارج السينما، وجد التلميذ إعجابًا بمكتبات بومباي العامة، وكان يذهب إليها مرارًا، وبعد رفع الإقامة الجبرية عن العائلة وجد فرصة فيها لقراءة الكتب والصحف الهندية الصادرة باللغة الإنكليزية.

إلى بجانب المكتبات كانت حدائق الحيوانات تثير إعجاب ودهشة أي زائر للهند. ففي ذلك الوقت كانت تلك الحدائق تعبّر عن جمال حقيقي في خضرتها، والأهم في كثرة أنواع الحيوانات الموجودة، والتي اشتهرت بها الهند على مرّ الأزمنة. وكانت حدائق الهند من أفضل حدائق الحيوانات في العالم كله.

وجد عبدالعزيز في حدائق الحيوانات متعة لا توصف، فكان يقضي الكثير من عطلاته المدرسية فيها، وساعدته أوقاتها الطويلة، حيث كانت تلك الحدائق تفتح للجمهور لساعات طويلة.

ومن ساعات المتعة البريئة إلى أيام وأسابيع مرارة النفي وعذاباته، قضى الصبي عبدالعزيز الشملان سنوات المنفى في الهند، وطوى الروزنامة وكتب عليها «العودة إلى البحرين».

سعد الشملان

الصحافي علي سيَّار يتذكّر: «قمر الدين» مع الملك فاروق وحماس «القافلة»

قبل أكثر من أربعين عامًا، كانت جزيرة البحرين لا تعرف الكهرباء والصحف والكومبيوتر والطائرات. بل إن أهالي البحرين كانوا يعتقدون بأن السيارة هي عبارة عن كتلة من الحديد تسير بفعل القدرة الإلهية! وأنه لا يجب إدخال الأطفال المدارس النظامية المنشأة حديثًا، حتى لا يصبحوا «ملحدين» ويتعلموا «كروية الأرض»! فقد كان على الأطفال أن يتعلّموا في «الكتاتيب» والمدارس الأهلية، ليتخرج الطالب منها ليصبح فقط «كراني» أي كاتبًا، لا يجيد سوى إمساك دفاتر «النواخذة» وكتابة الرسائل!

عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية استمع الأهالي لأول مرة في حياتهم إلى الصندوق الحديد الناطق «الراديو» وهو يخبرهم عن تطورات الحرب! وعرفوا لأول مرة أيضًا السينما، التي أحبّ بعض روادها بطلات الأفلام التي شاهدوها!

في عمق هذه الحياة، شارك الصحافي المعروف «علي سيّار» خلال أكثر من خمسين عامًا من عمره في هذه الحياة، بهدوئها وصخبها!

فاشترك في أولى المسرحيات البحرينية، وسافر مع أول بعثة

طالبية إلى القاهرة، وعاصر نشأة الصحافة وأسهم في تطويرها وازدهارها، كما كان شاهدًا على موتها في الماضي أيضًا!

وتنقّل ضمن تجاربه الغنية من البحرين إلى القاهرة عبر السعودية والكويت، مشاركًا في الكثير من تجاربها ومعاصرًا للعديد من أحداثها.

و«علي سيّار» يمتاز عن غيره بمقدرته على التذكّر والرواية وبالمشاركة في صنع الكثير من أحداث تلك الحياة!

في أحد أيام العام 1932م. كان الطفل «علي عبدالله سيّار» الذي لم يتجاوز الرابعة من عمره، يلعب مع مجموعة من الأطفال في أحد أحياء مدينة المحرّق عندما فوجئ بأحد الشباب ينادي عليه ويأمره بالذهاب إلى بيته.

وفي الحال ركض الطفل مسرعًا نحو بيته، وما أن دخله حتى راح يسمع صوت انتحاب والدته مع مجموعة أخرى من النساء وهن يبكين. لحظتها أخذه والده وأدخله غرفة أخته الكبيرة وطلب منه أن يلقي نظرة عليها ويخرج، امتثل الطفل ودخل الغرفة ووجد فيها أخته نائمة لا تتحرك ،وعندها لم يجد نفسه إلا وهو يقبّلها فوق جبينها ويخرج من البيت مسرعًا!

بعد فترة زمنية عرف الطفل أن أخته قد ماتت!

وهنا بدأت ذاكرة «سيّار» في التذكّر!

كانت حياة أهالي البحرين في أوائل الثلاثينات أكثر من بسيطة. وكانت بالرغم من قساوة العيش وبدائية الحياة أكثر من جميلة!

كان يومنا كأطفال يبدأ مع أذان صلاة الفجر، بل قبل الأذان.

حيث كنا نصحو على صوت والدنا وهو يردد الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية قبل الأذان بفترة طويلة. وكان يوقظنا معه حتى نشاركه قراءة القرآن الكريم، ثم نذهب بصحبته إلى المسجد للصلاة.

وفي الساعة السادسة صباحًا، كنت أذهب مع بقية الأطفال في الحي إلى «المطوع» القريب من بيتنا، كان عمري وقتها أربع سنوات، وكنا نفترش الأرض مع المجموعة الصغيرة من الأولاد والبنات في «مدرسة عبدالله عاشور» نحفظ ما يكرِّره علينا من الآيات.

بعد خروجنا من «المطوع»، نلهو في لعبتي «الخلف يكي» و«البلبول». وإذا سقط المطر لعبنا في مستنقعاته الصغيرة لعبة «القشطي». ونستمر في اللعب حتى حلول الظلام، حيث نذهب مع والدي لصلاة العشاء وينتهي اليوم بالنسبة لنا وللكبار أيضًا!

وفي نحو الساعة الثامنة مساء ينام الجميع ويهدأ الضجيج، ولا تسمع عندها إلا تلاطم أمواج البحر!

بعد نحو ستة أشهر قضيتها مع المطوع «عبدالله عاشور» ختمت القرآن الكريم. وكالعادة أقيم لي احتفال صغير يسمونه «الختمة». أتذكر أنني في ذلك اليوم، أخرجني صاحب المدرسة مع الطلاب ووضعني في مقدمة الذين يسيرون في أزقة الحي. وكان أحدهم يقرأ «التحميدة» التي تقول: «الحمد لله الذي هدانا.. للدين والإسلام واجتبانا»، ويردِّد التلاميذ بين فقرة وأخرى: «آمين» أثناء مرورهم على بيوت الحي. كانت كل طقوس «الختمة» تعبّر عن فرح الطالب والأهالي بتخرّجه من «المطوع»، المدرسة الإلزامية الوحيدة آنذاك!

لكن فرحي بـ«الختمة» لم يستمر طويلًا، فلقد بدأت آنذاك أعرف «مدرسة الهداية الخليفية». المدرسة النظامية الوحيدة في المحرّق.

كانت مدرسة الهداية بعيدة جدًّا عن حيِّنا، بل كانت تقع في منطقة نائية من المحرّق وفي الوسط برٌّ خالٍ من البيوت، وكنت أشاهد المدرسة وأنا ذاهب مع الأطفال إلى ملاعب كرة القدم المنتشرة بقربها، وخيالي يسرح بعيدًا كلما سمعت حكاية عنها أو شاهدت أحد طلابها.

مع مرور الوقت أصبحت هذه المدرسة بشكل بنائها الهندسي الجديد من نوعه في تلك الفترة، ومنظر طلابها «المنظمين» و«الأنيقين» في ملابسهم والمتميّزين عن بقية تلاميذ «الكتاتيب» بشكل واضح، يستفزّني كثيرًا ويحرّك في داخلي رغبات كثيرة. ثم دفعتني الرغبة والفضول إلى تسلّق أسوارها ومشاهدة الأنشطة الرياضية التي يقوم بها طلاب المدرسة، والذين كانت أعمار غالبيتهم لا تقلّ عن السادسة والعشرين.

كنت أحسد هؤلاء الطلاب على مدرستهم التي يلعبون بها لعبًا لم نعرفها قط، ككرة السلة ورفع الأثقال وغيرهما.

كان كل يوم يأتي مشوقًا أكثر من غيره من الأيام الأخرى، حتى وجدت نفسي في أحد الأيام أريد أن أحقّق أمنيتي في دخول المدرسة، وأصبح كما كنت أتخيل آنذاك من الطلاب الذين يتحدّثون عنهم في «حركاتهم المرسومة» و«علمهم الغزير» و«ثيابهم النظيفة وأحذيتهم اللمّاعة».

لكن تعصّب والدي الديني أصابني بالخيبة! فلقد رفض بشكل قاطع دخولي المدرسة وطلب مني ألا أعود للتفكير في هذا الموضوع إطلاقًا، وإلا فإنه سيعاقبني بشدة.

كان تفكير والدي الديني المتعصّب يجعله ينظر إلى المدارس

الحكومية على أساس أنها لا تعلم الطلاب الدين وأصوله، بل إنها ضد المعتقدات الدينية، فهي تدرّس لهم «كروية الأرض».

وهكذا عرفت من يومها أن الأرض كروية وتدور حول نفسها، وأنها وقفت ضد تعليمي في المدرسة النظامية. وأن دروس الكيمياء والتاريخ في المدرسة لا علاقة لها بالإسلام.

حيال صغر سنّي وعدم استطاعتي إثبات كروية الأرض لأهلي لم أستطع معارضة والدي، ولأنني ببساطة لم أكن في مناخ تلك البيئة، أعرف معنى المعارضة أصلاً.

كانت قسوة الحياة وبساطتها وتخلّفها، تجعلني أصدّق تفكير والدي وغيره من الناس في رفضهم التصديق بكروية الأرض.

فلقد كانت بدائية العيش تجبرنا على شرب المياه الآسنة التي يتكاثر فيها الدود، وكنا نشرب الماء في بيوتنا من الأواني الفخّارية ونحن نرى الدود يتحرك في القماش الذي «يصفّي» الماء.

كنا نحب الليل كثيرًا، بالرغم من أننا لا نسهر في ساعاته إلا في بعض المناسبات كالزواج والأعياد، والتي كانت تشكّل لنا كأطفال مواسم أفراح حقيقية، نسهر على ضوء «اللمبة» الصفراء الكبيرة والمثبتة في ساحة الحي الكبيرة، وذلك عندما بدأ دخول الكهرباء إلينا. كان جميع أطفال الحي يلعبون تحت ضوئها، المدهش والمثير آنذاك، لعبتي «الظلالوه» و«سدد عيون أم مانع».

عندما نصبت هذه اللمبة الكبيرة في حيِّنا، راح أهالي الحي يستغلون جميع المناسبات لرؤية الحياة في الليل ومشاهدتها، وليحاولوا التخفيف من سأم الحياة وقسوتها.

كانت السيارة من أكثر الأشياء إثارة لنا كأطفال، فلم نكن

نصدّق بأن هناك شيئًا من الحديد يسير على عجلات في أزقة مدينتنا وبسرعة قياسية أكثر من الخيول والحمير.

كانت «سيارة سفنديار»، كما كنا نسميها السيارة الوحيدة تقريبًا في المدينة كلها. وعندما تقترب السيارة من الحيّ فإنها تسير وسط تظاهرة من الأطفال، ووسط خروج النساء من البيوت للتمتّع بمشاهدتها، وضمن احتفال يطرب له بعض الرجال فيصفّقون لمرورها. لم تكن مشكلة «سفنديار» صاحب السيارة إلا أنه يقودها في مدينة تخلو من السيارات تمامًا، ولا تعرف معنى «السيارة» أصلًا. فالرجال كانوا يعتقدون بأنها حديد استطاعت القدرة الإلهية أن تحرّكه، ونحن الأطفال كنا نظن بأنها نوع من الحيوانات الجديدة أو الغريبة.

ولذلك كنا كلما نرى السيارة تسير نجري وراءها ونتسلّق فوقها في فرح طفولي لاعتقادنا بأنها أحد الحيوانات الظريفة! كانت مشكلة صاحبها «سفنديار» أنها تسير بسرعة، أو تسير بسرعة بطيئة نستطيع اللحاق بها. كان عذابه أثناء مرور السيارة في الحي، حيث أنه يوقف سيارته أكثر من مرة ليبعد الأطفال المتسلقين فوقها ولكن من دون فائدة. أما إذا استطاع الإفلات، وهي حالات نادرة، فلا يجد الأطفال أمامهم سوى قذفها بالحجارة وتهشيم نوافذها الزجاجية ضمن فرح طفولي لا يصدق.

استمرت هذه التظاهرة الاحتفالية لأهالي الحي كلما مرّت السيارة وكلما سمع الناس صوتها العالي. وفي النهاية قرّر صاحبها «سفنديار» أن يختار أزقة غير أزقتنا لتفادي «الاحتفال» اليومي، لكنه كان يُقابل في كل مكان في المدينة بنفس «الاحتفال» وبنفس الدهشة وفرح الأطفال.

بعد رفض والدي دخولي «مدرسة الهداية»، وجدت أن الحل

الوحيد أمامي الدخول في إحدى المدارس الأهلية المنتشرة آنذاك في المحرّق.

كان عمري وقتها سبع سنوات عندما اخترت «مدرسة السيد علي» المشهورة والتي تقع في قلب سوق المحرّق.

رحت أتعلم مع مجموعة التلاميذ القليلين في المدرسة القراءة والكتابة وأصولها، إضافة إلى بعض الدروس القليلة في التاريخ.

لكن الشيء المهم الذي أتقنته في هذه المدرسة كان أصول الخط العربي. فلقد كان «سيد علي» يهتم كثيراً بتعليم تلاميذه أصول الخط. وكنا نكتب بالحبر المستخرج إما من «الفشت»، القطعة البيضاء الموجودة على الشواطئ، وإما من «الخثاق» (قاذف الحبر).

كان المهم بالنسبة لأهلنا أن نتعلم أصول الكتابة وأن يصبح ابنهم «كراني» أو «كتيب» أي كاتب، يستطيع إمساك دفاتر نوخذة البحر ويقوم بعمليات الجمع والطرح والقسمة والضرب في حساباته. إضافة إلى تعلم أصول كتابة الرسائل بطريقتها القديمة التي تبدأ: «حضرة الأفخم والأكرم حميد المكارم والشيم».

في خلال سنة كاملة قضيتها في «مدرسة عبدالله جميل» المعروفة أيضًا في المدينة بمثابة مرحلة دراسية جديدة فقط. إضافة إلى أن موقعها بقرب البحر كان يساعدنا كثيرًا على اللعب على الشواطئ وصيد الأسماك بعد الانتهاء من دراستنا.

لكن أفضل ما صنعته لي «مدرسة عبدالله جميل» أنها عرّفتني على «مدرسة الإصلاح الأهلية»، القريبة منا، والتي كان صاحبها الشاعر المعروف «عبدالرحمن المعاودة».

اكتشفت أن «مدرسة المعاودة» تقترب في مستواها من «مدرسة

الهداية»، فلقد كان مبنى «مدرسة الإصلاح» جديدًا، وكانت تضمّ ثلاثة فصول دراسية. وكنت أرى أن بها نمطًا معينًا من التلاميذ يدرسون فيها ويشبهون كثيرًا «طلاب الهداية».

إضافة إلى أنها كانت تحتوي فصولاً دراسية وفي كل فصل عددٌ من المقاعد يجلس عليها التلاميذ وطاولة في مقدمة الفصل يقف وراءها الأستاذ لشرح الدرس. علاوة على السبورة المعلقة على جدار الغرفة.

كانت كل هذه الأشياء تثير خيالي، باعتبار أنها أشياء غير مألوفة في جميع المدارس التي تعلّمت بها.

هكذا راودني تحقيق حلمي القديم وعندها لم أتردد كثيرًا في الذهاب إلى والدي وإخباره بحقيقة رغبتي، وللمفاجأة لم يعترض الوالد وأصبحت طالبًا في «مدرسة الإصلاح الأهلية».

منذ اليوم الأول من دخوله «مدرسة الإصلاح الأهلية» وجد التلميذ الصغير «علي سيّار» نفسه تلميذًا جديدًا، يدخل المدرسة لأول مرة في حياته. ففي الصباح الباكر انتظم مع مجموعة التلاميذ في باحة المدرسة الكبيرة ضمن الطابور الصباحي اليومي. ثم دخل معهم إلى الفصل «الأنيق» الذي يحوي على «السبورة» والمقاعد. كما وقف مع بقية التلاميذ احترامًا لصاحب المدرسة الشاعر «عبدالرحمن المعاودة» الذي راح يحكي لهم «في قالب قصصي مشوق جدًا» حكاية «هارون الرشيد» في درس التاريخ.

ثم توالى عليهم دخول مدرّسين آخرين، بعد كل حصّة دراسية، أمثال: محمد جلال، حجي الزياني، ومحمد بو زيد وغيرهم.

هكذا وجد التلميذ «سيّار» نفسه يدرس العلوم والتاريخ واللغة العربية والإنكليزية وكذلك الجغرافيا التي عرف عن طريقها كروية

الأرض، التي كانت السبب في عدم دخول «مدرسة الهداية» واكتشف عندها فقط خطورة موضوعها.

عندما انتهى اليوم الأول، تأكد «سيّار» أنه بدخوله هذه المدرسة فإنه يدخل عالمًا جديدًا تمامًا في اعتقاده، ربما سيغير كثيرًا من مجرى حياته.

اكتشفت في «مدرسة المعاودة» أشياء كثيرة أولها أنني أدرس في مدرسة حقيقية بكل معنى الكلمة، إضافة إلى أن هناك أشياء أخرى غير القرآن الكريم وأصول الدين، مثل العلوم والجغرافيا يتعلمها الطلاب في جميع أنحاء العالم.

لكن الدرس المفضّل بالنسبة لي كان التاريخ. والسبب يرجع إلى «عبدالرحمن المعاودة» نفسه. فكانت دروسه تشبه الحكايات، عندما يروي الحروب والمنافسات الشعرية أيام الخلفاء الراشدين وزمن الخلافتين الأموية والعباسية، أشعر بأنه شاهد جميع هذه الحكايات بنفسه حتى استطاع أن يرويها لنا بهذا الشكل الجذاب.

لم يقتصر «العالم الجديد» الذي دخلته في المدرسة الجديدة على فرحي وارتياحي الشديدين في انتظامي فيها والتعلم بمستوى المدارس الحديثة فقط، بل كانت الأنشطة الثقافية والرياضية فيها شيئاً مبهرًا حقًا.

فلقد كان «المعاودة» بالإضافة إلى قدرته الشعرية وشهرته في الشعر والتي جعلت الناس يسمونه «شاعر الشباب» أو «شاعر المناسبات» باعتبار أنه كان يلقي قصائده أو ينظمها في كل مناسبة: رثاء، حفلة، وحتى الزواج. كانت لديه قدرة فائقة وعظيمة في تأليف المسرحيات الشعرية في كل عام، وقدرة أخرى في إخراج وتمثيل المسرحية على المسرح.

ولا زلت أتذكر أول مسرحية مثّلت في مدرستنا، كان ذلك في عام 1939م تقريبًا، واسمها «عبدالرحمن الداخل» وكانت من تأليف وإخراج «المعاودة» طبعًا.

بعدما انتهى من تأليفها راح يوزّع على مجموعة التلاميذ الذين يشعر بأنهم يمكن أن يقوموا بالتمثيل أدوار الشخصيات فيها، وضمن هذا التوزيع حصلت على دور شقيق «عبدالرحمن الداخل». وفي خلال أكثر من أسبوعين كنا نذهب نحن التلاميذ «الممثلين» إلى بيت المعاودة بعد انتهاء دوام المدرسة ونبقى هناك ساعات عدة نحفظ فيها أدوارنا وطريقة التمثيل التي كان يعلمنا إياها بكفاءة عالية.

بعد أن تأكّد «المعاودة» من حفظنا للأدوار والنصوص والمشاهد وغيرها، رحنا مع مجموعة المدرسين وعدد كبير من التلاميذ في تجهيز خشبة المسرح فوق سطح المدرسة الكبير.

تلك الأيام كانت بدايات المسرح في البحرين، وطبعًا لم تكن هناك خشبة مسرح حقيقية، وإنما فقط «دناجل» وهو الخشب الدائري الذي كان يُستعمل قديمًا في بناء البيوت ترتّب وتُفرش بالسجاجيد الأعجمية. وأصلًا المسرحية لم تكن تُعرف بهذا الاسم. فقد كان يطلق عليها اسم: «رواية تمثيلية».

المهم أن «خشبة المسرح» جُهّزت، ووضع مقابلها الكراسي المستعارة من المدارس والأندية. وفي ليلة المسرحية الوحيدة حضر العديد من المدعوّين من ضمنهم مدير المعارف آنذاك المرحوم الشيخ عبدالله بن عيسى وغيره، بالإضافة إلى أولياء أمور الطلبة.

كان دوري في المسرحية شقيق عبدالرحمن الداخل الذي يجلس في بهو شقيقه في القصر ويأتي أحد العباسيين ويقتله بشقّ بطنه.

ولتمثيل هذا الدور الصعب الذي يتطلب إقناع الناس بحقيقة القتل، ربط «المعاودة» في بطني كرة منفوخة وأخفاها تحت ثيابي وبمجرد أن تنشق يظهر منها صبغ أحمر يشبه الدم كثيرًا.

عندما جاء المشهد كنت خائفًا كثيرًا من أن يخطئ زميلي فيضربني بالسكين في غير موقع الكرة المفروض. لكنه طعنني بالفعل في موقع الكرة فتناثر في الحال الصبغ الأحمر، وعندها طبعًا مثّلت دور الميت.

وفي هذه اللحظة لم أسمع إلا صوت أبي من القاعة وهو يصرخ في وسط الحضور: ولدي.. ولدي.. ذبحوه.. ابني مات.. واستمر في الصراخ: يا ناس ولدي قتلوه.

كان الطريف أكثر في الموضوع أنني قمت من مكاني، لأني شعرت حقيقة بأن والدي صدّق حقيقة المشهد واعتقد بأني متّ فعلاً، وصرخت عليه: أنا حي.. لا تخف .. يا أبي.. هذا مجرد تمثيل. عندها ـ طبعًا ـ ضجت القاعة من الضحك، وتوقفت المسرحية لدقائق وحدث «هرج ومرج»، قام خلالها بعض الحضور بالذهاب إلى والدي لتهدئة روعه.

وبعد هذه الدقائق أكلمت المسرحية بسلام. فلم يكن فيها مشهد قتل تمثيلي غير المشهد السابق.

وبالرغم من العديد من المواقف المضحكة التي كانت تحدث معنا، أثناء تمثيل مسرحيات «المعاودة»، إلا أنها كانت شيئًا جديدًا يضفي المرح والسعادة في نفوسنا.

وضمن هذا العالم الجديد الذي شكّلته المدرسة في أذهاننا، تعرّفت لأول مرة في حياتي على المجلات والصحف.

ففي أيام المدرسة عرفت ما هي القراءة؟ وماذا تعني؟ وما هي أهميتها؟ ولكن بالصدفة! فلقد كنت أذهب مع صديقي في المدرسة المرحوم «أحمد الجامع» إلى بيته كل يوم تقريبًا. وفي أحد الأيام دخلنا بالصدفة غرفة والده فرأيت أكوامًا من المجلات المكّدسة فيها. وأتذكر أنني سألته وقتها: ما هذه الأوراق؟ قال: إنها أشياء تخصّ والدي، وهو يحضر مجموعة كبيرة منها عندما يسافر إلى الهند للتجارة. وأراه يقرأها في أوقات فراغه.

في الحال طلبت منه أن أستعير بعضها لأرى ما فيها، وبالفعل حملت معي إلى البيت مجموعة من المجلات وجلست تحت ضوء «الفنر» (القنديل) اقرؤها وأنا في غاية الدهشة. كنت أرى فيها الصور، التي أثارت استغرابي وقتها، وأقرأ فيها حكايات عن الحرب العالمية الأولى، وصفحات مثيرة جدًا خاصة بالتسلية استهوتني تمامًا.

سهرت في تلك الليلة حتى الثالثة صباحًا على ذلك الضوء الخافت. وليلتها فقط عرفت المجلة وعرفت القراءة ضمن مناخٍ مدهش ملك كل كياني ومشاعري.

منذ ذلك اليوم، صرت أذهب إلى بيت صديقي وأستعير منه المجلات وأقرؤها في الليل وأعيدها له في اليوم التالي وهكذا.

عندما دخلت في هذا العالم المثير المليء بالغرابة، وجدت نفسي أترك اللعب مع زملائي في الحي وأمضي كل الوقت مع المجلات، حتى أن صديقي هذا تضايق من أنني لم أعد ألعب معه، وكان يقول لي دائماً: لو كنت أدري أنك ستتغير بهذا الشكل، لما كنت أخبرتك عن المجلات.

طبعًا لم أكن أهتم بكلام الأصدقاء، ولا التفتّ لنصائح

والدتي عني: «قراءة هذه الأوراق غير المفيدة التي ستعمى بسببها وأنت تقرأ». فلقد كنت في تلك الأيام أشعر أنني حصلت على «كنز» حقيقي. فقد كانت كل ورقة في المجلة تثيرني إلى أبعد الحدود، والأكثر إثارة هو ألعاب التسلية فيها مثل: الأخطاء في الصورتين المتشابهتين، والعصفورة المختبئة في الشجرة. كيف يمكن اكتشافها؟ وغيرها.

داومت على القراءة في كل ليلة بنفس الحماسة والدهشة الأولى، وبقي «الفنر» يرافقني كل ليلة في فناء منزلنا، وذلك عندما ينام الجميع، حتى فترة طويلة من أيام المدرسة.

كانت موهبة الأستاذ «عبدالرحمن المعاودة» الشعرية تؤثر كثيرًا في خيالات تلاميذه الذين يحلمون بأن يصبحوا شعراء مثله. يدعوهم الناس إلى قراءة القصائد في المناسبات والأعياد وغيرها. كما أن المناخ الثقافي والفكري في مدرسته عَبْر مناهجها الدراسية أو من خلال الأنشطة الثقافية التي تقوم بها لها تأثير كبير في حب الشعر والأدب لدى غالبية التلاميذ.

وعن طريق هذا المناخ الثقافي، بدأنا نفهم كلمات مثل «العروبة» و«القومية» وأن العرب لهم أمجاد يجب استعادتها. وكل ذلك عن طريق أشعار «المعاودة» وبعض الأناشيد القومية التي كانت يحفّظنا إياها مثل:

في سبيل المجد والأوطان ... نحيا ونبيد
كلنا ذو همة شماء ... جبار عنيد
لا تطيق السادة الأحرار ... أطواق الحديد
إن عيش الذل والإرهاق ... أولى بالعبيد

لكنني لم أعرف «الاستعمار» إلا عندما قتل الملك غازي، ملك العراق، في نهايات الثلاثينات. فلقد كان هذا الحدث قضية كبيرة تفاعلت بصورة مستمرة، حتى أن كثيرًا من أندية البحرين الثقافية تسابقت في إقامة حفلات تأبين للملك غازي. وكنا نسمع في داخل المدرسة بالذات من «المعاودة» وغيره من الأساتذة من أن «الإنكليز هم الذين قتلوا غازي» وغير هذا الكلام.

بالنسبة لي، فلقد شكّل مقتل غازي كثيرًا من مشاعر المعاداة للاستعمار حينها، وتفاعلت هذه المشاعر حتى وجدت نفسي أكتب بيتين من الشعر، يعبّران عن تعاطفي مع «الملك غازي»:

بكيت قبل الدمع أذيال ثوبي ونامت وحوش البر من فقدان غازيا
إذا مات غازي فيصلًا قام بعده ليدفع عن بغداد شر الأعاديا

عندما راحت المدافع والطائرات الألمانية تدكّ الأراضي البولندية في الأيام الأولى من خريف عام 1939م. أعلن الزعيم الألماني الفاشي «هتلر» بداية الحرب العالمية الثانية.

وبالرغم من سماع أهالي البحرين عن بدء معارك الحرب في أوروبا، إلا أنهم لم يلتفتوا إليها، فالموضوع لا يعنيهم، كما أن جزيرتهم الصغيرة تبعد آلاف الأميال عن خنادق الحرب، بل إن بعضهم مثل والدي «علي سيّار» لم يصدّق أن هناك حربًا أصلًا. فحسب رأيه إن الذين يتحدثون عن قيام الحرب إما واهمون أو يكذبون، وكان يقول: أين هي المعارك؟ لماذا لا نراها، وذلك لاعتقاده بأن العالم هو البحرين فقط، أو في أبعد الحدود منطقة الخليج، لكن السنوات التي تلتها أثبتت له فعلًا وجود الحرب، ووصولها إلى البحرين نفسها.

عكس اعتقاد والدي، فلقد فرضت الحرب العالمية الثانية وجودها على بلادنا منذ سنواتها الأولى. ففي تلك الأيام صارت كلمة «الحرب» تتردّد بكثرة بين الناس، وكان يمكنك سماع الناس يتحدثون بها في المقاهي والمجالس وحتى في الشوارع. لكن أكثر ما أثار انتباهي هو كلام بعض زملائي في المدرسة عن تجمّع آبائهم حول «صندوق كبير» يسمعون من خلاله أخبار الحرب.

حتى تلك الفترة، لم أسمع ولم أشاهد «المذياع» قط. وبالرغم من عدم تصديق والدي للحرب، إلا أنه أمام رغبتي وإلحاحي بمشاهدة جهاز «المذياع» أولًا، ثم سماع أخبار الحرب ثانيًا، اصطحبني معه في إحدى الليالي إلى أحد مجالس المدينة.

في تلك الليلة شاهدت المذياع ولم أفهم وقتها ماذا يعني، سوى مشاهدتي للرجال وهم متحلّقون حوله يصغون باهتمام واضح إلى صوت المذيع المشهور «يونس بحري» من إذاعة برلين وهو يقرأ نشرة الأخبار.

مع مضي الوقت صرنا نعرف الحرب جيدًا، فبعد عدة سنوات أصبح أهالي البحرين يأكلون عن طريق بطاقة التموين. وانتشرت في المدن المخابئ والخنادق، وذلك بعد قصف الطائرات الإيطالية لمصفاة النفط في عوالي.

تطور اهتمامي بالحرب فصرت أتابعها عبر جريدة «البحرين» المملوءة بأخبارها والتحليلات عنها، إضافة إلى الاستماع للمذياع في المقاهي.

في شهر مارس/آذار عام 1941م. قامت فرقة الكشافة الكويتية التي كانت تزور البحرين آنذاك، بزيارة إلى مدرستنا، وطبعًا أُقيم

لهم احتفال كبير، ألقيت فيه كلمة ترحيبية باسم طلاب المدرسة بفرقة الكشافة. كما رددنا معهم الأناشيد الحماسية الوطنية والتي كان بعضها يندِّد بسياسة الاستعمار البريطاني.

بعد انتهاء الحفلة، طلب مني الأستاذ «المعاودة» مرافقة الفرقة إلى مدرسة الصناعة في المنامة مع زميليَّ المرحومين «أحمد الجامع» و«عبدالله الحمد».

لم يكن في بالي أن مرافقتي للفرقة الكشفية إلى مدرسة الصناعة ستشكل منعطفاً كبيراً في حياتي. فعندما دخلنا المدرسة رأيت معرض مجموعة الكويتيين الذين كانوا يدرسون بها أمثال: «شيخان الفارسي» و«صالح شهاب» و«بدر الحداد» وغيرهم. وأتذكر أنني أُعجبت بالنماذج التي صنعوها في المدرسة. ورأيت ساعة حائط معلّقة، فتصورت وقتها أن طلاب الصناعة استطاعوا صناعة الساعة أيضًا.

بعد رجوعنا من مدرسة الصناعة، بقيت طوال الوقت أفكر في قدرة الطلبة على صناعة الساعة! حتى وصلت بتفكيري إلى أنني أيضًا أريد أن أصنع ساعة مثلهم.

في صباح اليوم التالي، أخبرت أستاذي «عبدالرحمن المعاودة» برغبتي في الالتحاق بمدرسة الصناعة فما كان منه إلا أن غضب وطلب مني العدول عن هذه الفكرة.

لكن رغبتي الشديدة، إضافة إلى اتفاقي مع زميلين لي في المدرسة على دخول مدرسة الصناعة جعلني لا أهتم كثيرًا بكلام المعاودة.

وفي اليوم نفسه نفذّنا اتفاقًا، وما أن وصلنا المنامة حتى ذهبنا

إلى مكتب مدير المعارف الإنكليزي آنذاك «أدريان فالانس» وطلبنا مقابلته عن طريق سكرتيره «كمال المهزع».

انتظرنا فقط عدة دقائق، ثم دخلت إليه.

في البداية سألني عن اسمي وبعض المعلومات الأخرى، لكنني عندما أجبته عن اسم مدرستي بدا الغضب عليه، وسألني لماذا لم أدخل المدارس الحكومية؟ وعندما شعرت بعدم استطاعتي الإجابة قام من مكتبه وأخذ يصرخ في وجهي: اخرج.. اخرج وهو يشير بيديه المنتفخة إلى الباب. وطبعًا خرجت بسرعة وأنا أركض مهرولًا.

ثم تكررت هذه الحادثة مع جميع زملائي الذين قابلوه.

بقينا أيامًا عدة بعد هذه الحادثة حتى عرفنا سبب هيجان «فالانس» علينا. فقد كانت «مدرسة المعاودة» تضمّ بين صفوفها العديد من الأساتذة والتلاميذ المعادين لسياسة الاستعمار البريطاني. وكان لذلك يكره جميع تلاميذها.

بعد شهرين من حادثة الطرد، فوجئت بأحد رجال الشرطة يطرق باب بيتنا. وتوقعت عندها بأن هذا المدير قد طوّر مسألة الطرد ويريد معاقبتنا أيضاً أو الشكوى ضدنا في المحكمة. لكن الشرطي أزاح عني الخوف عندما سلّمني رسالة وطلب مني التوقيع على استلامها فقط.

أما المفاجأة التي حملتها الرسالة المرسلة من «فالانس» نفسه، فهي دعوتي لتقديم امتحان في مدرسة الغربية الابتدائية لدخول مدرسة الصناعة بعد النجاح طبعًا في الامتحان.

عندما جاء يوم الامتحان، جلست مع نحو 150 طالبًا تقريبًا في

قاعة كبيرة ورحنا نجاوب عن بعض المسائل الحسابية وبعض الأسئلة في اللغة الإنكليزية.

بعد أسبوع واحد فقط، جاءني أحد الأصدقاء وأخبرني عن نشر اسمي في جريدة «البحرين»، وعندما اشتريت الجريدة وجدت اسمي فيها بالفعل منشورًا في مقدمة أسماء الطلاب الناجحين في امتحان الصناعة.

كان فرحي كبيراً وخاصة بعد أن فقدت الأمل في دخول مدرسة الصناعة بعد حادث الطرد. كنت وقتها أتمنى أن يرى جميع الناس اسمي منشوراً في الجريدة.

لم تكن ساعة الحائط التي كنت أعتقد بأن طلاب المدرسة صنعوها فقط إغراء المدرسة الوحيد الذي يحفزني لدخولها، بل أيضًا وجود مجموعة الطلاب الكويتيين فيها دافعًا مشجعًا، باعتبار أن الكويت لا يمكن أن تبعث بطلاب إلى البحرين وتحمّلهم الغربة، إلّا إذا كان مستوى المدرسة ممتازًا حقًّا.

كما أن الـ «15 روبية» ـ المبلغ الضخم آنذاك ـ الذي تدفعه المدرسة لكل طالب يدرس فيها، كان دافعًا قويًّا ومغريًا جدًّا يميزها عن غيرها من المدارس الأهلية والحكومية، وذلك بسبب اعتبارات تتعلّق بتشجيع الطلبة على تعلم الصناعة عندما كان التعليم الصناعي في بداياته الأولى.

وبسبب حداثة المدرسة فلقد كنّا ندرس في جميع الأقسام: النجارة، الصب، الحدادة، اللحام، البرادة، الخراطة، ودون أن نتخصص في قسم معيَّن.

كما كنا نسكن، كطلاب من مدينة المحرّق، في سكن المدرسة

الداخلي، وذلك بسبب صعوبة انتقالنا كل يوم من المحرق إلى المنامة. فالجسر لم يكن قد بني حتى تلك الفترة، فقد كنا نذهب ونزور أهلنا كل يوم خميس بعد الدراسة ونبقى حتى يوم الجمعة ونعود في صباح يوم السبت.

في خلال العام الأول لي (1942م.) في المدرسة، وبحكم سكني في القسم الداخلي بدأت أكتشف مدينة المنامة. ففيها عرفت لأول مرة السينما، والتي كانت تسمّى وقتها «مرسح».

أظن أن أول راتب استلمته من المدرسة شجعني على دخول السينما، وبالفعل ذهبت في أحد الأيام وشاهدت أحد الأفلام الهندية، وخرجت وأنا مبهور بما شاهدته، ولذلك أصبحت بعدها أذهب إلى السينما كل يوم جمعة.

ولشدة إعجابي بأحد الأفلام الهندية شاهدته أكثر من خمس مرات، وحفظت قصة الفيلم وجميع أغانيه. كما أنني كنت معجبًا جدًّا ببطلة الفيلم التي جعلتني أتردد كثيرًا على الفيلم لمجرد رؤيتها، حتى إنني في النهاية شعرت بأني أحبها.

كما شكّل وجودنا المستمر في المنامة والسكن في القسم الداخلي فرصة للتعرف على أنماط وشخصيات جديدة وطلاب من خارج المحرّق، وأتذكر حكاية طريفة جعلتني أغيّر رأيي وتفكيري عن بعض الشخصيات.

ففي أحد أيام الدراسة، كان الأستاذ «سعيد طبارة» لبناني يدرّسنا درس الجيولوجيا. وكان يقول من ضمن الحديث: «إن الأرض ستعيش إلى ما شاء اللّه». لقد استوقفتني كلمة «ما شاء اللّه» كثيرًا، واستغربت جدًّا من هذا الأستاذ الذي يلبس البدلة الإفرنجية

ويقول «ما شاء اللّه» فقد كنت أعتقد في تلك الفترة بأن الذين يتحدّثون عن اللّه فقط هم الذين يلبسون اللباس العربي.

أيضًا ساهم القسم الداخلي وسكني فيه في القراءة وبشكل نهم جدًا. فقرأت كتب «طه حسين» و«المنفلوطي» و«العقاد» و«الرافعي» وغيرهم. وصرت أقرأ بانتظام مجلتي «الرسالة» و«الثقافة» المصريتين بالإضافة إلى جريدة «البحرين».

كان كل وقتي بعد الدراسة مخصصًا للقراءة التي ركّزتها في الجوانب الأدبية والقراءات الشعرية لأبي نواس والمعري والمتنبي وغيرهم. وعن طريق الكتب العلمية والفلكية راح ذهني يتفتح على كوننا نعيش في عالم واسع وكبير.

مع هذه القراءات المكثّفة رحت أكتشف ميولي الأدبية التي لا تتناسب مع النجارة والحدادة. كما أعطتني القراءة نوعًا من التعويض عن فشلي في عدم اختياري المكان المناسب، بالرغم من تفوّقي فيه بدرجة كبيرة.

كانت القراءة تساعدني على نسيان خيبة «صناعة الساعة»، وأنني يمكن أن أبرز في مجال آخر، ربما هو الشعر أو الكتابة، وهذا هو ربما ما شجّعني على كتابة أول موضوع وإرساله إلى «جريدة البحرين». وكان يتحدث عن وضع المساجد في البحرين وضرورة الاهتمام بها. ولكن الموضوع لم ينشر ربما بسبب ركاكة الأسلوب.

لكن بالرغم من هذه «الخيبة» الجديدة، إلّا أنها دفعتني أكثر إلى القراءة، بل إلى أكثر من ذلك إلى حفظ الأشعار وقراءة بعض الكتب كـ «حديث الأربعاء» لطه حسين لمرات عدة.

لقد مرّت فترة مدرسة الصناعة بهدوء وانتهى عامان من عمرنا فيها تعلمنا خلالها الكثير من الأشياء، واكتشفنا العالم أيضًا.

في أواخر أيام الفصل الدراسي الثاني من عام 1944م. استدعاني مدير المدرسة الإنكليزي «هيكنز» مع زميليَّ «أحمد الشوملي» و«عبدالرحمن الجودر» وقال فور دخولنا إلى مكتبه: اخترناكم من المدرسة للذهاب في بعثة طالبية إلى القاهرة، فاستعدّوا.

لم نصدق ما سمعناه.

كان من حق الطالب (علي سيّار) وزميليه ألَّا يصدقوا في المرة الأولى ما قاله لهم مدير مدرستهم الإنكليزي عن مسألة سفرهم إلى القاهرة.

فالقاهرة لم تكن حلمًا فقط، بل أكثر من ذلك. كان سماع اسمها فقط يثير في أذهان وخيالات الجميع الشعور بالسعادة في ذلك الوقت.

كانت القاهرة تسحر عقول الطلبة، فهي بحسب رأيهم: سعد زغلول وعرابي باشا. وهي الصحف والمجلات، وهي أم كلثوم والسينما.

إنها (أم الدنيا) كما كانوا يسمعون عنها باستمرار.

بقيت القاهرة تتردّد على ألسنتهم كثيرًا، وتشاهد في الحلم مرات عدة حتى وجد الطلبة أنفسهم في النهاية يقولون: إنها القاهرة إذًا.

كان خبر حصولي على بعثة للدراسة في القاهرة خبرًا مثيرًا حقًّا بالنسبة لأهالي الحي ولأهلي طبعًا.

فعندما أخبرت والدي ووالدتي بالموضوع في البداية اعتقدوا

بأنني أمزح، وهذا ما كان متوقعًا، فالمسألة ليست بهذه السهولة، والسفر إلى خارج البحرين كان من أصعب المسائل، إضافة إلى أن غالبية الأهالي لا تستطيع أن تسافر إطلاقًا.

كان السفر في تلك الأيام شيئًا عظيمًا لا يستطيع تحقيقه إلَّا كبار تجار اللؤلؤ الذين كانوا يذهبون إلى الهند وإلى بعض دول الخليج المجاورة فقط.

أما الأكثر إثارة من موضوع سفري فهو أنني سأسافر على متن (طائرة) والطائرة طبعًا في تلك الفترة كان شيئًا غريبًا وغير مألوف على الإطلاق، إضافة إلى أن من استطاع ركوبها من الأهالي كان يرويها للناس كأنها حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة. فلم يعرف أهالينا السفر إلَّا على ظهر السفن الشراعية وفي أحسن الأحوال على البواخر. وبعد دهشة الخبر عند أهلي، أخبرتهم بأنني أحتاج لبعض النقود لشراء الملابس استعدادًا للسفر.

وعندما أخبرت والدي عن حاجتي للنقود لشراء بدلة وحذاء. أتذكّر أنه سألني عندها: وما هي البدلة؟!

شرحت له ما هي البدلة، وأخبرته بأنها الملابس التي يلبسها الإنكليز وبعض العرب! وفي الحال صرخ في وجهي وقال: هذا لا يمكن وحرام أن تلبسها. سأعطيك نقودًا لخياطة ثياب عربية فقط.

حاولت مرات عدة إقناعه بضرورة ارتداء البدلة في القاهرة، وأنه لا يمكن لبس الثوب العربي هناك، ولكن من دون فائدة على الإطلاق.

ومع أن والدي لم يعارض سفري إلى القاهرة، باعتبار أنها بلاد الأزهر ومشايخ الدين، إلَّا أنني زيادة في إقناعه أخبرته بأنها بلد

الشيخ محمد عبده. ولم أكمل كلامي حتى ثار في وجهي وقال: إذا كانت مصر فيها محمد عبده فلن تذهب إليها إذًا.

عندها فقط تذكّرت أن والدي كان متأثرًا جدًّا بأحد أصدقائه من رجال الدين المتعصبين في المدينة، فقد كان هذا الرجل يأتي إلى مجلس والدي كل يوم ويلقي عليهم قصيدة في هجاء الشيخ محمد عبده، على أساس أنه أحدث بدعًا في الدين وخرج عن الدين الصحيح وغير ذلك في قصيدته الهجائية.

بعد عدة محاولات لإقناعه، نجحت في النهاية عندما أخبرته بأن (هذا الملحد توفي منذ زمن بعيد) فارتاح كثيرًا لعدم وجود محمد عبده في القاهرة، وقال: اذهب، ولكن لا تلبس البدلة.

بقيت مشكلة البدلة تؤرقني حقًّا، فموعد السفر يقترب، وليس لدي نقود لخياطة بدلة. في النهاية شعرت والدتي بالمأزق فأعطتني (دقلة) وهي ثوب شتوي مع معطف طويل يلبسه أهل الخليج في الماضي، من ثياب والدي حتى أصنع منها بدلة.

وبالرغم من عدم إمكانية صنع بدلة من (الدقلة) إلَّا أن أحد الخياطين صنعها بالقوة بالرغم من منظرها المضحك جدًّا.

في ليلة 13 أكتوبر/ تشرين الأول 1944م. وصلنا إلى منطقة الجفير ونحن نحمل بعض الملابس القليلة في الصناديق الحديد القديمة التي كان الناس يستعملونها كحقائب للسفر في تلك الأيام.

ركبنا حالًا في أحد القوارب الصغيرة حيث أوصلتنا إلى الطائرة البحرية (سندرلاند) الواقفة في عرض البحر. وهي إحدى الطائرات الحربية التابعة للبحرية الأميركية.

ركبنا الطائرة ونحن في حالة فرح لا تصدق، وسعادة يصعب وصفها. كل ذلك من أجل أننا نركب الطائرة لأول مرة في حياتنا ونسافر خارج البحرين لأول مرة أيضًا، ولأننا، وهذا هو الأهم، سندرس في القاهرة (أم الدنيا).

المهم أن الطائرة طارت وأصبحت في الجو، حيث بقينا فيها أكثر من 5 ساعات ننتفض من الخوف بسبب اهتزازها وصعودها ونزولها حتى وصلنا بسلام إلى البصرة، المحطة الأولى في سفرنا.

مكثنا في البصرة ليلة كاملة في فندق (شط العرب) المشهور، الذي بهرنا تمامًا بقاعاته الفسيحة وغرفه الأنيقة، حتى إن بعضنا تمنى أن يبقى فيه لمدة أطول. وفي صباح اليوم التالي ركبنا في نفس الطائرة، حيث أوصلتنا بعد نحو 4 ساعات إلى بغداد التي بقينا فيها أيضاً ليلة كاملة.

كان سفرنا أشبه بالرحلة الجوية، حيث استمرت أكثر من ثلاثة أيام حتى وصلنا إلى القاهرة.

ومن بغداد وصلت الطائرة إلى (تل أبيب) وحتى تلك الفترة لم نكن نعرف الشيء الكثير عن القضية الفلسطينية، فلقد كانت أعمارنا صغيرة جدًّا، إضافة إلى أن فلسطين في تلك الفترة لم تأخذ بُعدها الحالي بعد قيام الدولة الصهيونية.

بقينا ساعات عدة في مطار (تل أبيب) البدائي، ثم وصلنا أخيراً إلى مطار (إمبابة) في القاهرة. ووصلنا القاهرة أخيراً.

كان في استقبالنا في المطار أحد المسؤولين المصريين عن تنظيم بعثتنا. وبعد الانتهاء من الإجراءات ذهبنا إلى حيث السكن المعدّ لنا.

الطريف أن السكن كان عبارة عن (بنسيون) في شارع عماد الدين المشهور بالذات.

كانت طبعًا مفارقة عجيبة جدًّا، طلاب يأتون من مجتمع يعيش حياة شبه بدائية ويسكنون في شارع عماد الدين في الأربعينيات، الشارع المليء بالملاهي الليلية والحانات والمسارح ودور السينما، هل يمكن لأحد أن يصدق؟

ساعة وصولنا في المساء تعرفنا على صاحبة (البنسيون) والتي تسكن معنا ضمن غرفة خاصة. اكتشفنا في ما بعد أنها كانت راقصة سابقة في الشارع نفسه، اعتزلت الرقص بسبب بدانتها بالرغم من أنها كانت لا تزال جميلة. ثم نزلنا إلى الشارع وكان كل شيء فيه يبهرنا: الإنارة والأضواء والضجيج والسيارات وحركة الناس التي لا تهدأ.

حيوية القاهرة وقتها كانت تضفي بريقًا ساحرًا في نفوسنا وكأننا في دنيا جديدة في كل شيء، يبهرنا فيها حتى طقسها الجميل. وأولى بدايات انبهارنا بهذه الدنيا كانت في الليالي الأولى. ففي كل ليلة وفي ساعة متأخرة جدًّا نسمع أثناء نومنا تصفيقًا قريبًا منّا جدًّا. كان التصفيق يتكرر كل ليلة ونحن نسأل أنفسنا: ما الحكاية؟ ولا أحد يعرف! بعد أيام قليلة اكتشفنا أن مسرح الريحاني ملاصقًا للعمارة التي نسكنها ومنه ينطلق تصفيق جمهور المسرح.

في اليوم الثاني من وصولنا ذهبنا للتسجيل في المعهد البريطاني لدراسة اللغة الإنكليزية، ثم ذهبنا مع المرافق المصري لخياطة بدلات لنا، وشراء أحذية وملابس ومستلزمات أخرى.

قبل أن ننتظم في دراسة المعهد البريطاني ومدرسة الصناعة الثانوية جاءنا المشرف المصري وأخبرنا بأن هناك صحافيًّا من

مجلة (المصور) سيأتي إليكم غدًا ليلتقط لكم مجموعة صور لنشرها في المجلة.

في صباح اليوم التالي كنّا على أتم الاستعداد، الجميع ارتدى بدلته الجديدة وانتعل حذاءه اللمّاع رحنا ننتظر مندوب مجلة (المصور). وبالفعل وصل صحافي (المصور) وهو يحمل معه آلة تصوير كبيرة الحجم ومعدات أخرى، وعندما وقفنا ننتظر التصوير في داخل (البنسيون)، قال: إن هذا غير ممكن، يجب أن يكون التصوير فوق سطح العمارة، والسبب على ما يبدو عدم وجود (الفلاش) آنذاك وأن الكاميرا لا يمكنها أن تصور إلّا في وسط نور الشمس.

ومن دون نقاش طبعًا وسط فرح كبير، صعدنا إلى سطح العمارة، وراح صاحبنا بعد فترة طويلة من الإعداد والتجهيز يلتقط الصور لكل أفراد البعثة البحرينية البالغة 9 طلاب.

لكن المصور في النهاية طلب من كل واحد منا عشرة قروش، وهو مبلغ كبير آنذاك، لكي ينشر صورنا في (المصور)، وبالرغم من استغرابنا إلّا أننا دفعنا العشرة قروش في النهاية لكي نرى صورنا في المجلة، وبالفعل نشرت (المصور) الصور مع التعليق عليها بعد أسبوع واحد وبعد انتظامنا في الدراسة. وكتبت بتاريخ 27 أكتوبر/ تشرين الأول 1944م. بعنوان: (التعاون الثقافي بين مصر وشقيقاتها العربية) ما يلي:

يزداد التعاون الثقافي بين مصر وشقيقاتها العربية شيئًا فشيئًا في الأعوام الأخيرة، ويتّسع نطاق هذا التعاون سنة بعد أخرى فيشمل بلادًا لم يكن بيننا وبينها صلات ثقافية، كما ينطوي على زيادة في هذه الصلات مع بلاد أخرى. ومن بلاد الفوج الأول إمارة البحرين التي رُئي هذا العام لأول أن توفد بعثة من الأساتذة المصريين

للتدريس في مدارسها المختلفة، كما قُبِلَ في المدارس المصرية تسعة من أبنائها. وقد وصل هؤلاء إلى القاهرة أخيرًا. ومن الطريف أن الأساتذة المصريين المنتدبين للبحرين أقاموا لهم حفلة تكريم أنيقة. وتنشر (المصور) الصور مع التعليق: (كان من بين أفراد بعثة الطلبة القادمين من البحرين ثلاثة التحقوا بالمدرسة السعيدية، وهم الشيخ خالد وهو حفيد وزير معارف البحرين، وفهد الظاعن وعلي ابن الشيخ وقد قالوا لنا إن في بلادهم عددًا غير قليل من الكتاتيب و12 مدرسة ابتدائية تتبع النظم المصرية تمامًا، ومدرسة ثانوية واحدة وعلى الرغم من حجاب المرأة تمامًا هناك فقد افتتحت 4 مدارس ابتدائية للبنات.

وتكمل: «وهناك ثلاثة من الطلبة سيدرسون التربية والتعليم وهم: مطر علي مطر، وحسن جواد الجشّي وعيسى المحميد. وقد قالوا لنا إنهم سيقضون في مصر عامًا واحدًا بمدرسة عبدالعزيز للمعلمين».

وتحت الصورة الأخرى كتبت: «ومن بين المبعوثين ثلاثة يلحقون بمدرسة الصناعات الميكانيكية وهم: علي سيَّار، وأحمد علي الشوملي، وعبدالرحمن الجودر. وقد ذكروا لنا أن في بلادهم مدرسة صناعية واحدة معظم أساتذتها من السوريين. وأهم الصناعات في بلادهم في الوقت الحالي صناعة النسيج والخزف، وهي صناعات صغيرة، والعمل الرئيس للأهالي هو استخراج اللؤلؤ وصيد السمك كما أن كثيرين يعملون في شركات البترول الأميركية».

كانت القاهرة جميلة جدًّا، وجمالها كان يشعرنا حقًّا بحقيقة العالم الجميل والجديد الذي كنا نحلم به طويلًا.

كانت هي المدينة الحديثة بشوارعها الكبيرة وحدائقها وسياراتها

ومقاهيها وناسها وأصوات باعة الصحف كل صباح. وكنا نحن طلاب البعثة الذين نرى الدنيا لأول مرة.

كانت المهمة الرئيسة للطلاب البحرينيين التسعة في القاهرة هي أن تعرف كيف تعيش في وسط هذا العالم الجديد، وكيف تتعامل مع مناخها السياسي والاجتماعي والثقافي المفتوح، المقابل لمناخها المنغلق الصغير، القادمة منه.

صحيح أن شوارع القاهرة المضاءة وضجيج ناسها كانت الأكثر سحرًا لدى الطلاب. إلَّا أن عالمها السياسي المتداخل، الملك وصراع الأحزاب والمعارضة والبرلمان والتظاهرات. إضافة إلى مناخها الاجتماعي المفتوح و«فنها العريق». كان سحر الانبهار الأول والانطباعات الأولى تفقد بريقها مع مرور الأيام خاصة مع الدخول المتزايد لصخب الحياة الحقيقي في داخل القاهرة.

لم تمض فترة طويلة حتى ذهبت مع زميلي إلى مدرسة الصناعة الثانوية، وبدأنا دروسنا فيها، وبالرغم من وجود المدرسة في أحد الأحياء الشعبية العربية في القاهرة (بولاق) إلَّا أنها كانت جميلة وأرضها خضراء تمامًا.

ومع انتظام دراستنا، رحنا نألف الحياة مع مرور الوقت. إلّا أن هذا لم يمنع من بروز العديد من المشكلات أمامنا. فلقد كانت اللهجة المصرية، مثلًا، صعبة جدًّا بالنسبة لنا في الفهم أو التخاطب بها؛ فحتى تلك الأيام لم نر الأفلام المصرية ولم نختلط بالشعب المصري بعد! ولم يكن أمامنا سوى التخاطب مع الطلاب ورجل الشارع باللغة العربية الفصحى. وأصبح عاديًّا جدًّا أن نشاهد أحد زملائنا وهو يتعرف على أحد المصريين ويدور الحوار بينهما بهذا الشكل: ما اسمك؟ اسمي فلان. من أين أنت؟ أنا من البحرين.

وأين تقع البحرين؟ تقع البحرين في الخليج العربي. فقط بقيت المشكلة لدى بعض الزملاء الذين لا يجيدون الفصحى كثيرًا، وكأنهم في بريطانيا مثلًا لا يجيدون اللغة الإنكليزية.

وبالرغم من أن حديثنا بالفصحى كان يحل «لغة التفاهم» إلَّا أن الطلاب المصريين كانوا طبعًا يستغربون كثيرًا منا أو يسألون أنفسهم عن هذا الشعب الذي يتحدث الفصحى فقط.

أصبح الزمن هو الذي يحرّكنا نحو التفاعل ونحو الاكتشاف. وهكذا كان كل يوم جديد اكتشاف جديد وأيضًا مبهر.

ففي القاهرة يستفزك بائع الصحف في الصباح الباكر إلى القراءة، إلى معرفة ماذا يجري وماذا يحدث في هذه المدينة الصاخبة.

دفعني هذا الاستفزاز إلى قراءة «أخبار اليوم»، الصحيفة الجديد آنذاك، وبصحبة العناوين والموضوعات المثيرة جدًّا والتي تجبرك على قراءتها حقًّا، بالرغم من كونها «جريدة القصر» كما كانت تسمى في ذلك الوقت، وكانت هناك صحيفة «البلاغ» وغيرها المؤيدة لحزب الوفد المشهور. وجرائد «المقطم» و«روز اليوسف» و«الاثنين» و«آخر ساعة»، وكنت من عشاق «آخر ساعة» و«محمد التابعي» الكاتب المعروف.

لقد شكّل هذا العالم المملوء بالصحف والمجلات شيئًا جديدًا لم أكن أعرفه في عالم القراءة، يحمل الإثارة والتشويق لمعرفة السياسة وأسرارها وصراعاتها.

ومع هذه القراءات أصبحت أعرف من هو الوفد ومن هم السعديون والأحرار؟ بل وأصبحت أشعر بأنني يجب أن أكون وفديًّا أو أناصره على الأقل.

كان حزب الوفد أكثر الأحزاب شعبية وعراقة في مصر، وكان وقتها خارج الحكم وفي صفوف المعارضة ومناهضًا لسياسات الملك، واستطاعت قدرات هذا الحزب بإثارة الناس عبر التظاهرات الصاخبة اليومية وعبر صحفه المثيرة في خلق المناخ السياسي الذي يكسبهم العديد من المتعاطفين والمؤيدين الذين أصبحت واحدًا منهم.

وتفاعلت أكثر مع الجو العام المؤيد للوفد باشتراكي في العديد من التظاهرات المؤيدة له. والتي كانت مدرستنا أحد مراكز «صناعة التظاهرات». فبسبب وجود المدرسة في حي شعبي إضافة إلى شهرتها بأنها تضم «كافة فتوات بولاق» شكلت عامل جذب لمعظم التظاهرات.

في إحدى التظاهرات الكبيرة وبينما كنا نهتف: «عاش الوفد»، «يحيا الوفد» ونمرّ فوق «كوبري عباس» الشهير. وإذا بنا نسمع صياح وصراخ من في المقدمة وتعالت أصواتهم بضرورة رجوعنا إلى الخلف. لم أتذكر ساعتها ما حدث، سوى ملاحقة «بلوك النظام» أي شرطة الأمن لنا ومحاولة ضربنا.

بعد رجوعنا مرة أخرى إلى موقع «الكوبري» اكتشفنا أن الشرطة فتحت «الكوبري» من منتصفه، فسقط بعض الطلبة في النهر وغرق الكثيرون منهم، وكانت هذه أشهر التظاهرات التي اشتركت فيها وكتبت عنها كل الصحف.

في مقابل هذا المناخ السياسي الصاخب، كان شارع عماد الدين يثير فينا روح المغامرة والاكتشاف. لكننا تعاملنا مع هذا الجانب بكثير من الحذر، فلقد كانت الملاهي ودور الرقص وغيرها تعني تناقضًا كبيرًا لتفكيرنا المحافظ، إضافة إلى اعتقادنا بأنها ستجلب لنا المشاكل بسبب كوننا لا نعرف كيفية وأنظمة دخولها،

علاوة على أنها تحتاج إلى نقود كثيرة لم يكن راتبنا الشهري (2 جنيه) يسمح بها.

بعد انتهاء السنة الدراسية الأولى، أخبرتنا إدارة البعثة أن حكومة البحرين قررت إسكاننا في بيت خاص للبحرينيين. وعرفنا السبب بعد فترة قصيرة عندما وصلت دفعة الطلاب الثانية من البحرين أمثال: إبراهيم يعقوب، حسن المدني، حسين منديل، عبدالحميد الشتر، علي المسقطي، سلمان وعبدالرحمن كانو وغيرهم.

عند وصولهم للقاهرة انتقلنا إلى البيت الجديد في منطقة (الزمالك) والقريب جدًّا من بيت الطلبة الكويتيين المبتعثين أيضًا. وبالرغم من التغيّر في نظام السكن واختلاف المنطقة وازدياد عدد الطلبة، إلَّا أن البيت أتاح لنا فرصة جديدة ومجالات أفضل.

ففي البيت امتدت صداقتي مع الأستاذ المصري «حسن حبشي» المشرف على البيت، إلى التقارب في نفس مجالات اهتمامه وخاصة الأدبية.

كان «حبشي» صاحب علاقات كثيرة في الوسط الثقافي المصري. ولذلك استطاع أن يقيم الكثير من الندوات الأدبية في البيت وأن يستضيف بعض الأدباء أمثال: «زكي مبارك» الذي زارنا في البيت وأقام ندوة أدبية استمرت لساعات طويلة بسبب طول أسئلتنا وكثرة نقاشنا. كما زارنا أيضًا الكاتب «أحمد الصاوي».

وزيادة على ندوات البيت، كنت أرافق «حبشي» في الكثير من الندوات الأدبية والأمسيات الشعرية. بل إنني في أحيان كثيرة كنت أقرأ أخبار هذه الندوات في الصحف وأذهب إليها بمفردي في الجامعة الأميركية أو نادي الخريجين، كما كان موقع إقامتها في كثير من الأحيان.

وفي هذه الفترة الثقافية الخصبة بدأت أولى محاولاتي في نظم الشعر وكتابة العديد من القصائد. واحدة من هذه القصائد أطلعت عليها. «حبشي» واسمها (أمل):

(أيـــهـــذا الـــزورق الـــســـاري وقــد لــفــتــه أســتــار الــظــلام
وتـــرامـــت تـــحـــتـــه الأمـــواج نــشــوى هـــامـــســـات لـــلأمـــام
وطـــواه الـــشـــفـــق الـــحـــالـــم فـــي صــمــت كــمــا يــطــوى الــغــمــام)

وبالرغم من طول القصيدة إلّا أن «حبشي» أعجب بها وأخبرني ساعتها بمساعدته لي في نشرها في مجلة «الرسالة» الأدبية لأحمد حسن الزيات، فهو يعرفه شخصيًا ويمكننا أن نذهب معًا لمقابلته.

وبالفعل ذهبت معه إلى مكتب «الرسالة»، وفي الحال دخلنا على«الزيات» حيث قدمني له «حبشي» وقال له: إنه شاب من البحرين ومهتم بالأدب ولديه قصيدة يريد أن يطلعك عليها. أعطيت «الزيات» القصيدة وبعد أن قرأها سألني: هل أنت الذي كتبتها؟ فقلت: نعم. قال: طيب كم عمرك؟ أجبته: 16 سنة.

بعدها تحدث عن القصيدة وأبدى إعجابه بها وقال بأنها ممتازة ولكنه لا يستطيع نشرها بسبب صغر سني. وأتذكر أنه قال: إنني لا أستطيع تقديم شاعر للقارئ عمره 16 سنة. لكن إذا أصبح عمرك 18 سنة، فأنا مستعد لنشرها.

بعد خروجنا من «الرسالة» أخبرني «حبشي» بخطئي الكبير في الاعتراف بصغر سني وكان من المفروض أن أقول له بأن عمري يتجاوز العشرين على الأقل، وفهمت حينها بأن النشر له علاقة بالسن أيضًا.

لكن عدم نشر القصيدة بسبب عمري، شجعني كثيرًا على

الكتابة وفي كل شيء، وعلى القراءة أكثر من السابق والتعرف على مكتبات الأزهر وسور «الأزبكية» الشهير.

بدأت عندها الكتابة للصحف أول مرة عن طريق النكتة. ففي القاهرة كانت تصدر آنذاك مجلة ساخرة جدًّا، كل صفحاتها محشوة بالنكت والكاريكاتور واسمها «البعكوكة» كان فيها باب للنكت التي يبعث بها القراء، والجائزة لكل قارئ تنشر له نكتة 50 قرشًا. وعندما استهواني المبلغ الكبير آنذاك كتبت لهم: «إن شخصاً سأل صديقه: هل أمك حية؟ فأجابه صديقه: لا عقربة».

لم أكن أتوقع وأنا أرسلها للمجلة بأنها ستنشر، باعتبار أنها لا تضحك أحدًا أصلًا، كما كنت متأكدًا أنني لا أستطيع إطلاقًا مجاراة الشعب المصري في النكت. ولكن حدث عكس ما توقعت، إذ نشرت النكتة وباسمي أيضًا، واستلمت بعدها بيومين مظروفًا من المجلة وفي داخله الخمسون قرشاً. لقد ساهم نشر النكتة برغم ظرافة الموضوع، إلى محاولة كتابة المقالات وليس النكت. ووجدت الفرصة فعلًا في مجلة «الشرق الجديد»، التي كانت تخصص إحدى صفحاتها «لإخواننا الشرقيين في القاهرة وفي سائر الأقطار الأخرى لتكون رابطة اتصال فكري بينهم وبين ذويهم» كما تقول في مقدمة الصفحة.

ففي عددها الصادر في ديسمبر/كانون الأول 1945م. نشرت مقالي بعنوان: « إلى أبناء وطني في البحرين» حيث كتبت فيه: «عشقت مصر صغيرًا أيام كنت لا أفهم عن مصر إلَّا هذه الكلمات القليلة التي كانت تتجاوب أصداؤها في نفس كل شرقي (مصر أم الدنيا)، وكان لاسمها في نفسي وقع لا يقل عن وقع الموسيقى الجميلة حين تهواها النفس، فلا غرو أن يزداد حبي لها على مر

الأيام، ولا غرو أن يتغلغل هذا الحب في صميم فؤادي فحياك يا كنانة اللّه في أرضه».

وأضفت: «أيها الشباب: إن علينا رسالة يجب أن نؤديها كاملة غير منقوصة. إن على كواهلنا يقع عبء ثقيل ولكنه لذيذ محبب إلى النفس، إن أمامنا أعاصير ورياح مزمجرة تشل الحركة وتوهن العزم فعلينا أن نقود السفينة بمهارة وبراعة».

ونشر المقال بتوقيع «علي عبداللّه سيّار» «عضو البعثة البحرينية».

وعندما وجدت المقال الذي أكتبه لأول مرة في حياتي منشورًا بالفعل، ذهبت واشتريت العديد من النسخ. ووضعت بعضها في بيت الطلبة والباقي أرسلتها إلى كل من أعرفه في البحرين. وعلى ما يبدو أن صدى المقال كان طيبًا وخاصة في البحرين، بدليل أن أحد أصدقائي كتب لي رسالة يقول فيها: «إن الناس تسألني عنك، وكيف أنك (وصلت إلى هذه المواصيل)».

وفي القاهرة قابلني الطلبة البحرينيون بالعكس، فلم يتحدث عنه أحد إطلاقًا مع أن جميعهم اطلعوا عليه. شعرت حينها بأن عدم اهتمامهم كان يعني «الحسد من وصولي إلى هذا المستوى». وتزامنت هذه الفترة الخصبة على الصعيد الثقافي، بارتياد المسارح والتعرف على روادها أمثال: يوسف وهبي ونجيب الريحاني ومصطفى علام وغيرهم. ومشاهدة العديد من الأفلام السينمائية.

في أحد أيام شهر رمضان عام 1946م فوجئت أنا وزميلي «أحمد الشوملي» باستلامنا بطاقة تدعونا إلى حضور مأدبة إفطار يقيمها الملك فاروق في قصر عابدين.

وزيادة على دهشتنا من دعوة الملك فاروق لنا على الإفطار أن

الأستاذ «حبشي» عندما سألناه عن الدعوة أخبرنا أنه لا يعرف عنها أي شيء.

في صباح اليوم الثاني صدّقنا دعوة الملك فاروق، فلقد أخبرنا أحد أصدقائنا الكويتيين أنهم أيضاً مدعوون، وأن هذه عادة جرت لدى الملك أن يدعو الطلاب الشرقيين (أي العرب) إلى مائدة إفطاره في شهر رمضان في كل عام.

بالتأكيد كانت البطاقة حدثًا عظيمًا لنا، وبالذات أنهم اختارونا ممثلين عن الطلبة البحرينيين. وطوال أيام عدة جلسنا نستعد ونتفاهم على ما سنقوله للملك، حتى جاء اليوم الموعود.

في الساعة الخامسة خرجنا من البيت ونحن في أوج أناقتنا. حيث لبسنا أفضل بدلة نمتلكها ووضعنا الطربوش فوق رأسنا. ولأننا كنا وقتها مفلسين فلقد قررنا الذهاب إلى قصر عابدين مشيًا على الأقدام من الزمالك. كان الشعور بالفرح الكبير يسابقنا في الوصول إلى القصر. وفي حوالي الساعة السادسة وصلنا إلى القصر وأبرزنا بطاقاتنا للحرس الواقف. ثم أدخلنا في فناء كبير خلف القصر، وجلسنا هناك مع مجموعة كبيرة من «الطلاب الشرقيين». وفي لحظة جلوسنا رحنا نفتش بين نحو الثلاثين طاولة في الفناء عن الملك فلم نجده طبعاً. فقبل وصولنا كنا نتوقع أن نجلس بقرب الملك ونتحدث معه ونأكل معه أيضاً كما توهمنا من بطاقة الدعوة. أما نحن فرحنا نكمل أكلنا بسرعة حتى نخرج لكي نضحك على أنفسنا.

في نهايات شهر سبتمبر/ أيلول عام 1947م. أمرنا جميعًا في البيت بضرورة الاستعداد للانتقال للسكن الموقت في بيت الطلبة الكويتيين. وبالرغم من انتقالنا فعلًا إلى هناك، إلَّا أننا بقينا نضرب الأخماس بالأسداس عن أسباب هذا الانتقال.

لكن فترة شكوكنا لم تستمر، إذا أطلعنا الأستاذ «حبشي» بأن الحكومة طلبت منه أن يرتّب أمور جميع الطلبة بسرعة والعودة بهم إلى البحرين نهائيًّا.

كان «حبشي» يشعر بالحزن مثلنا، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً، فهو يعرف أن معظم الطلبة لم ينهوا دراستهم. كما أنه لا يوجد سبب واحد يفسر رجوعهم، فغالبيتهم طلبة متفوقون في مدارسهم وبعضهم من الأوائل فيها.

لم يكن السبب الوحيد الذي عجز «حبشي» عن معرفته، سوى أن المستشار البريطاني في البحرين وجد أن مهمة البعثة الطالبية قد انتهت، فالحرب العالمية توقفت ولم يعد هناك من مبرر للدعاية لبريطانيا في البحرين في أنها تعلم أبناءها وترسلهم إلى الخارج أيضًا، فالبعثة الطالبية كانت أصلًا دعاية بريطانية أرادت بها وبممارسات أخرى تحسين سمعتها ومحاولة تغيير اعتقاد الأهالي بتسلطها. ورغم ذلك، لم نستطع نحن الطلاب إلغاء القرار «البلغريفي» الجائر. فلقد بدأنا نحزم حقائبنا ونستعدّ للرجوع إلى البحرين.

في ليلة 5 أكتوبر/تشرين الأول 1947م. كانت القاهرة تبدو من نافذة الطائرة في مطار «إمبابة» حزينة. فلقد بدت أنوارها لا ترى، وأبواق سياراتها لا تسمع، وضجيج أهلها لا يسمع، كان يوم الرحيل، وكانت حزينة.

لم تمض دقائق عدة حتى اختفت كل أنوار القاهرة «الخافتة»، التي كان يراها طلاب البعثة البحرينية من نوافذ طائرتهم.

وخلال ساعات وصلت بهم الطائرة إلى بيروت، وليس إلى «تل أبيب» هذه المرة، التي توقفوا فيها لعدة ساعات، وأكملوا بعدها

نفس مشوار الرحلة الطويل عبر بغداد والبصرة حتى وصلوا في اليوم الثالث إلى البحرين. ووصلت الطائرة إلى البحرين، وما إن توقفت محركاتها وخرجوا منها، حتى اكتشفوا أن لا أنوار ساطعة ولا ضجيج ناس ولا باعة صحف.

إنها الساعة الثانية ظهرًا والبحرين نائمة، ولا أحد يستطيع إيقاظها في ساعة قيلولتها، سوى اشتياقهم الشديد لها وإلى أحضان أهاليهم، والكف عن الحديث في القرار «البلجريفي» الجائر.

لم أشعر بهدوء البحرين كما شعرت في تلك الدقائق عند وصولنا، كل شيء فيها ساكن وهادئ لا يتحرك. لكن أحضان أمهاتنا كأنها أعطتنا كل الضجيج الذي نحتاجه، والأمل الذي فقدناه من خيبة الرجوع.

منذ اليوم الأول لوصولي، اتفقت مع أصدقائي في البعثة على التجول في أسواق المدينة وزيارة جميع أصدقائنا، وكنا في ذلك اليوم ونحن نمشي في الشوارع نتخيل أن جميع الناس تنظر إلينا وتعرفنا، وأيضًا تؤشر بأصابعها علينا وتقول: إنهم طلاب البعثة العائدون من القاهرة. لكن الحقيقة أن لا أحد كان يعرفنا، ولا يعرف أصلًا أننا ذهبنا أو عدنا من القاهرة.

ثم مرت علينا الأيام الأولى من الرجوع في الاشتياق للقاهرة والحنين للعودة إليها، خاصة وأن رجوعنا منها لم يكن طبيعيًّا، ومحاولاتنا في التأقلم مع الحياة مرة أخرى لم تكن طبيعية.

بعد بعض المحاولات للحصول على عمل، وافقت على عرض أحد الأصدقاء بالعمل في المصرف البريطاني بالمنامة مقابل راتب قدره 147 روبية.

هناك تعرفت عن قرب على الصحافي المرحوم «محمود المردي»، والتقيت ببعض الأصدقاء مثل: «موشي ديان زاده» زميلي اليهودي الذي كان معنا في مدرسة الصناعة، و«عبدالعزيز الشملان» وغيرهما.

كان عملي في المصرف عبارة عن مسؤول دفتر الحسابات اليومية، وكان يتطلّب مني قضاء الوقت الكثير في العمليات الحسابية المرهقة، حيث لم يكن هناك بعد آلات حاسبة أو غيرها.

بقي عملي في المصرف روتينيًّا حتى جاءت «سنتا فلسطين في البحرين: 1947، 1948م.» وانتعش تفكيرنا وغيّرت الكثير من مفاهينا. فلم يكد قرار تقسيم فلسطين يدوي في إذاعات العالم، حتى تظاهر أهالي البحرين في الشوارع، وبشكل عفوي واضح، منددين بالقرار الجائر، وأيضًا في التعبير عن مشاعرهم تجاه القضية الفلسطينية التي أخذت أشكالًا أخرى، كانت في نظرهم صحيحة ومنطقية. ولذلك راح القليل جدًّا من المتظاهرين ينهبون بعض المتاجر اليهودية في السوق، ويهاجمون أحياء اليهود السكنية، بدافع العفوية، والرد على الاغتصاب الصهيوني لفلسطين. مما اضطر بعض اليهود إلى الهجرة إلى فلسطين ومن ضمنهم زميلنا «موشي ديان زاده» والذي سمعت عنه في ما بعد أنه قاتل في حرب 1967 .

كانت القضية الفلسطينية حينها تعبّر عن نفسها في تفكير الغالبية العظمى من أهالي البحرين، في كون فلسطين أرضًا عربية وأنها الأرض المقدسة التي تحتضن المسجد الأقصى وغيره. ومع تطور القضية الفلسطينية واتضاح الكثير من الحقائق حول الخيانة العربية «والأسلحة الفاسدة» وأكاذيب الإذاعات العربية حول انتصارات

الجيوش العربية ودخولها فلسطين، راحت كل هذه القضايا تمتزج مع تطور وعي أهالي البحرين نحو فلسطين وفي أشكال أكثر تقدمًا في دعم القضية كإقامة المهرجانات الخطابية لتوعية الأهالي وجمع الكثير من التبرعات العينية والمادية وغيرها من الأشكال المتقدمة في عام 1948م. وما بعده.

بعد ما يقارب العامين من عملي في المصرف، حصلت على فرصة للعمل في السعودية كمترجم في منطقة «المشعاب» القريبة من الحدود الكويتية. كان عملي في هذه المنطقة مرافقة الخبراء الأميركيين الذين يعملون على إنشاء خط أنابيب «التابلاين» والترجمة لهم مع الكثير من العمال البحرينيين، الذين نزح العشرات منهم للعمل في المشروع. وبالرغم من الراتب المغري جدًّا، إلَّا أن الحياة القاسية جدًا التي كما نعيشها في وسط الصحراء راحت تدفعنا إلى اختصار المدة. وخاصة بالنسبة للعمال البحرينيين الذين كانوا يعيشون ضمن خيام مكتظة في الشتاء والصيف. وبالفعل ما إن انتهى عقد العمل حتى قررت الرجوع في الحال.

في طريق العودة من «المشعاب» مررت على مدينة «الخبر». وهناك وجدت المرحوم «المردي» يعرض عليَّ العمل معه في المصرف البريطاني بدلًا من الذهاب إلى البحرين.

لم أفكر طويلًا في عرض العمل، بل وافقت في الحال وعملت في المصرف، وكان ذلك عام 1949م.

في «الخبر» تعرفت على «المردي»، وتعمقت علاقتي به كثيرًا، فبسبب انعدام وسائل الترفيه في المدينة آنذاك، رحنا معًا نخلق مناخنا الثقافي المشترك.

كان هو يقرأ كتابًا ويطلعني عليه، فأقرأه ثم نتناقش فيه،

ونشترك في قراءة الصحف والمجلات المصرية، كما نقرأ الأشعار ونبحث في كل القضايا الأدبية والفكرية دائمًا.

في نهاية عام 1949م. أخبرني «المردي» عن وجود مجلة بحرينية ستصدر قريبًا باسم «صوت البحرين» وأنه أحد المؤسسين لها. وبالرغم من عدم دعوته لي للمشاركة في الكتابة بها، إلَّا أن الكتابة تفاعلت داخلي من جديد، وبرز معها حب الكتابة، وربما حب الظهور وحتى الشهرة أيضًا. كانت العوامل التي تدفعني للكتابة تتركّز في كون «صوت البحرين» ستكون المجلة الثانية بعد جريدة «البحرين» المشهورة للزائد، وبالتالي يجب المشاركة فيها، إضافة إلى اعتقادي بإمكانية الكتابة أو على الأقل المحاولة فيها.

هكذا فرّغت نفسي لأكثر من أسبوع حتى انتهيت من كتابة المقال، ثم أطلعت عليه «المردي» الذي أعجب به وقرر إرساله إلى «صوت البحرين» لنشره في عددها الأول. وبالفعل صدرت المجلة ونشر المقال بعنوان: «نصفنا الحلو.. مر».

كانت المرأة وقتها تسمى «النصف الحلو» ولكنّ مشكلات غلاء المهور وتكاليف الزواج تجعل من هذا النصف الحلو مرًّا.

شرحت في المقال القضية وكتبت: «إن أحدًا لا يستطيع أن يرفع يده استنكارًا أمام حقيقة ـ هذا إذا جاز أن نسميه زواجًا ـ إذ هو في الواقع ليس أكثر من مشروع إفلاس يخرج بعده الشخص وقد نظفت جيوبه كأنما مسّتها يد ساحر. لا أظنني في حاجة إلى القول بأن الزواج شركة عادلة متكافئة بين شخصين متكافئين يواجهان الحياة ومشاكلها جنبًا إلى جنب، ويسند الواحد منهما الآخر صيانة للنسل البشري من ناحية، واستمتاعًا بمباهج الحياة الزوجية من ناحية أخرى».

وأضفت: «لست هنا بمجال النصح والإرشاد ولست بمجال سرد المآسي الكثيرة التي تتمخض عنها مشاريع الزواج في محيطنا ولست ـ أخيرًا ـ بمجال سرد التكاليف الباهظة التي يغرق فيها العريس من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، فكل تلك أشياء يلمسها الفرد العادي بل الشباب المثقف الذي يجب أن يكون نواة صالحة في أرض صالحة طيبة. هناك فئة قليلة تتّخذ الزواج قنطرة للإثراء أو مسلكًا تنفذ منه للبذخ والترف أو تتّخذه مباهاة وخيلاء. وهناك فئة أخرى غالبة لا تجد منفذًا للزواج غير هذا رغم أنف الإملاق الذي ينشب أظافره فيها فتمضي في الطريق منكّسة الرأس ليس لها أن تفتح فمها بكلمة اعتراض، أو تهتز يدها بإشارة استنكار، لأن قيودًا حديدية ثقيلة من تبعة الماضي وتقاليده تغلّ يدها وتسيطر على نواحي حياتها الاجتماعية. ولهذا تمضي هذه الفئة كما يمضي المجرم المحكوم عليه بالإعدام إلى المشنقة، ومشنقة الطبقة الوسطى ـ التي هي عماد الأمة وعصبها ـ هو الزواج».

بالرغم من شعوري الكبير بالارتياح والإحساس بإمكانية الكتابة. إضافة إلى صدى المقال الواسع الذي ترجم في صورة بعض الردود عليه، التي نشرت في المجلة. إلّا أن كل هذا لم يجعلني أفكّر في إمكانية أن أصبح صحافيًّا أو كاتبًا معروفًا. فقط كنت أريد أن أكتب وأن أعبّر عمَّا أريد قوله في الكتابة. ولذلك تعاملت مع الكتابة في تلك الفترة على أساس أنها هواية وهواية فقط.

لكنّ الهواية على ما يبدو تحولت إلى أكثر من ذلك في «البحرين»، فكتبت العديد من المقالات فيها، من ضمنها مقال: «مفارق الطريق» ومقالة في النقد الأدبي عن أحد الدواوين الشعرية.

وعندما كتب أستاذي الشاعر «عبد الرحمن المعاودة» قصيدة «حنين» في المجلة يعبر فيها عن غربته في الكويت:

هو الماء لكن في لهاتي صابُ ... فهل لي إلى البحرين بعد إياب؟
سلام عليها ما استطالت بنا النوى ... وما غرَّنا من ذا الزمان سراب
فيا موطنًا لو أستطيع فديته ... بروحي ولو عندي عليه عتاب
ذرعت بلاد اللَّه شرقًا ومغربًا ... فما طاب لي إلّا إليه مآب

أتذكر أنني تأثرت بها كثيرًا، ونظمت قصيدة أرد عليها باسم «رجع الصدى». وكتبت في مقدمتها: «إلى الذي انعتقت نفسه من رق العبودية فانساق يقطع دروب الحياة في صبر وإيمان. تمزّق أيامه الغربة ويأكل أعصابه الحنين.. إلى أستاذي الشاعر عبدالرحمن المعاودة صدى لقصيدته:

إيه يا شاعر الشباب سلامًا ... من شباب في ساحنا أو شيب
واغفر اليوم أن ترى الماء صابًا ... ذاك يوم أو بعض يوم عصيب
وترقّب غداة ينذر في الأفق ... صداع من آنيات الغيوب
يلهب الحسّ والشعور ويبني ... شرعة الحق في كفاح الشعوب

بقيت مجلة «صوت البحرين» كمجال وحيد للكتابة ومتنفسٌ وحيد لإبداء آرائنا وأفكارنا. لكنّ مجال الكتابة أيضًا لم يكن هو طموحنا الوحيد الذي نحلم بتحقيقه فقط، بل أشياء أخرى كثيرة رحنا نفكر في كيفية تحقيقها. ففي أثناء إبحارنا الأسبوعي المتكرر إلى البحرين لزيارة أهالينا عبر القوارب، تعرفنا على الفنان «يوسف قاسم»، حيث تكرّرت لقاءاتنا معه كثيرًا بعد ذلك. وفي إحدى الجلسات، رحنا نتحدث عن إمكانية إنشاء مسرح في البحرين نقوم فيه بتمثيل المسرحيات بنصوص محلية وعربية.

ومع تكرار زياراتنا للبحرين تبلورت الفكرة ولم يبقَ سوى حل مشكلة العنصر النسائي في التمثيل، فقد كان كل شيء يمكن حله إلّا وجود فتيات يمثلن على خشبة المسرح في تلك الفترة، لكن «يوسف قاسم» اقترح علينا جلب هذا العنصر النسائي من العراق، حيث قال بأن لديه أصدقاء عراقيين وبالتأكيد سوف يساعدونه عندما يذهب إلى هناك في إيجاد بعض الفتيات للعمل كمتفرغات وبرواتب ثابتة لمسرحنا.

وافقنا طبعًا «قاسم» على الفكرة في الحال وطلبنا منه قبل أن ينفّذها، كتابة رسالة إلى المستشار البريطاني «بلغريف» لطلب رخصة إنشاء المسرح، ومسألة استقدام الممثلات العراقيات أيضًا.

كتبنا الرسالة وأرسلناها إلى المستشار وبقينا في «الخبر» ننتظر، و«يوسف قاسم» أن يقابل المستشار بنفسه ويسأله عن الحكاية.

بعد أسبوع واحد جاء «قاسم» وقال بأن المستشار رفض إنشاء المسرح أساسًا وليس فقط إحضار الممثلات العراقيات.

كانت هذه الخيبة الجديدة دافعًا قويًّا لي للعودة إلى البحرين وترك العمل في «الخبر».

في بدايات عام 1952م رجعت إلى البحرين مرة أخرى، وكانت تنتظرني حكاية جديدة.

لم يتردد «علي سيّار» كثيرًا في قبول عرض العمل فور وصوله إلى البحرين. فلقد وجد أن وظيفة مدير مطبعة «مؤيد أحمد مؤيد» تقرّبه كثيراً من «هواية» الكتابة، حيث يجد فيها عالم الحروف والطباعة. إضافة إلى أنها تنهي مسألة العودة إلى الغربة، وربما إلى الأبد.

وعندها وجد نفسه، ولأوّل مرة، يدير إحدى أوائل المطابع الحديثة في البحرين، والتي لم تكن إلّا عبارة عن بعض الآلات الحديثة المستقدمة من ألمانيا، وبعض الآلات القديمة المشتراة من مطبعة جريدة «البحرين» التي أغلقت أبوابها.

بالرغم من كون مطبعة «المؤيد» مؤسسة تجارية تقوم بطباعة النشرات التجارية وبعض الكتب، إلّا أن أصوات آلاتها القوية التي يسمعها «سيّار» كل يوم، كانت تحرّك في داخله الحلم الذي يراوده منذ زمن بعيد، بل وتجعله يفكر فيه يوميًّا كلما اتّسخت يداه بحبر المطبعة ولامست الأحرف اليدوية والأوراق.

بعد أشهر عدة من عملي في المطبعة، جاءني رجل عراقي يدعى «كارنيك جورج ميناسيان» وقال بأنه حصل على رخصة إصدار جريدة أسبوعية تهتم بشؤون الفن والأدب، وأنها ستصدر باسم «الخميلة» وهو يريد طباعتها في المطبعة. وبالفعل طبعت الجريدة وصدرت «الخميلة» في 29 أكتوبر/تشرين الأول 1952م.

لقد أسهم صدور «الخميلة» بزيادة التفكير جديًّا في تحقيق طموحي بإصدار جريدة أسبوعية سياسية خاصة وأنها جعلتني أرى إمكانية طباعة الجريدة الأسبوعية وتحريرها أيضًا، كما ساعد انتظام صدورها على البدء فورًا بتنفيذ المشروع.

كنا نرى، أنا والمردي، أن «صوت البحرين» باعتبارها مجلة شهرية وتطبع في لبنان لا تلبي طموحاتنا كشباب متحمس للكتابة ويريد أن يدخل عالم الصحافة الواسع. ثم تبلورت الفكرة وانضمت إلينا مجموعة من الأصدقاء لتأسيس الجريدة.

في الاجتماع التأسيسي الأول الذي حضره: المردي ويوسف

الشيراوي وأحمد يتيم وناصر بوحميد وأنا، رحنا نبحث عن كيفية إصدارها، وما هو اسمها؟ وما هي مصادر تمويلها؟

في نهاية الاجتماع جرى الاتفاق على تسميتها «القافلة» لما يحمله هذا الاسم من رمز عروبي، بالرغم من اقتراح أحد المؤسسين بأن تسمى «الطاووس».

وجرى أيضًا وضع أبواب الجريدة المتكونة من كلمة التحرير، و«سياط» وهي زاوية لاذعة يحررها «المردي»، وباب «أضواء على الحوادث» وهو عبارة عن تعليق على الأحداث السياسية، يكتبه «الشيراوي»، علاوة على أبواب أخرى مثل «العهدة على الراوي» و«القافلة تسير» وغيرها.

بعد عدة اجتماعات تقدمنا إلى المستشار البريطاني بطلب إصدار رخصة للجريدة، فصدر الترخيص في مدة بسيطة وبسهولة جدًّا، فحتى تلك الفترة لم يظهر «عبدالناصر» كما قال لنا بعد ذلك. وفي يوم الجمعة 7 نوفمبر/تشرين الثاني 1952م. صدر العدد الأول من «القافلة». ومنذ العدد الأول للصدور لاقت الجريدة ترحيبًا واسعًا من القراء لم نتوقعه.

كان صدور «القافلة» وفي هذه المرحلة بالذات تعبيرًا عن حاجة الناس إلى جريدة أسبوعية تكون بديلة عن الجريدة الأسبوعية المرحومة «البحرين»، والتي كان صداها لا يزال يتردد حتى تلك الفترة. وجريدة شعبية ثانيًا تختلف طبعًا عن «البحرين» في مضمونها تمامًا وفي شكلها أيضًا.

صارت «القافلة» تصدر في كل أسبوعين مرة بسبب الظروف الطباعية الصعبة في البحرين. فلقد كانت مطبعة المؤيد، التي تطبع

فيها الجريدة، وكل المطابع أيضًا، لا يزال يجري فيها جمع الحروف باليد. تلك العملية المرهقة والتي لا يجيدها إلّا القليلون. وحيث كان المقال الصغير الواحد يأخذ أكثر من أربع ساعات حتى تتم عملية جمع حروفه. ولهذه الأسباب الفنية لم تستطع «القافلة» من الصدور الأسبوعي.

بالرغم من المعوقات الأخرى، فقد عبرت أعداد «القافلة» الأولى وانتظامها منذ البداية عن خلق مناخ صحافي يعالج العديد من القضايا السياسية، ويتطرّق إلى الهموم المحلية وغيرها.

مع هذا الدور والسمعة التي راحت «القافلة» تتميز بهما، اضطررت إلى ترك عملي السابق والتفرغ تمامًا لإصدارها.

في الحقيقة كانت «القافلة» نموذجًا لما يمكن تسميته صحافة الفرد الواحد، فغالبية مواد الجريدة أحررها بسبب وجود «المردي» في «الخبر»، و«ناصر بوحميد» متفرغ لتجارته ويكتب قصيدة للجريدة كل أسبوع، باعتباره شاعرًا مع أن القافلة لا تحتاج إلى شاعر، و«الشيراوي» مقل في الكتابة. أما «أحمد يتيم» فهو الوحيد الذي كان ملتزمًا بعمله في تحرير الأخبار وبكفاءة ممتازة.

كما كان يشارك في عملية التحرير بعض القراء، «أحمد جاسم» يحرر «جولة الأسبوع» وكانت تشبه التحقيق الصحافي الحالي، و«عبدالعزيز الشيخ علي» يعلّق في كل عدد على مقالات «القافلة».

وشارك الشاعر الكويتي «علي السبتي» في التحرير من خارج البحرين، فكان ينشر في الجريدة قصائده، ويكتب لها عن أخبار الكويت وبعض المقالات عنها.

وعلاوة على أن «السبتي» كان مراسلًا نشطًا للجريدة فلقد بدأ

بتجربته الشعرية ونشر قصائده الأولى فيها، حتى إن قصيدته «رباب» لاقت صدًى واسعًا لطرحها لونًا جديدًا من الشعر في معالجة بعض القضايا الاجتماعية.

ومع مضي الوقت، توسعت دائرة «القافلة» في الانتشار حيث وصل توزيعها إلى أكثر من خمسة آلاف نسخة تنفد في خلال ساعات. وعبّرت الإعلانات عن المواد الاستهلاكية التي كانت تصل إلى الجريدة من شركات الإعلانات الدولية من لندن على صدق هذا الانتشار في البحرين وبعض مناطق الخليج أيضًا. لكن لم تأخذ «القافلة» صفتها حقًّا كصحافة شعبية تعالج هموم الناس المحلية والقضايا العربية بالأفق العروبي، إلّا عندما قامت ثورة 23 يوليو/ تموز المصرية وبرز عندها الزعيم العروبي «جمال عبدالناصر». وهنا دخلت «القافلة» والبحرين كلها مرحلة جديدة تمامًا.

عندما راح يتردد اسم الزعيم العروبي «عبدالناصر» كثيرًا في الوطن العربي، انقلبت كما هو معروف كل المعادلات السياسية، وراحت ثورة يوليو تجد صداها العربي الواضح. وكانت منطقة الخليج والبحرين بالذات إحداها.

فلأول مرة سمع أهالي البحرين عن «البطولة القومية» وعن «الثورة» ومعناها في إسقاط «الملك فاروق» وإنهاء الإقطاع و«دور الشعوب» وغيرها من الأفكار التي ألهبت مشاعر الناس.

كان «عبدالناصر» نمطًا جديدًا في السياسة العربية، برز للناس في تحدي الاستعمار والعزّة والكرامة القومية وفي حبّ الشعب. كانت قوة عبدالناصر الحقيقية تكمن في مخاطبة الشعوب العربية ومن دون حواجز وبصلة مباشرة وحقيقية بهم.

هكذا تعامل أهالي البحرين مع عبدالناصر، مع عبدالناصر الذي يريد إنهاء الاستعمار وتحدّيه، مع الإيمان بأهمية الجماهير ودورها، ومع عبدالناصر في العزّة القومية.

في كل يوم كان الناس يتابعون أخبار ثورة يوليو/تموز وآخر أخبار عبدالناصر في الإذاعات مهما كان لونها، وفي الصحف مهما كان شكلها. المهم أن يعرفوا ماذا تقدّم لهم ثورة يوليو/تموز وقائدها عبدالناصر.

كما تزامنت هذه الفترة مع بروز حركة سياسية في البحرين قادتها «هيئة الاتحاد الوطني» وذلك بعد ممارستها للنشاط السياسي العلني المعترف به رسميًّا.

في هذا المناخ السياسي الشعبي الملتهب على الصعيدين العربي والمحلي، اختارت «القافلة» الوقوف مع ثورة 23 يوليو/تموز وعبدالناصر، ومع «هيئة الاتحاد الوطني».

فتزايد فيها الطابع السياسي المباشر والحادّ أيضًا في التعبير عن الخط القومي والأفكار الناصرية. وكانت «القافلة» تنشر أخبار الثورة وقائدها وتتابع تطوراتها وتفاعلاتها وتأثيراتها في الوطن العربي كله.

بل حتى معارك عبدالناصر اليومية مع الاستعمار وغيره كانت تجد أيضًا مكانها في «القافلة» وفي صحافة البحرين أيضًا.

فمنذ تلك الفترة، راحت مجلة «صوت البحرين» تعبر عن نفس تلك الأفكار وتنحاز إلى الخط القومي وتأخذ طابعها السياسي بدلًا من الأدبي الفكري الذي بدأت فيه.

ثم توقفت جريدة «الخميلة» عن الصدور، لعدم إمكانية صدور جريدة تتحدث عن الفن والأدب ضمن مناخ سياسي لا يتحدث إلّا

عن عبدالناصر فقط. كما صدرت في نفس الفترة صحف أسبوعية أيضًا عبّرت عن نفس الاتجاه مثل «الميزان» و«الشعلة» وغيرهما.

في هذا المناخ وجدت «القافلة» نفسها في المقدمة، فهي في مقدمة المعبرين عن آراء الحركة في البحرين والتي لم تجد بعدها سببًا لإصدار جريدة خاصة بها، لاكتفائها بـ «القافلة» المعبّرة عنها. وفي مقدمة المعبّرين عن ثورة يوليو/تموز وعبدالناصر.إضافة إلى انتشارها ونفادها ساعة صدورها في الأسواق ومطالبة القراء بزيادة طبع عدد نسخها، التي حالت ظروف الطباعة دون زيادتها.

مع ازدياد تفاعل الحماسة القومية مع عبدالناصر الذي تفاعلت معه صحافة البحرين الشعبية بشكل لا يصدق. وجدت السلطات البريطانية التي كانت تحكم البحرين آنذاك نفسها في مأزق كبير جدًّا، لا يضاهيه إلَّا رعبها اليومي من عبدالناصر. لذلك قامت بإغلاق «صوت البحرين» بشكل نهائي عبر إجراء تعسفي، وعندنا وقفت «القافلة» متضامنة وأفردت صفحة كاملة في كل عدد، ليكتب فيها جميع محرريها. وأثار هذا الموقف التضامني السلطات البريطانية واعتبرته تحديًا كبيرًا لها.

هنا تفاعلت الأحداث أكثر وأكثر، وراح «بلغريف» المستشار يستدعيني أسبوعيًّا ويناقشني فيما نكتبه في «القافلة» وكنت أشعر من الحوار معه أن بريطانيا تشعر باختصار أن «عبدالناصر ليس في مصر فقط»، و«أن عبدالناصر يعني نهاية الاستعمار»، و«إنهاء الاستعمار لدى أهالي البحرين مسألة وقت لا أكثر».

كما أن تعاطف وتضامن «القافلة» مع هموم الشارع البحريني كانت تثير غضب «بلغريف» كثيرًا خاصة وأنها تكتب بشكل جريء جدًّا. ومع استمرار القافلة في الوقوف مع الخط القومي والقضايا

الشعبية المحلية ازداد التصادم مع سلطة «بلغريف» حتى استلمت في النهاية رسالة موجهة إليّ شخصيًا تأمرني بإيقاف «القافلة» نهائيًا.

كما توقعت، فقد كان السبب الرئيس للإيقاف هو أن «الجريدة تسير في خط غير مرضيّ عنه من قِبَلِ الحكومة البريطانية، كما قال لي «بلغريف» عندما قابلته. إضافة «إلى أنكم استغليتم الحرية الكبيرة الممنوحة لكم».

وبعد محاولات عديدة لصدور «القافلة» مرة أخرى، وجدنا أنفسنا نقبل بشروط «بلجريف»، والتي كانت تقضي بتغيير اسم «القافلة» وعدم وضع اسمي عليها كرئيس تحرير أو حتى كمحرر عادي، أي لا أوقع باسمي تحت أي موضوع أكتبه، علاوة على ذلك ـ وهذا هو الأهم ـ خضوع الجريدة للرقابة المنشأة حديثًا للرقابة على جميع الصحف.

بعد قبولنا مرغمين بهذه الشروط صدرت «الوطن» نظم الشاعر «رضا الموسوي» هذا البيت في العدد الأول من الصدور:

قالوا ستصدر باسم الوطن فقلت الحسين أخوه الحسن

لم يتغيّر خط «الوطن» كثيرًا عن «القافلة» سوى المشكلات الكثيرة مع الرقابة. والتي كانت تضطرنا في كثير من الأحيان إلى صدورها وبعض صفحاتها بيض، وبعض الأحيان تحذف الافتتاحية وبعض الأخبار والمقالات.

وفي أثنائها أيضًا صدر قانون يمنع موظفي الحكومة من الكتابة في الصحف. ولذلك خرج من «الوطن» يوسف الشيراوي و«أحمد يتيم» باعتبار أنهما يعملان في سلك التدريس الحكومي. ومع ذلك بقيت «الوطن» تصدر وفي مقدمة الصحف الشعبية.

لم أنسَ حتى اليوم تفاصيل توقف عبدالناصر في مطار البحرين، وكان بالفعل يومًا عظيمًا لا يمكن أن ينسى إطلاقًا. فمع أن خبر وصوله لم يعرفه أحد، بسبب تكتم سلطات «بلغريف» عليه تمامًا، ومع أن الخبر لم يسمعه أحد في الإذاعات ولم يقرأه أحد في الصحف إلّا أن الخبر انتشر كالبرق بين أهالي البحرين.

أتذكر يومها أغلقت حوانيت جميع الأسواق وزحفت الناس سيرًا على الأقدام إلى المطار، وكانت تأتي من كل مكان، من القرى والمدن. كان المطار غاصًّا بالرجال والنساء والأطفال ساعة وصوله. وعندما توقفت محركات الطائرة ونزل منها «البكباشي» عبدالناصر ببدلته العسكرية حتى أسرع المحظوظون الذين كنت واحدًا منهم بتقبيله واحتضانه أثناء سيره إلى قاعة الانتظار في المطار مع «بلغريف» الذي كان في استقباله.

كان مشهدًا لا يصدق فالجميع يريد تقبيله أو مصافحته أو حتى رؤيته وملامسة يده. وخلال الفترة القصيرة التي توقف فيها عبدالناصر في المطار، عبّر تجمع أهالي البحرين وتصفيقهم وهتافاتهم بحياة الزعيم العروبي عن أكبر استفتاء حقيقي لتأييدهم ووقوفهم مع قيادة عبدالناصر.

وبحلول عام 1956م، تطورت القضايا السياسية كثيرًا حتى بلغت مداها في الاعتداء الثلاثي على مصر. وعندها خرجت البحرين كلها تعبّر عن مشاعرها وتأييدها.

في أيامها أغلقت سلطات «بلغريف» جميع الصحف الوطنية، وضربت الحركة الشعبية ونفت زعماءها إلى الخارج، وهنا بدأت حياة جديدة.

راح أكثر من خمسين بحرينيًّا بالإضافة إلى «علي سيّار» بعد أحداث 1956م، يفتشون عن أقرب محطة يستطيعون الإقامة والعمل بها. لم يأخذ هذا البحث وقتًا طويلًا حتى وجدوا الكويت تنتظرهم بل وتستقبلهم بترحاب مدهش. وفي الكويت، كانت الحياة الجديدة.

لم يكن في بال جميع البحرينيين أن احتضان الكويت لهم سيكون على هذه الدرجة الراقية. فخلال أكثر من شهر كامل، استضافتنا جميع الأُسر الكويتية المعروفة إلى ولائمها المقامة احتفاءً بنا، على شكل مآدب غداء وعشاء، بل إن الكثيرين منهم يتبارون في كيفية الاحتفاء بنا ومساعدتنا.

كان تعبير هذا الترحاب يمتزج بالعلاقات الخاصة والتاريخية بين أهالي المنطقة كلها، وبالذات بين أهالي البحرين والكويت. ولذلك بقينا نحو شهر واحد في أحد الفنادق تحت ضيافة الشيخ صباح الأحمد الذي كان رئيس دائرة الشؤون الاجتماعية آنذاك. بعد انقضاء هذا (الشهر الاحتفالي)، راحت كل المجموعة تبحث لها عن عمل، وبمساعدة خاصة من (عبدالعزيز حسين) وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء السابق (وخالد المسعود) نائب في مجلس الأمة السابق. وبفضل هذه المساعدات والترحيب الذي كنا نقابَل به في كل مكان، استلمنا جميعًا وظائف غالبيتها كانت في الدوائر الحكومية. أما أنا، فقد عملت في دائرة الشؤون الاجتماعية كمسؤول عن مكتبة الدائرة والمنشأة حديثًا، وهناك التقيت بصديقي الكويتي (حمد الرحيب) الوزير السابق والذي كنت أعرفه منذ أيام القاهرة في بيت الكويتيين هناك.

في هذا المناخ الترحيبي، شعرنا بأن الكويت هي الحضن الدافئ الذي نشعر بالحاجة إلى دفن أنفسنا فيه، ونسينا كل همومنا وغربتنا.

ومع مضي الوقت رحنا نألف الحياة ونتفاعل مع الكويت. لم تنقض فترة طويلة حتى بدأتُ العمل في الصحافة الكويتية بالإضافة إلى عملي في الدائرة. وفي مجلة «صوت الخليج» كانت بدايتي، حيث عملت فيها كمحرر أقوم بكتابة بعض أبوابها. وفي «صوت الخليج» تعاملت مع شخصية رئيس تحريرها الطريفة «باقر خربيط».

وكانت عادة «خربيط» السيئة هي عدم دفع رواتب المحررين فيها. حيث كان يعمل معي وقتها «وليد أبو بكر» المحرر الثقافي في جريدة «الوطن» سابقًا، و«حمد السعيدان» و«علي السبتي» وغيرهم.

كنا عندما نسأله عن راتبنا يوم السبت مثلًا يقول: إنه عيد اليهود وهذه مناسبة لا يمكن أن أدفع الرواتب فيها، أو يوم الأحد يقول: إنه عيد المسيحيين. في الاثنين يقول إنه يوم عطلة الحلاقين في مصر. حتى نسأله بعدها: متى نستلم الرواتب إذًا؟ فيجيب يوم الأربعاء، وطبعًا لا يأتي إلى الجريدة في هذا اليوم. وإذا جاء يوم الخميس فهو بالنسبة له آخر الأسبوع، والجمعة طبعًا عطلة. وفي النهاية نستلم رواتبنا دفعة واحدة بعد ثلاثة شهور أو أكثر.

ومن خلال عملي في «صوت الخليج» التي أصبحت المسؤول فيها بعد ذلك، تعرفت على الصحافة الكويتية والكثير من الكتاب الكويتيين والعرب.

كانت تلك الفترة بداية نهوض صحافة الكويت، وعبرت صحف مثل: «الرسالة»، «الهدف»، و«الشعب»، و«أضواء المدينة» و«الطليعة» عن تلك البدايات الصعبة لنهوضها الحالي.

في خارج مناخ العمل الصحافي، كانت الكويت متميزة عن بقية بلدان المنطقة وربما الوطن العربي كله، بكثافة التواجد العربي. فهذا

التواجد راح يشكّل التفاعل بين جميع العرب وبمختلف اتجاهاتهم وتياراتهم السياسية وخاصة في تلك الفترة.

شكّل هذا التفاعل بالنسبة لي، التعرف إلى الكثير من الأفكار الجديدة والمتنوعة، الممزوجة بالتوجهات السياسية والشخصيات العربية وكان هذا التنوّع ضمن هذا المناخ الخصب المفتوح، يدفعني دائماً إلى القراءة والاستطلاع ومعرفة الآراء المختلفة.

ومن ضمن هذا المناخ تعرفت إلى الشهيد الكاتب الفلسطيني «غسان كنفاني». كان الشهيد وقتها مسؤولًا عن النشاط الثقافي في النادي الثقافي القومي في الكويت، والذي كان أحد تجمعات القوميين العرب. حيث كان أبرز أعضائه الدكتور أحمد الخطيب وجاسم القطامي وغيرهما. وكنت أتردد بين فترة وأخرى إلى هذا النادي، وخلال عضويتي بالنادي ازدادت معرفتي بالشهيد كثيرًا.

لقد كان حينها أبرز أعضاء النادي نشاطًا وأكثرهم ثقافة. بالرغم من كونه لم يبرز حتى تلك الفترة كقيادي فلسطيني في نهاية الخمسينيات. كان «غسان» شابًّا مثقفًا وإنسانًا نبيلًا من الطراز الأول، نقيًّا إلى أبعد الحدود، لم أعرف إنسانًا مثله في حياتي على الإطلاق. وكان بالرغم من ثقافته الواسعة وذكائه واللذين يتفوق بهما على الجميع، باعتراف كل أعضاء النادي وغيرهم، بسيطًا إلى أبعد الحدود ومتواضعًا بشكل لا يصدق. فطوال فترة علاقتي الحميمة معه والتي يأخذ بعضها شكل الحوارات عن القضايا العربية والفلسطينية بالذات، لم يشعرني خلالها بأن مستواه وثقافته أعلى من ثقافتي. وأعتقد بأنه كان يمتلك، كما حدث فعلًا، كل مؤهلات القيادة بالرغم من نقائه الخرافي. وفي كل ندوة أو رحلة أو أي نشاط في النادي يكون هو وراءها ومحركها وروحها أيضًا. وعلى الرغم من

المأساة التي يعيشها مع شعبه كله، إلَّا أنه أيضًا يجيد فن المرح وإضفاء البهجة في نفوس الناس.

أتذكّر مرة أن النادي أقام حفل سمر ترفيهيّ للأعضاء، كنوع من غسل هموم العمل والاغتراب للعرب فيه، فقام «غسان» وطلب من الحاضرين ـ بعد أن شعر بعدم تجاوب الحاضرين مع شخص مقدم الحفلة ـ أن يقوم أي شخص منهم ويقول أي كلام فارغ ويحصل على جائزة، ومجرد ما إن يقول هذا الشخص كلامًا له معنى يفشل ويأتي دور غيره، أي يقول كلامًا مثل: النهر يزحف على أربع أرجل والبحر نزل من السماء، الكرسي يذهب إلى السوق ويشتري الورد، بمعنى كلام سريالي.

وبرغم شرح «غسان» للحاضرين عن فكرته، والحماسة التي قبولت بها الفكرة وضمن مناخ ضاحك، إلَّا أن الكثيرين فشلوا في أن يقولوا كلامًا فارغًا لا معنى له.

مع امتداد فترة إقامتنا بالكويت، تدرّجت في عملي حتى أصبحت رئيس قسم العلاقات الدولية في الدائرة التي أصبحت وزارة فيما بعد. كما تفاعلت كثيرًا في الكتابة في الصحف حيث عملت في جريدة «**الهدف**» وكتبت في «**الرسالة**» حتى عملت بشكل دائم في النهاية بجريدة «**أضواء المدينة**» التي كان يرأس تحريرها المرحوم «فجحان هلال المطيري». وفيها رحت أهتم من جديد بالقضايا الأدبية، وعبرها نشرت أولى القصص القصيرة التي بدأت أكتبها في الكويت وبمعدل قصة كل أسبوع تقريبًا، والتي نشر بعضها في المجموعة القصصية «السيد»، واستمرارًا لنفس التجربة اشتركت في مسابقة النادي القومي للقصة القصيرة ولكني لم أفز. حيث فازت قصة «كنفاني» طبعًا المسماة «القميص المسروق».

وخارج ناطق الصحافة رافقت نشأة المسرح الكويتي في أيامه الأولى، وذلك عبر علاقة الصداقة مع المرحوم «صقر الرشود» و«عبدالعزيز السريع»، حيث كان مسرح «الخليج العربي» وقتها بالقرب من بيتنا في «النقرة». وهي المسألة التي دفعتني للتردد كثيرًا على المسرح.

كان مسرح الخليج عبارة عن مجموعة أصدقاء مشتركين في أفكارهم وطموحاتهم، ولذلك كان مقرّهم الصغير الذي كان عبارة عن بيت قديم، بيتًا آخر لهم، ففيه يقضون معظم يومهم في العمل ضمن التقاليد القاسية التي وضعوها لكل أعضائه. فلقد كان على كل عضو يشترك معهم أن يقرأ كتابًا في المسرح أو الأدب قراءة جيدة حتى يستطيع مناقشة الأعضاء، الذين يقرؤونه أيضًا، ضمن ندوة مفتوحة كل أسبوع.

ولذلك نجحت التربية المسرحية التي تعلّمها أعضاء مسرح الخليج على يد الثنائي«الرشيد» و«السريع» في خلق مسرح متطور اشتهر به حتى الآن.

وعلاوة على الصحافة ومرافقة المسرح، شاركت في تقديم برنامج باسم «سوالف» في الإذاعة الكويتية، كان عبارة عن ذكريات لشخصيات كويتية معروفة.

طوال عشر سنوات كاملة في الكويت لم تتغير أبدًا، كانت الحضن الدافئ الذي سكنت حياتنا الجديدة فيه.

بعد الخروج من الكويت في أواخر عام 1966م. رحت أتنقّل بين قطر وأبوظبي ودبي لعدة أشهر حتى عدت في النهاية إلى البحرين في يناير/كانون الثاني 1967م. ومنذ رجوعي حتى عام

1969م. بقيت أعمل في إحدى الشركات الخاصة. وكنت خلال هذه الفترة أكتب بين وقت وآخر في جريدة «**الأضواء**» التي كان يرأس تحريرها المرحوم «المردي».

وفي بدايات عام 1969م تقدمت برخصة لإصدار مجلة، وبقيت أنتظر حتى حصلت على الترخيص، وأصدرت عندها «**صدى الأسبوع**» كان ذلك في 30 سبتمبر/أيلول 1969م.

هنا توقفت ذاكرة الصحفي المعروف «علي سيّار» عن التذكر، وهنا توقف شريط التسجيل عن الدوران. وهنا أراد «سيّار» أن يخلو بنفسه مع تلك الذكريات الغنية البعيدة لتجري في مصب نهر آخر. فالعمر طويل، والنهر لا يستطيع إلّا أن يجري مع الذاكرة(*).

(*) مذكرات سجلها الكاتب مع الصحافي علي سيار في صيف 1984م.

علي سيار

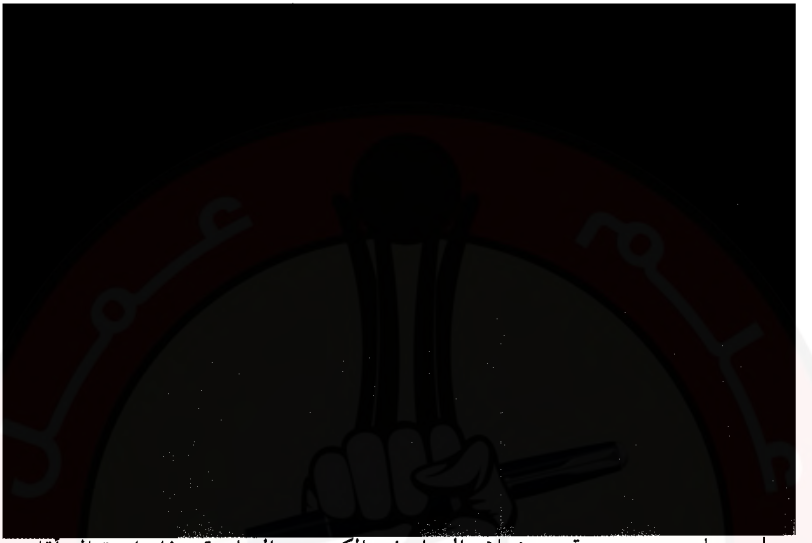

علي سيار مع مجموعة من زملاء العمل في الكويت والمناسبة حفل استقبال أقامه الشيخ عبدالله مبارك الصباح لأعضاء وفود مؤتمر الأدباء عام 1958

علي سيار مع طلبة البحرين في القاهرة

علي سيار مع طلبة البحرين في القاهرة

علي سيار تلميذ في مدرسة الاصلاح

ائتلاف شباب ثورة 14 فبراير
مركز لؤلؤة البحرين للدراسات والبحوث

الفنان يوسف قاسم
عمر من الذكريات والفنون

الفنان المعروف «يوسف قاسم» هو ابن المجتمع البحريني.

قبل خمسين عامًا، عاش كغيره من السكان حياة بسيطة تحت ظلال مليون نخلة. وعاصر هجرة الغوص وترك السفن واللآلئ البيض إلى جبل النفط والرمال السود وقرقعات الآلات. لكنه يتميّز عن الكثير من معاصري تلك الفترة بثراء التجربة وبالمشاركة في الكثير من أحداثها والأهم بسبق الاكتشاف الفني.

فـ «يوسف قاسم» من أوائل البحرينيين الذين عملوا في مستشفى (الإرسالية الأميركية) ببداياته الأولى. ومن أوائل الموسيقيين البحرينيين الذين عاصروا ظهور الموسيقى الحديثة. كما أنه أحد أهم المسرحيين الذين أسهموا في نشوء وازدهار المسرح البحريني. وهو إلى جانب ذلك أول فنان تشكيلي حديث في البحرين.

وتعدد مواهب الفنان «يوسف قاسم» وتميّزه يمكّنانه أكثر من غيره من رواية بعض ملامح الانقلاب الحياتي الكبير في البحرين، والتحدث عن تفاصيل المغامرة الفنية في المجتمع البسيط. والأهم من ذلك كله هو اكتشافه لذاكرته الفنية التي جعلتها آلة التسجيل الصغيرة تتدفّق عبر ساعات طويلة وتنسى أنها في خريف العمر.

اكتشف الطفل «يوسف قاسم» نفسه في بداية الثلاثينيات، وفي حي من أحياء المنامة الشعبية، فراح عندها يعي الحياة البسيطة في

البحرين ويرى كل الأشياء فيها كما تظهر بوضوح وبساطة وربما بسذاجة كما الحقيقة.

كانت نقاوة الطفولة ترسم في مخيلة الطفل في كل يوم عشرات اللوحات والصور المتداخلة بأحداثها والممزوجة ببراءتها وبساطة زمنها.

تشكلت الطفولة عندنا في بساطتها وسذاجتها ونقائها المشابه للبحر الذي نلعب بقربه. نصنع السفن الصغيرة ونطلقها في البحر تسافر فيه مثل الأحلام الساذجة. وفي «البرامج» نلعب الكرة و«التيلة» و«القلّينة» مع أطفال الحي.

ولأن الطرق لم تكن معبدة بالإسفلت فقد كان كل ما يقع تحت أيدينا أو بصرنا يصبح لعبتنا. كما كنا نذهب لصيد الطيور على الشاطئ أو في المقابر، ونصنع لعبة «الطرقاعة» من قلب النخلة.

في تلك الأيام كان في كل حي عين ماء. وفي حيّنا كانت توجد عين «بن حديد» حيث يأتي الأهالي ليستحموا فيها. وكانت الفتيات يحضرن إليها بأثوابهن المبللة حاملات «القلل» على رؤوسهن ينقلن الماء إلى بيوتهن، وبجانب ذلك كان «السقاية» يحملون المياه إلى البيوت فوق ظهور حميرهم ويخطون مقابل كل نقلة ماء خطًّا واضحًا على باب البيت لحساب نقلات الماء في نهاية كل أسبوع.

كانت بيوتنا من حصى البحر و«الجص» و«النورة» ملونة باللون الأبيض. أما النوافذ الزجاج فقد كانت مصبوغة بالألوان الحمر والصفر والخضر، وكان لكل بيت من هذه البيوت حوشه الواسع ونوافذه الكثيرة وبنمط بناء ملائم للبيئة التي لم تكن تستعمل الإسمنت آنذاك.

لم تكن الكهرباء موجودة في بيوتنا، فلقد كانت مقتصرة، كمحطة صغيرة، على إنارة بعض البيوت القليلة ودار المعتمد البريطاني وبعض الدوائر الحكومية فقط. ولذلك كان الأهالي يهربون من حرارة الصيف للاصطياف في منطقتي «عراد» و«القضيبية» المعروفتين في البحرين ببرودتهما النسبية.

أما بقية الأهالي يستخدمون مثل باقي دكاكين سوق المنامة، قطعة من القماش في طرفها لوح وهي معلقة في السقف ولها خيط في الوسط يحركها شخص ما وتقوم بالتهوية.

كان النساء في حيّنا يذهبن كلهن في كل يوم جمعة إلى عين «أبو زيدان» البعيدة مشيًا على الأقدام للاستحمام والغسيل. وهو اليوم الذي خصصته البلدية لهن في الصيف لمنع الاختلاط مع الرجال الذين يحضرون أيضًا للاستحمام.

أتذكر أول سيّارة شاهدناها كانت سيارة الشيخ عبداللّه بن عيسى. وكان «يوسف طه» يعمل سائقًا خاصًّا لهذه السيارة وكان يسكن في حيّنا نفسه ويحضر السيارة معه. كنا عندما يأتي بالسيارة نخرج من بيوتنا لمشاهدة هذه الآلة العجيبة والمدهشة تسير ونحن نشعر بالدهشة.

بعدها بفترة قصيرة ظهرت «البستات» (الباصات) وصار النساء يذهبن في «بست» كل جمعة إلى عين «أبو زيدان».

عندما أصبحت في الرابعة من عمري دخلت مع غيري من أطفال الحي إلى المدرسة الشهيرة آنذاك «المطوع». وبقيت في «المطوع» عدة أشهر حتى استطاع أخي «ختم» القرآن. كان كل طفل وقتها، يختم القرآن يعلقون سيفًا على خاصرته ويدورون به في أزقة الحي. وكان من المفروض أن يسير أخي في هذه الحفلة «العظيمة»

إلّا أنه رفض، لسبب لا أعرفه، وبدلًا منه لبست السيف والجبة المقصبة والعقال الأسود وسرت وسط تظاهرة طفولية تفيض بالفرح. وأطفال «المطوع» ينشدون طوال المسيرة:

الحمد للّه الذي هدانا.. آمين

للدين والإسلام واجتبانا.. آمين.

وفي نهاية التظاهرة تحلّقت مع أطفال «المطوع» في بيتنا على الغداء المعد خصيصًا لهذه المناسبة، وهكذا ختمت القرآن قبل أن أختمه فعليًّا، وفزت بتلك الحفلة الشهيرة التي كانت من حق أخي أصلًا.

في أواخر شهر سبتمبر/أيلول 1934م. أي بعد عدة شهور من «تخرّجي» من «المطوع»، قال لي والدي بأنني سأدخل المدرسة، ولذلك يجب عليَّ الاستعداد لها من الآن.

لا زلت أتذكر حتى الآن فرحتي الشديدة بدخول المدرسة، ففي ذلك الزمن كانت المدرسة شيئًا جديدًا في حياة الناس، والكثيرون منهم كانوا يعارضون وبشدة إدخال أطفالهم إلى المدارس النظامية الحديثة بسبب تعصّبهم الديني، واعتقادهم بأن أبناءهم لا يمكنهم دخول مدارس تدرَّس فيها قضايا إلحادية في نظرهم .كما أن مستوى وعي بعض الأهالي يجعلهم يعتقدون بأن الطفل ذا السادسة من عمره لا يمكن إدخاله إلى المدرسة، بل يجب تركه يكبر ويصبح شابًا ثم يدخل بعدها إلى المدرسة.

لكن انفتاح والدي النسبي ودخول الكثير من أبناء حيّنا «المنفتحين» بالنسبة لبقية الأحياء، ساعدني على دخول «المدرسة الجعفرية» (مدرسة أبو بكر الصديق حاليًّا).

وفي اليوم الأول من الدراسة ذهبت مع أبناء الحي إلى المدرسة في الصّباح الباكر. وفي الحال توجّهنا إلى غرفة المدير.

وكلها دقائق حتى دخلت على مدير المدرسة المصري الذي كان يلبس الطربوش والبدلة الأنيقة، وعندما جلست سألني عن اسمي واسم والدي واسم الحي الذي أسكن فيه، وأسئلة أخرى، كان يريد اختبار وعيي وإمكاناتي. وكان الشيء المهمّ الذي يريد المدير معرفته في هذه المقابلة هو التثبّت من عدم معارضة أهلي لدخولي المدرسة، فلقد حدث للمدرسة «الجعفرية» مع التلاميذ الذين يدرسون فيها دون موافقة أهاليهم، والذين كثيرًا ما يأتون إلى المدرسة ويسحبون أطفالهم منها والذهاب بهم إلى الغوص بحثًا عن اللؤلؤ، أو إلى أعمال أخرى.

في النهاية قُبلنا في المدرسة وبدأنا الدراسة المكثّفة المكوّنة من دروس التفسير والفقه وغيرها بالنسبة للدين، التاريخ الإسلامي يركّز على التاريخ العربي، وعلى أمجاد الدولتين العباسية والأموية وغيرهما. أيضًا ندرس «القراءة الرشيدة» في اللغة العربية، كما نتعلم حساب الطرح والجمع والقسمة والضرب إضافة إلى اللغة الإنجليزية. وكان المرحوم الأستاذ سالم العريض مدرّسًا ممتازًا للغة الإنكليزية. وكانت طريقته في التدريس تعتمد على الصناديق، فلديه «صندوق» صغير يسمّيه صندوق «الضمير» يفتح الصندوق فنجد أنه يحتوي على ضمائر: HE، SHE وغيرهما. وبالرغم من ذلك كان مشهورًا جدًّا في المدرسة بعصاه الغليظة المسماة «سمحانة» والتي يستخدمها لضرب الطلبة الكسالى.

في السنة الدراسية الثانية اشتركت لأول مرّة في حياتي في مسرحية «مجنون ليلى» التي قدمتها المدرسة. وكان ذلك يعني أيضًا مشاهدتي لأول مسرحية.

ومن أجل ديكور المسرحية أحضر الأساتذة السوريون في المدرسة ستائر المسرح من سوريا. وكان الديكور الذي أقيم للمسرحية من مناظر ورسوم وستائر غريبًا ومدهشًا وجميلاً بالنسبة لي.

كان دوري الصغير في المسرحية يتطلب مني إنشاد بعض الأشعار، وجاء اختياري بسبب صوتي الجميل في ذلك الوقت وقدرتي على ترتيل القرآن الكريم في المدرسة.

المهم أنني وقفت على المسرح وأنشدت:

«هذه الروضة كانت ملعبا لشبابنا وكانت مرتعا».

كما اشترك معي في المسرحة «أحمد الزياني» بدور هزلي، والطالب اليمني «أحمد العطّاس» في دور جاد. وكان «العطّاس» طالبًا ذكيًّا جدًّا رجع إلى بلاده فيما بعد وأصبح رئيس وزراء حضرموت قبل الثورة. لقد خرجت من المسرحية وفي ذهني العديد من الأسئلة، فكيف يمكن أن تكون النافذة مرسومة بشكل يصدق الناس أنها نافذة حقيقية.

قبل المسرحية كانت البيئة تفتح خيالي كطفل على الألوان والأشياء المجردة. ومع استمراري في المدرسة كان الأفق الفنّي يكبر ويكبر معي إلى أن يصل إلى أبعد حدوده وآفاقه.

وفي السّنَةِ الثالثة من دراستنا اشتركت في الفرقة الكشفية ورحت أمارس النشاط الكشفي في الرحلات وغيرها.

كما اشتركت في أول فرقة موسيقية في المدرسة التي أسّسها مدرّس فرقة الشرطة الموسيقية. كان المدرّس الإيراني يعلمنا الأصول الموسيقية المتمثلة في «فا صول .. لا سي» وغيرها.

لم يشترك في هذه الفرقة إلّا القليلون بسبب عدم النجاح في

الامتحان. كان معي «عبدالعزيز الخضر» و«عبداللّه الشروقي» وغيرهما، وكانت فرقة صغيرة تدرس الموسيقى بعد انتهاء الدراسة. وبعد فترة قليلة راحت الفرقة تشارك في الاحتفالات الرسمية والأعياد بمقطوعات موسيقية صغيرة. وكان دوري فيها هو العزف على آلة «السكسوفون» الصغيرة.

كانت المدارس حينها تقيم مهرجانات تضم جميع الأنشطة المدرسية والرياضية، وتقدم فيه بعض الألعاب البهلوانية مثل «أبراج من التلاميذ» وهي عبارة عن أربعة من التلاميذ ثم فوقهم ثلاثة ثم اثنان ثم واحد. وكنت دائماً هذا الواحد بسبب صغر حجمي وخفة جسمي.

وفي إحدى المرات كان من المفترض أن ألقي بنفسي على الجهة اليمنى وكان المطلوب من زميلي أن يلقي بنفسه في الوقت نفسه من الجهة اليسرى. كان من المفروض أن ننتظر صفارات الأستاذ المتكونة من صفارة الاستعداد وصفارة شد القماش الذي نسقط فوقه، وصفارة لنرمي بأنفسنا فوق القماش. ولما كنت صغير السن ومتحفزًا فقد رميت نفسي من أول صفارة. وعندما رأى زميلي ذلك رمى نفسه هو الآخر وكان سمينًا بشكل غير طبيعي، ولذلك نقل على حمالة في الحال. أما أنا فجاءني الأستاذ وأمسكني من أذني أمام الناس والضيوف. وكان من المفروض أن ألقي خطابًا قد حفظته أمام حاكم البلاد آنذاك الشيخ حمد. ومن ثم أخذت نسخة من الخطاب مربوطة بخيط من الحرير من عند الأستاذ وسلّمتها إلى الشيخ وأدّيتُ له التحية. كنت أركض في هذه العملية وأنا أعرج ـ من سقطتي ـ والناس تضحك عليّ.

وبرغم احتفالنا الطفولي في المدرسة ومناخها الجميل الذي غيّر

كثيرًا من بساطة حياتنا، إلّا أنها كانت جزءًا ممن أخذ وقته في السنوات القليلة في المدرسة.

ففي السنوات الأخيرة بالمدرسة كان خيالي الطفولي يسابق نفسه في الاكتشاف والمغامرة. والاكتشاف والمغامرة في مناخ هذه الحياة البسيطة لا تعني في بداياتها على الأقل سوى التغيير.

اقتنع الطفل «يوسف قاسم» مع انقضاء السنوات الدراسية في «المدرسة الجعفرية» بأهمية اكتشاف الحياة منذ تلك الفترة المبكرة من عمره. فعندما وصل إلى السنة النهائية في مدرسته وجد في الإجازة الصيفية الفرصة للبحث عن عمل وتحقيق الذات في شيء ما.

ولذلك خرج مع أحد أصدقائه في صيف عام 1937م. إلى مكان العمل المشهور في البلاد آنذاك شركة النفط «بابكو» ليحاول العمل، لكنه رفض مع صديقه عرضها المتمثّل في اشتغالهما كخدم في البيوت الأميركية في «عوالي».

لم ينقضِ وقت طويل من التفكير والبحث عن مكان جديد للعمل حتى سمع الصديقان بأن مستشفى الإرسالية الأميركية يطلب موظفين يجيدون اللغة الإنكليزية.

ساعدتنا اللغة الإنكليزية التي كنا نتقنها جيدًا في التقدم لامتحان المستشفى الأميركي. لكن إجادة اللغة لم تكن بالمستوى نفسه المطلوب من جانب إدارة المستشفى. وهكذا واجهنا امتحانًا صعبًا نجحت فيه بينما فشل صديقي.

وبعد يومين أصبحت موظفًا في المستشفى براتب قدره نحو 18 روبية، وانضممت إلى بقية الموظفين البحرينيين أمثال: برهان الدين فروغي، وعبدالنبي وعبدالحسين سبكار وخليل ترابي وغيرهم.

كان الوضع الطبي في البحرين في ذلك الوقت سيئًا جدًّا. فعلاوة على انتشار الكثير من الأمراض والأوبئة كان الناس يرفضون الذهاب إلى المستشفى بسبب «مسيحية» الأطباء وفي كونهم «مبشرين»، ولذلك اعتمدوا لفترة طويلة على الطب الشعبي بأشكاله المختلفة.

وإلى جانب هذا الوضع كان مستشفى الإرسالية الأميركية هو المستشفى الوحيد في البحرين. وكان المستشفى الهادف أساسًا للتبشير لا يحتوي إلَّا على 20 سريرًا. وبالرغم من كل شيء فلقد أراحني العمل في المستشفى ووجدت فيه العمل الإنساني النبيل.

كان هدف إدارة المستشفى هو تدريبي على كل الأقسام فيه ولذلك عملت في الصيدلية وقسم الأشعة وكممرض، وفي بعض الأحيان «طبيب» أيضًا. وعندما انتهى شهرا الإجازة الصيفية أخبرت الإدارة عن رغبتي في الخروج وإكمال دراستي في المدرسة، لكنني فوجئت برفض هذه الرغبة على أساس أن عملي في المستشفى أفضل لي ولمستقبلي. إضافة إلى عرضهم عليَّ الدراسة في المستشفى نفسه والاستفادة من الدورات التي تقام للموظفين البحرينيين لدراسة علم التشريح والأدوية وكيفية استخدامها واستخراجها. لم أعرف عندها كيف وجدت نفسي موافقًا على الاستمرار في عملي بالمستشفى وترك «المدرسة الجعفرية» نهائيًا. كان وضع المستشفى وتقسيمه يشبه التقسيم الطبقي لأي مجتمع في العالم.

فالمستشفى يحتوي على قسمين: الطابق العلوي والمسمى «البنقلوا» كان مخصصًا للأوروبيين والأميركيين والأغنياء من البحرين والخليج. والطابق الأرضي الذي كان عبارة عن «برستيه» مخصص للفقراء الذين لا يستطيعون تسديد مبالغ العلاج، والفقراء المعدمين الذين لا أصل لهم أو لا أحد يهتم بهم.

وكان الطبيبان الأميركيان «هيرسن» و«ستورن» بالإضافة إلى الطبيب الهندي «كندي» هم الأطباء الوحيدون في المستشفى والذين يعملون على حوالي 20 سريرًا موزعًا ما بين «البنقلوا» و«البرستيه».

وفي وضع مثل البحرين لم تكن هناك إمكانية لوجود مستشفى وحيد بها «للبذخ».

فالإبر كنا نستعملها عشرات المرات بعد تطهيرها في كل مرة نستخدمها ولا ترمى إلَّا إذا انكسرت. والقضية نفسها تحدث بالنسبة للأربطة فبعدما يربط المريض وتنتفي حاجته للرباط يعاد استخدامه، بعد غسله وتعقيمه، مرة أخرى ولعشرات المرات حتى يبلى، والنظام نفسه يحدث بالنسبة للقطن الذي كان وجوده شحيحًا جدًّا.

وعلى صعيد الأدوية، كان المستشفى يعتمد في غالبية أدويته على نفسه عبر تصنيعها وتركيب بعضها في أحيان كثيرة.

فـ «الأوبيون» الذي هو «الترياق» يُسلّم إلى المستشفى بكميات كبيرة. وكنا نصنعه كمحلول يستعمل كدواء للسعال وغيره.

أيضًا كان يستخدم دهن زيت يشبه «الكافور» وله رائحة قوية ويصنع في المستشفى كدواء ناجح ضد الزكام، علاوة على مراهم الجروح التي تصنع من «الفازلين» المخلوط مع البودرة.

في مقابل هذا الوضع كان د. «هيرسن» ود. «ستورن» يخترعان كل الوسائل في مواجهة الإمكانات المتواضعة للمستشفى.

فيشتري المستشفى ثورًا سمينًا وبصحة جيدة وتجرى له عملية جراحية كاملة في حديقة المستشفى، حيث يفتح بطنه بعد تخديره ويؤخذ من «مصارينه» «كتربج» يقص بعد انتهاء العملية على شكل

مربعات ويصنع منه دواء يسمى «نلداهايت» ويستخدم كنوع من الرقعة لخياطة جرح المريض.

لم تقتصر هذه التجارب والاختراعات على الأدوية والحيوانات فقط بل امتدت لتصل إلى المرضى أيضًا. وإلى تطبيق اختراعات د. «هيرسن » على مرضى المستشفى أنفسهم. ففي بعض الأحيان يستخدم الأطباء الأميركيون المرضى الفقراء في «البرستيه» بأجسادهم الضعيفة ليجربوا أدويتهم المكتشفة الجديدة عليهم، وكانوا يعتقدون بأن ذلك فرصة ثمينة لا تعوّض. فهؤلاء المرضى لا يعرفون أصلًا ما هي هذه الأدوية ولا خطورتها، كما أن موتهم لن يشكل شيئًا مهمًّا، فلا أحد يسأل عنهم من أهل أو أصدقاء. وبسبب هذه التجارب مات البعض دون اهتمام من أحد.

وبالرغم من كل الصعوبات و«التجارب» في مستشفى الإرسالية إلّا أن المشكلة الكبيرة التي ظل يعاني منها لسنوات طويلة لم تخرج عن دائرة عدم إقبال الأهالي على العلاج فيه. وعدم اقتناعهم التام بأهمية العلاج ودور المستشفى. فكان غالبية المرضى حينها يأتون من سواحل إيران وبأعداد كبيرة وبأمراض غريبة جدًّا لم تكن مألوفة في البحرين آنذاك كالملاريا والتيفوئيد و«البواسير» وغيرها.

وإضافة إلى الإيرانيين كان قسم «البنقلوا» منتعشًا بوجود الكثيرين من أغنياء السعودية وقطر والكويت، مع مجموعة قليلة من البحرين.

ولا يفسّر اقتصار عمل المستشفى على هذه الفئات من المرضى التي تأتي دائماً من خارج البحرين إلّا بالدور الكبير الذي كان يلعبه المستشفى في عملية التبشير.

فبالرغم من الفشل الكبير الذي لقيه المبشّرون بقيادة زعيمهم المشهور «زويمر» بالبحرين في الصراع الذي دار بينهم، في أوائل القرن العشرين، وبين الكثيرين من المثقفين ورجال الدين والأهالي. إلّا أن عمليات التبشير المستترة بعباءة الطب لم تتوقّف بالرغم من قلّتها.

فلا زلت أتذكّر كيف كنا نذهب كبعثة طبية من المستشفى إلى إحدى المدن في أواخر الثلاثينيات.

كانت المجموعة مكونة من قسٍّ للتبشير وطبيب وموظّف بحريني حيث كانت إدارة المستشفى تفرض على الموظفين البحرينيين ضرورة الذهاب مع البعثة مرة في الأسبوع.

وحين تصل البعثة إلى المدينة تتخذ لها مقرًّا صغيرًا في وسط السوق، ويبدأ عملها بتوزيع الأدوية البسيطة كـ «البنادول» وغيره لمن يحتاجها من الزوار القليلين. وبالرغم من كل المحاولات في جذب أهالي المدينة ابتداء بالمناداة في أهم شوارعها والإعلان عن وصول البعثة، إلى المغريات الأخرى المتمثلة في توزيع الدواء المجاني والعلاج المجاني، إلّا أن أحدًا لا يحضر.

في نهاية اليوم تضطرّ البعثة إلى الاكتفاء بالعدد القليل جدًّا من الحضور الذين يأتون فقط للفرجة والضحك وتمضية الوقت. ويبدأ القس بتلاوة بعض مقاطع من الإنجيل الموزع على الجميع مجانًا أيضًا.

وبسبب هذا النشاط التبشيري الواضح واعتماد غالبية الأهالي على الطب الشعبي بقيت «معاناة» المستشفى من المرضى الذين لا يأتون.

ومن أجل ذلك راح د. «هيرسن» ود. «ستورن» يفتشان عن الأهالي ويذهبان إليهم ويحاولان إقناعهم.

فعندما يجد د. «هيرسن» نفسه بلا عمل في المستشفى يذهب إلى «سوق الخضرة» ويبحث عن مرضى. وهناك يتجول «هيرسن» بثيابه البيض المعروفة ويتحدث بلغته العربية المتواضعة مع الباعة والمشترين ويسألهم عن صحتهم وأحوالهم. ويحدث كثيرًا أن يوقع بائع بصديقه المصاب بالملاريا مثلاً ويخبر «هيرسن» عنه، وهنا يذهب «هيرسن» في الحال إلى المريض ويبدأ محاولة إقناع المريض بضرورة العلاج وبخطورته على صحته وعن احتمالات موته إذا تركه دون علاج.

وعندما ينجح «هيرسن» في إقناع «مريض سوق الخضرة» في الذهاب إلى المستشفى، يصل إلينا وهو مملوء بالفرح من جراء هذا «الصيد الثمين».

كما كان د. «هيرسن» أيضًا يذهب كل أربعاء إلى «سوق الأربعاء» لـ «اصطياد مرضاه» وجلبهم إلى المستشفى.

وعلى الرغم من قدرات «هيرسن» و«ستورن» الطبية وتجاربهما التي لا تنتهي، بجانب رفضهما للطب الشعبي المنتشر بين أهالي البحرين إلَّا أن هوس د. «ستورن» الشديد بمرضى «الصفراء» راح يغيّر بعض أفكارهم.

ففي إحدى المرات أُصيب «ستورن» بمرض الصفراء وجرب أطباء المستشفى جميع الوسائل والأدوية لشفائه فلم تنجح. وبقي المرض يزداد في جسمه وطالت مدة إعيائه.

وعندما ساءت حالته بشكل يرثى لها اقترح أحد الموظفين

البحرينيين عليه أن يحضر له أحد الأطباء الشعبيين البحرينيين فربما يشفى من مرضه.

رفض «ستورن» طبعًا الاقتراح، فهو طبيب ولا يمكن بالتالي أن يسلم جسده إلى رجل لا يفهم في الطب شيئًا.

بعد أيام تغيّر الموقف تمامًا، فصحة «ستورن» في تدهور مستمر حتى أشرف على الموت. كما أن محاولات الإقناع معه بدأت تنجح. وعندها لم يجد «ستورن» سوى الموافقة كي ينقذ حياته.

حضر الطبيب الشعبي، وبعد أن «كشف» على جسمه أمرنا بإحضار قطعة من شجرة «القرم»، التي تأكلها الحمير، والموجودة بالقرب من عين عذارى، وفي خلال ساعات أحضرنا «القرم». في الحال قام بطحنه وطبخه على النار حتى أصبح جاهزًا للشرب. بعدها قام بوضعه في ثلاث زجاجات كبيرة وأخبر «ستورن» بضرورة شرب كأس واحدة في الصباح وكأس ثانية في الظهر وثالثة في الليل. وهنا رفض «ستورن» الامتثال لـ «أوامر الطبيب الشعبي» باعتبار أن هذا الشراب مر بشكل لا يطاق.

قدّر الطبيب الشعبي موقف «ستورن» كطبيب وصحّته المتدهورة فقال له: هذه نصيحتي. اشرب من هذا الدواء لتشفى. وأنهى كلامه وخرج.

وبعد محاولات عدة راح «ستورن» يتبع تعليمات الطبيب الشعبي في شرب كؤوس الدواء. ولم ينته يومنا بعد استعمال الدواء الشعبي حتى تحسنت صحته بشكل ملحوظ. وبعد أيام عدة شفي تمامًا.

بعد شفاء د. ستورن التام وجد أطباء المستشفى أن إمكانية استخدام الكثير من الأدوية الشعبية المنتشرة في البحرين مسألة ليست ممكنة فقط بل وضرورية في بعض الأحيان.

ففي تلك الفترة كان العلاج بالكي منتشرًا بكثرة في البحرين وكان الأطباء الشعبيون يعالجون به الكثير من أمراض مرضاهم.

استفاد أطباء المستشفى كثيرًا من العلاج بالكي الشعبي وراحوا يستخدمونه مع مرضى المستشفى في الحالات التي تتطلب ذلك وبعد تطويره وتحسين سبل استخدامه.

كما استفاد الأطباء وخاصة د.هيرسن من عملية صنع الأدوية الشعبية. فعندما انتشر مرض الملاريا بكثرة في البحرين وزاد عدد المرضى داخل وخارج المستشفى وجد «هيرسن» إمكان صنع دواء يسمى «الكويين» يحضر من شجرة «الكينا» ونجح هذا الدواء فعلًا وشفي الكثير من المرضى.

كبر التلميذ يوسف قاسم وكبرت معه أحلامه وطموحاته وتنامت خيالاته. فمع السنة الأولى من الحرب العالمية الثانية تدرج من الموظف البسيط إلى الرجل الذي يعتمد عليه كثيرًا في مستشفى الإرسالية الأميركية، وارتفع راتبه إلى 60 روبية. وأصبح خلال هذه السنوات القليلة يقرأ في كتب الطب وينجح في امتحان علم التشريح بتفوّق. بل ويتمكن من كتابة المقالات الخاصة ببعض الأمراض المنتشرة في البلاد وتنشرها «**جريدة البحرين**» الجديدة آنذاك. لكن النجاح في مجال المستشفى لا يوقف طموحاته الفنية بل يفتح طرق مجالات اكتشافها والمغامرة بتحملها.

مع استمرار عملي في المستشفى بدأنا نذهب في بعثات طبية برئاسة د. «هيرسن» إلى خارج البحرين وإلى منطقة الأحساء بالسعودية على وجه الخصوص.

كانت هذه البعثات الطبية التي ترسل إلى الأحساء جزءًا من

الخدمات الطبية للمستشفى الأميركي وتستغرق مدة الابتعاث نحو شهر واحد وبمعدل بعثتين أو ثلاث في السنة الواحدة.

كنا نستقل السفن الصغيرة من «فرضة» المنامة إلى الأحساء وهناك نستقلُّ سيارة «الجيب» المخصصة لنا. وعند وصولنا نختار منطقة متوسطة بين مدن وقرى المنطقة ونقيم عليها المستشفى الميداني المكون من خيام كبيرة وصغيرة. وفي بعض الأحيان تستأجر البعثة بيتًا قديمًا وتحوله إلى مستشفى.

وبعكس البحرين يأتي أهالي الأحساء بكثرة إلى المستشفى طلبًا للعلاج ويستقبل منهم العشرات يوميًّا. وربما ترجع الأسباب إلى كون البعثة لا تمارس مهمات تبشيرية كما في البحرين. إضافة إلى حاجة الأهالي للعلاج المجّاني وبسبب انتشار الكثير من الأمراض والأوبئة.

وبسبب كثرة المرضى الذين يحتاجون إلى عمليات نقوم بتخصيص إحدى غرف البيت أو ننصب خيمة كبيرة خاصة للعمليات. ولعدم توافر الكهرباء نضطر للعمل على (الفنر).

وبالرغم من الظروف القاسية التي كنا نعيشها، والجو غير الصحي إلَّا أن الكثير من العمليات كان يحالفها النجاح. مع أن أكثر العمليات التي تجرى كانت للمصابين بأمراض العيون المنتشرة بكثرة في الأحساء.

خلال شهر كامل من العمل المتواصل في الليل والنهار، ومداواة المرضى الذين لا ينتهون وفي ظروف قاسية جدًّا، لم نكن نشعر إلَّا بالسعادة والفرح في تقديم هذا العمل الإنساني وفي شفاء الأهالي الذين كانوا لا يدعوننا نرجع إلى البحرين إلَّا ونحن محملين

بالكثير من هداياهم الثمينة المتمثلة في السيوف والذهب والنقود. لكن أكثر الفترات التي شعرت فيها بقيمة هذا العمل الإنساني هي فترة اكتشاف «البنسلين».

فلقد أحدث اكتشاف «البنيسيلين» في العام 1928 صدًى كبيرًا وآمالًا كثيرة لدى العشرات من المرضى. وكانت ضجة «البنيسيلين» في البحرين تشبه كثيرًا الوصول إلى القمر في الستينيات. واعتقد الناس بأن «البنيسيلين» سيشفي جميع أمراضهم، ولن يموت أحد منهم بسببه. وعندما وصل هذا «الاكتشاف العظيم» إلى المستشفى وبدأ الأطباء في استخدامه لعلاج المرضى فهم الناس سحر هذا الدواء وأتوا إلى المستشفى بالعشرات، وهم يدعون لمخترعه بطول العمر.

لكن مشكلة «البنيسيلين» تركزت في ارتفاع سعره، فالمريض يجب أن يدفع مبلغًا هائلًا آنذاك من المال يساوي مائة روبية وفي بعض الأحيان مائة وخمسين روبية مقابل حصوله على إبرة «بنيسيلين». ولذلك لم تستطع الغالبية الانتفاع من اكتشافه وبقي مقصورًا على الأغنياء ومن نعطيهم من أصدقائنا العزيزين جدًّا فقط.

لم يكن مستشفى الإرسالية يأخذ وقتي كله. ولذلك كنت أمارس هواية كرة القدم مع بعض الأصدقاء في المحرّق ضمن فرقة أطلقنا عليها اسم «الفرقة الوردية»، ولا أعرف حتى الآن سبب هذه التسمية الغريبة بالنسبة لفريق كرة قدم.

وفي تلك الأيام كان الموسيقي «جاسم العمران» يحضر لمشاهدة مباريات الفرقة. وفي إحدى المرات دعاني إلى بيته وخلال انتظاري له سمعت صوتًا جميلًا ينبعث من أوتار موسيقية ولم يكن هذا الصوت سوى العود. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها العود.

كان مجلس «جاسم العمران» يضم مجموعة من المطربين وعشاق الفن الذين لا يجدون مكانًا للتعبير عن هوايتهم وعشقهم، في وقت كان الغناء فيه ممنوعًا، وكان «العمران» الذي درس مبادئ الموسيقى على يد الموسيقيَّين العراقيَّين المعروفَين «جميل بشير» و«منير بشير» يؤلف مجموعة فنية متكاملة مع عدد من الهواة مثل: خليفة مطر صاحب الصوت الجميل وقارئ القرآن في بعض المناسبات الرسمية.

المهم أنني عندما سمعت صوت العود طلبت من العمران في الحال أن يعلّمني أصول العزف. وافق العمران وصرت أدرس عنده لمدة ساعتين كل يوم جمعة. لم ينته شهر واحد حتى أصبحت قادرًا على عزف «بشارف» و«سماعيات» و«اللونجة» وغيرها من المقطوعات الموسيقية. ومع مضي الوقت أصبحت فرقتنا تتكون من العمران الذي يعزف الكمنجة، ومطر الذي يغني أغاني أم كلثوم وأنا كعازف عود.

مع استمرار هذه الفرقة الصغيرة استطعنا الخروج من مجلس «العمران» الصغير إلى قاعات الأندية الكبيرة. رحنا نعزف لهم العديد من المقطوعات الموسيقية وكثيرًا ما شاركنا في المسرحيات. حيث تفتح الستارة علينا ما بين الفصول ونعزف للجمهور بعض المقطوعات.

ومع تطور اهتمامي الموسيقي واستمرار الجلسات الفنية راح العود يعزف أوتارًا جديدة في الطموح والتجربة.

قادتني هذه الأوتار في أحد الأيام إلى إذاعة البحرين. وهي أول إذاعة في البحرين أقامتها السلطة الإنكليزية في أيام الحرب العالمية الثانية لخدمة أغراضهم الدعائية ضد الألمان.

ذهبت إلى مكتب الإذاعة الواقع في بناية باب البحرين وقابلت مديرًا لبنانيًّا هو «جورج طليا».

في بداية المقابلة سألني: ماذا تعرف في الموسيقى؟ فقلت له: أي شيء تريد أن أقوم به. قال: هل تستطيع العزف مثلًا. هنا أخذت عودي الذي أحضرته معي وعزفت له «النهوند».

في هذه الأثناء كنت أرى علامات الاستغراب تبدو على وجه المدير الذي يرى الأصابع الصغيرة لشاب لم يتجاوز عمره السابعة عشرة وهو يعزف هذه المقطوعة.

عندما انتهيت من العزف طلب مني الغناء فغنيت إحدى أغاني أم كلثوم. وفي النهاية أخبرني أنه يمكنني العزف في الإذاعة. أما بالنسبة للصوت فقال لي بأن صوتي لا يصلح بسبب «أدائه الطفولي».

بعد أيام قليلة بدأت العمل في الإذاعة التي كانت عبارة عن «كشك» صغير مكون من غرفتين بالحورة، وكانت أول الأعمال التي قمنا بها، مع الفرقة الصغيرة التي شكلتها من «سلمان الصباغ» و«أحمد ياسين» و«جاسم زباري»، هي المونولوجات التي تركّزت وتخصّصت في الهجوم على هتلر الفاشي والنازية مثل: «هتلر .. هتلر يا الملعون» وغيرها.

مع استمرار عملنا في الإذاعة قمنا بأداء الكثير من الأغاني التي يؤلفها «زباري» ورحنا نغني: «ما أحلى أيام الربيع.. يا ما أحلى لياليها» وقمنا في الفترة ذاتها أيضاً بأداء المونولوجات المشبّعة بالنقد الاجتماعي والتي تركّز معظمها على العادات والتقاليد البالية والزواج وتخلف المرأة وغيرها.

بالرغم من كل هذه الأعمال في الإذاعة والاعجاب الذي

حصلنا عليه من الناس إلَّا أننا لم نسمع صوتنا مطلقًا. وكان ذلك بسبب إمكانات الإذاعة المتواضعة جدًّا، حيث كانت كل برامجها والحفلات الغنائية تبثّ مباشرة، وساعد عدم وجود أجهزة تسجيل حينها على ذلك. ومع الإعجاب الكبير الذي حصلنا عليه وافق «طليا» مدير الإذاعة على أن أغني بصوتي ضمن يوم مخصص.

كان برنامج «الحفلة الغنائية» الذي يذاع يوميًّا على الهواء مباشرة مقسمًا على أبرز مطربي البحرين آنذاك. ولذلك خصص البرنامج يومًا لمحمد زويد ويومًا لمحمد بن فارس ويومًا لي وهكذا. كما أن البرنامج كان يخصص في بعض الأحيان أيامًا لأشعار الشاعر إبراهيم العريض ويومًا آخر للشاعر عبدالرحمن المعاودة.

كانت الإذاعة في ذلك الوقت تحقق بعض الطموح. كما استطاعت الأنشطة المتنوعة فيها إثارة إعجاب الناس بنا بالرغم من أن مردودها المادي لم يكن سوى عشرين روبية للحفلة الغنائية الطويلة.

لم تكن الموسيقى وأوتار العود والغناء في «كشك» الإذاعة بالضرورة هي كل الطموحات. فقبل هذه الفترة بدأت الرسم والألوان ودخلت عالمًا غريبًا ليس مألوفًا تمامًا في بلد كالبحرين لا يعرف الفن التشكيلي سوى الحِرَفِ اليدوية وزخارف البيوت وغيرها.

وبدأت الحكاية في صباح يوم جمعة حين لم يكن أحد موجودًا في البيت بسبب ذهاب والدتي مع إخوتي كالعادة إلى عين «أبو زيد».

في ذلك الصباح وجدت أن بيت جيراننا يعملون على ترميمه. وعندما رأيت معهم «الجص» وجدت الفرصة لصنع تمثال. وبسرعة سرقت كمية من الجص وجلست في فناء البيت وطوال النهار رحت أصنع تمثال امرأة عارية وتضع رجلًا على رجل. صنعت التمثال

بحجم الإنسان العادي تقريبًا. وفي لحظة وضع اللمسات الأخيرة على التمثال مع الغروب دخلت والدتي فجأة البيت وشاهدت التمثال. وحالما رأت التمثال صرخت في وجهي: ما هذا؟ فقلت لها بأنه تمثال من «جص» لا أقل ولا أكثر. كما أنه ليس حقيقة، لم تستمع إلى كلامي طبعًا فراحت وبغضب شديد تكسّر التمثال وتوبخني على هذا العمل «المشين» وتتوعدني بأن لا أعود إلى صنع هذه الأشياء الخبيثة مرة أخرى.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أصنع فيها تمثالًا. وبالرغم من تكسير التمثال وحزني عليه إلّا أنني لم أصب بالإحباط على الإطلاق. فمع مضي الوقت صرت أمسك أي ورقة تقع تحت يدي و«أخربش» عليها رسم الأشجار والبيوت والحي. وتطورت «الخربشة» إلى الذهاب إلى العيون «كعذارى» و«أم شعوم» وغيرهما والجلوس بقربها والاستغراق في رسم الأشجار وكل ما تحتويه الطبيعة الجميلة من مناظر.

مع انقضاء أكثر من عامين على عملي في مستشفى الإرسالية الأميركية ازدادت خبرتي في جميع أقسام المستشفى التي عملت في معظمها. وكانت إدارة المستشفى تخطط لإعطائي الفرصة لتولي مسؤولية بعض الأقسام. وهكذا وجدت د. «هيرسن» في أحد الأيام يناديني وهو يبتسم، ذهبت إلى مكتبه وأنا لا أعرف الحكاية.

في لحظة وصولي قال في الحال: «ما رأيك يا يوسف في الدراسة بالهند؟» فأجبت بسرعة السؤال نفسه: «ولِمَ لا».

وكان لا بد من السفر.

قبل أن يحزم «يوسف قاسم» صندوقه الحديد الكبير استعدادًا للسفر، كانت مدافع الحرب العالمية الثانية قد بدأت تسمع بالرغم

من بعدها. وكان مناخ الحرب يفرض نفسه في أزقة المنامة وأحياء المحرق الشعبية في أشكال الخنادق والمتاريس الرملية. وبين يوم وآخر كانت أجهزة المذياع الكبيرة في المقاهي «تلعلع» بآخر أخبار الحرب. بينما تخصصت «**جريدة البحرين**» في نشر الإعلانات الحكومية الخاصة بـ«تقليل الأنوار» وتحويل مصابيح السيارات والبيوت إلى اللون الأزرق. وترافق مع هذا المناخ نظام البطاقة التموينية الذي عبر عن «أزمة اقتصادية» طاحنة.

قبل سفري ودعت أقاربي وأصدقائي ووضعت مبلغ 700 روبية، الذي أعطاني إياه المستشفى، في منديل صغير خبأته في جيبي. وصباح ذلك اليوم من العام 1943م. حملت الصندوق الحديد والعود واتجهت إلى ميناء المنامة.

أبحر المركب إلى مسقط المحطة الثالثة في رحلته إلى الهند، وطوال اليومين عشنا مع المسافرين الكويتيين في جو مرح. حيث كنا طوال الرحلة نغني على أنغام العود، والبعض يرقص. لكن وصولنا إلى مسقط غيّر كل شيء. فعند وصولنا إلى مينائها شاهدنا إحدى السفن الحربية الإنكليزية غارقة في البحر بعد أن ضربها الألمان. ولذلك كان على مركبنا الانتظار في مسقط لمدة يومين حتى تتجمع مجموعة كثيرة من السفن الذاهبة إلى الهند وتسير في البحر متقاربة مع بعضها البعض وتحرسها بارجة حربية إنكليزية. وبالفعل تجمع ما يقارب العشر سفن وسارت القافلة بحماية البارجة.

كنا طوال الرحلة نعيش في جو متوتّر امتزج بالخوف من حدوث اعتداءات ألمانية علينا في عرض البحر، ومما زاد هذا الجو هو قيام إدارة السفن بعمل غارات وهمية تريد أن تظهر مدى استعدادها عندما تحدث الغارات الحقيقية. خلال هذه الغارات

الوهمية كانوا يعلّموننا الاصطفاف بشكل منتظم على ظهر السفينة وكيفية ارتداء لباس النجاة في حالة الغرق. وعندما يتأكدون من استعدادنا يطلقون الصفارة معلنة انتهاء الغارة.

وبقينا طوال الرحلة على هذه الحال. غارات وهمية واستعداد حتى وصلنا بعد أيام وبسلام إلى الهند.

نزلنا في المحطة الأولى وهي ميناء كراتشي، حيث لم يكن تقسيم الهند قد حدث. وفي المدينة اشترينا بعض الاحتياجات وركبنا القطار مع الأصدقاء الكويتيين إلى بومباي. وبعد ثلاثة أيام من تعب المحطات الكثيرة والقطارات المختلفة والمناطق الطبيعية الجميلة وصلنا إلى بومباي. ومن هناك أكملت «الرحلة القطارية» إلى مدينة «مدراس». وطوال هذه الرحلة كنت ألاعب أوتار عودي متسليًا لقطع مسافة الطريق، وأُسمع الركاب الهنود أحلى أغاني عبدالوهاب وفريد الأطرش. وصلت إلى محطة مدراس في النهاية. وركبت في لحظة وصولي عربة تسمى «الركشة» وهي عبارة عن عربة صغيرة يجرها رجلان بأقصى سرعة لهما، أقلتني إلى الفندق.

لم أبقَ كثيرًا في المدينة فمكان دراستي هو «رانبيب» إحدى قرى مدراس.

في الصباح الباكر تأكدت من وجود نقودي في المنديل واستأجرت «البند» الذي يعتبر الوسيلة الوحيدة للمواصلات إلى القرية، والذي لم يكن سوى بقرة تحمل وراءها صندوقًا كبيرًا يجلس فيه الراكب ويجر «البند» سائق خاص. وبعد ساعات طويلة من السير في الغابات بمحاذاتها والإرهاق الشديد رأيت يافطة «كلية مستشفى الإرسالية الأميركية» أمامي.

كانت كلية الإرسالية عبارة عن مبنى دراسي يحتوي على

الفصول والمختبرات ومبنى آخر للسكن الداخلي. كان جميع طلاب الكلية هم من الهنود وأنا الطالب الأجنبي الوحيد.

بعد استقبالي ذهبت في صباح اليوم التالي إلى مديرة الكلية الأميركية وهناك حدثت مفاجأة لم أتوقعها مطلقًا، فقد قالت لي المديرة: إن أولى الإرشادات التي يجب اتباعها في الكلية هو أن تلبس مثل بقية الطلاب الهنود. أي تنزع البنطال والحذاء وتلبس «الوزار»، المرفوع إلى الركبة وأن تسير حافيًا بلا حذاء ولا نعال. وبالرغم من جميع محاولاتي في إقناع المديرة بعدم إمكانيتي تنفيذ هذه «الإرشادات» إلَّا أنها أصرت على تنفيذها كي يشعر جميع الطلاب بأنني طالب مثلهم ولست طبيبًا يرتدي بنطالًا وينتعل حذاء. وأمام هذا الإصرار لم أجد مفرًّا من لبس «الوزار» والمشي حافيًا. لكن بقيت مشكلة أخرى في الأكل، فوجبات السكن الداخلي المخصصة للهنود كانت حارة بشكل لا يصدق، ومملوءة بجميع أشكال البهارات وبجميع ألوان الفلفل الأخضر والأحمر والأزرق. ولذلك وجدت نفسي بعد أيام أضرب عن الطعام لعدم استطاعتي أكله، كي لا أصبح هنديًّا كاملًا يلبس«الوزار» ويأكل الفلفل. وفي خلال فترة بسيطة حُلت المشكلة بتناول طعامي مع الأطباء الأميركيين مقابل أن أدفع مبلغًا معينًا من المال.

وخارج إطار «المشكلات الهندية» انتظمت في الدراسة ورحت أتقاسم الحياة البسيطة في السكن الداخلي مع زملائي الهنود.

كانت الدراسة تبدأ في الساعة السادسة صباحًا وحتى الثالثة ظهرًا، مقتصرة على الدروس النظرية والتي وجدت فيها صعوبة كبيرة. بعد الثالثة تمتد فترة الغداء والراحة حتى الثامنة ليلًا حيث تبدأ الدروس العملية في المختبرات إلى الساعة العاشرة.

في هذه الساعة نذهب إلى غرفنا وتطفأ جميع أنوار الكلية للنوم. أما في غرفتي فتبدأ السهرة الغنائية لمدة ساعة واحدة على الأقل، كنا نحاول التنفيس عن هذا النظام الصارم في الكلية بالغناء بعد إطفاء الأنوار. فتمتلئ غرفتي بزملائي الهنود ويأخذ عزف العود مداه وتصفق الأيادي للأغاني العربية والهندية.

في يوم الأحد كنت أهرب مع زميلي الهندي من الكلية ونذهب إلى القرى القريبة في الليل ونشارك الأهالي هناك باحتفالاتهم وأعراسهم وفي بعض الأحيان نغني بمرافقة العود في حفلات الأندية الصغيرة. لكن هروبنا المستمر كل يوم أحد أثار غضب المديرة التي كانت تريدنا أن نذهب للصلاة في الكنيسة. وفي كل مرة كنت أفشل في إسقاط تهديداتها. فليس من الضروري مثلًا من وجهة نظرها أن أكون مسيحيًّا لأذهب إلى الكنيسة.

وبوصول د. «هيرسن» الطبيب في مستشفى الإرسالية في البحرين استطعت حل العديد من المشكلات مع المديرة.

ساعدني «هيرسن» في مسألة اللباس، حيث وافقت المديرة على استثنائي من الطلبة والسماح لي بلبس البنطال. أما الحذاء فجرى له حل وسط وهو أن أنتعل خفّين، ووافقت طبعًا. والذهاب إلى الكنيسة جرى استثنائي منها أيضًا.

مضت شهور الدراسة بجفافها وحياتها الصارمة التي لا يغيرها سوى أيام الآحاد. حيث الهروب المستمر والغناء في حفلات الهنود البسيطة واستماعهم لأول مرة لأغنية «افرح يا قلبي لك نصيب» وأغنية «غني لي شوي شوي.. غني لي وخذ عيني».

في الشهر التاسع تقريبًا انتهت الدورة الدراسية واقتربت الحرب

العالمية الثانية من الهند. ولم يكن أمامي سوى إرسال برقية إلى «هيرسن» في البحرين عن موعد حضوري.

حزمت صندوقي الحديد مرة أخرى الذي امتلأ هذه المرة بجلود النمور والأسود كهدايا من زملائي الهنود. ومن «مدراس» حتى وصولي إلى بومباي لم توقف صفارات القطارات عشرات الذكريات في الكلية، وصوت عودي وهو يعزف الألحان الحزينة.

في محطة «بومباي» كان في استقبالي صديقي البحريني «حسن كمال» حيث بقيت معه عدة أيام استعداداً للسفر إلى البحرين. وفي تلك الأيام كثرت لقاءاتي مع «عبيد اليماني» الذي كان موجوداً في الهند حينها. وقبل سفري بيوم واحد اقترح علي البقاء معه في الهند بعضًا من الوقت. ورغم ارتباطي بعملي بالمستشفى ومعرفتهم بموعد وصولي إلّا أنني وافقت. ولم أكن أطمح من هذه الموافقة إلّا إلى الخروج من حواجز كلية «رانبيب» واكتشاف قارة الهند.

في الأيام الأولى جرت العادة في كل ليلة مع «عبيد اليماني» أن نذهب إلى مجموعة من مهراجات الهند في قصورهم، ومع الوقت صرنا نقيم لهم الحفلات الغنائية الخاصة بعد توثيق معرفتنا بهم بسبب علاقات «اليماني» الواسعة. ومضت ليالي الهند والمهراجات يتسابقون علينا لنغني لهم أغاني أم كلثوم وفريد الأطرش ومحمد زويد في قصورهم.

صحيح أن حلاوة الحفلات الغنائية في قصور المهراجات مع مضي الزمن أسقطت حسابات الكثير من الطموحات الأخرى، إلّا أنها كانت لبعض الوقت فقط.

فبعد نحو شهر واحد من بقائي في بومباي أخبرت «اليماني»،

برغبتي في دراسة الديكور المسرحي. ولأن المسألة لم تكن صعبة بالنسبة لـ «اليماني». ذهبت معه في صباح اليوم التالي إلى أكبر استديو سينمائي في الهند. وبكل بساطة دخلت معه إلى مكتب المدير وأخبره أنني شاب بحريني يريد تعلم الديكور معكم في الورشة. وبالأسلوب البسيط نفسه أجاب المدير: ليبدأ العمل في الغد. وفي الغد حتى شهرين كاملين رحت أتعلّم وأنظر وأشارك مع الفنانين والعمال الهنود ديكورات السينما والخدع السينمائية أيضًا.

في الصباح الباكر أخرج من البيت وأبقى تحت المطر والرياح بانتظار فتح الاستديو. وأتعلم كيف تصنع الشجرة وكيف يمكن تقطيعها على الخشبة. وأتقنت كيف يمكن إقامة قصر كامل وكيف أصنع بحرًا على المسرح، ومن دون معلم أو كتب أيضًا.

وعندما انتهى الشهران في الاستديو والثلاثة أشهر الكاملة في بومباي كانت الأخبار قد انقطعت عن البحرين وازداد قلق أهلي عليّ، فلم أجد مفرًّا من العودة.

كان لا بد من البحرين وإن طال السفر في الهند.

رجع الشاب «يوسف قاسم» من الهند ولديه حصيلة 9 شهور دراسية في كلية الإرسالية الأميركية وشهران دراسة ديكور في بومباي. ومع الصندوق الحديد ذاته المملوء بالتحف وجلود النمور الهندية، إضافة إلى العود الذي أطرب أهل قرى مدراس ومهراجات بومباي.

وعلى ظهر المركب الكبير المزدحم بعشرات البحرينيين الراجعين من رحلاتهم التجارية والعلاجية جلست أرتب ما سأقوله لإدارة المستشفى وأهلي في البحرين بسبب هذا الاختفاء.

انتهى غضب وقلق أهلي بوصولي ولكن غضب إدارة مستشفى الإرسالية لم ينته، فلم أحصل على أية ترقية بعد دراستي وبقي راتبي (90 روبية) دون تغير.

في الحقيقة فإنني لم أهتم كثيرًا بذلك. فقد كنت مشغولًا بما هو أهم. كنت مشغولًا بالمسرح.

لقد عبّرت فترة رجوعي من الهند في منتصف الأربعينيات عن فترة ازدهار حقيقة للمسرح البحريني والذي لم تمض على بدايته سوى عشرين عامًا. وعبر عضويتي في النادي الأهلي أسهمت في كل المسرحيات التي قدمها في الأربعينيات. وكانت المسرحية الاجتماعية «لولا المحامي» للكاتب اللبناني سعيد تقي الدين هي أول مسرحية أقوم بتنفيذ ديكورها عام 1942م. وقبل ذهابي للهند.

شكلت دراستي في بومباي اهتمامًا راح يكبر بالمسرح. وهكذا وجدت نفسي أصنع ديكور مسرحية «دموع» عام 1944م. ومسرحية «الهادي» عام 1945م.

التجربة الأكثر تميزًا في صنع الديكور المسرحي بحسب رأي الكثيرين كانت عام 1947م وفي مسرحية «عبدالرحمن الناصر» أعدها وأخرجها «محمود المردي».

كانت أحداث هذه المسرحية تجري في الأندلس وكان المفروض أن تظهر فيها قصور الأندلس. ولذلك قمت بصناعة تماثيل من جبس لإبراز منظر قصر الحمراء، وأسود يخرج الماء من أفواهها على خشبة المسرح، ولأن المياه لم تكن مجرورة إلى المنازل في ذلك العام، وجدت أن أفضل طريقة هو إدخال أنابيب للأسود وتكليف مجموعة من السقائين بجلب الماء من العين البعيدة وصبه

في خزان فوق المسرح لينزل في الأنابيب ويخرج من أفواه الأسود، وهذا ما حدث فعلًا.

وبالرغم من ازدهار الحركة المسرحية في تلك الفترة إلّا أن تواضع إمكاناته يعبّر عن بساطة الحياة في البحرين وفي كونه لا يزال مسرحًا ناشئًا. ففي مسرح النادي الأهلي كانت حكاية إقامة مسرحية جديدة تبدأ من إعلان صغير يلصق على لوحة الإعلانات يكتب فيه دعوة لأعضاء النادي للمشاركة في تمثيل «الرواية التمثيلية» ويكتب اسمها واسم مؤلفها أو معدّها والذي غالبًا ما يكون «محمود المردي» الموهبة البارعة في الإخراج والإعداد المسرحي. وبعد معرفة المشتركين في المسرحية يبدأ الاجتماع في أحد بيوت أعضاء النادي وهناك تُجرى عملية تقسيم الأدوار والبدء في حفظ نص كل دور.

بالنسبة لي «كمهندس» ديكور تتركّز المهمة في دراسة نص المسرحية جيدًا ثم رسم تصميمه النهائي على الورق وإعطائه إلى «المردي» بعد أيام يدرس هو كمخرج التصميم ويقترح بعض التغييرات أو التعديلات أو يوافق عليه بشكل كامل ثم يعطيني إشارة البدء.

تبدأ عملية صنع الديكور وتبدأ مهماتي الأخرى، فبعد استئجار إدارة النادي لإحدى الساحات الكبيرة في المنامة لعمل خشبة المسرح عليها، والتي غالبًا ما تكون في «حوطة أبل» و«حوطة الباكر» و«ساحة مسجد العيد» تبدأ عملية إعداد المسرح كليًّا.

نصنع قاعدة المسرح من مجموعة من البراميل الكبيرة التي نعبئها بالحصى والرمل لكي تكون ثقيلة ونصفّها إلى جانب بعضها البعض. ثم نضع ألواح الخشب فوقها ونثبتها بشكل جيد لتأتي بعدها

عملية فرش السجاجيد العجمية عليها. وأخيرًا نعمل في صنع السقف والستائر والنوافذ والأبواب وغيرها.

لا تنتهي عملية صنع مسرح كامل من الصفر إلى هنا فقط. بل تمتد إلى عمليات أخرى كثيرة، فبسبب عدم وجود قاعة مغلقة تصنع من أجل أيام عرض المسرحية المعدودة، نصفّ عشرات الكراسي في الساحة الفسيحة.

ولضعف إمكانات النادي، وغيره من الأندية البسيطة، تُجرى على قدم وساق عمليات استعارة الكراسي من الأندية والبلدية وحتى من بيوت الأعضاء. ويمكن اكتشاف أعداد الكراسي القليلة وقت عرض المسرحية في الأندية بكل سهولة.

وعندما تنتهي عمليات الإعداد وحفظ الأدوار والبروفات في البيوت تبدأ الحملة الإعلانية «الضخمة»، فيتجول أعضاء النادي في السوق لبيع التذاكر وجلب التبرعات من كبار التجار الذين كانوا يمنحون تبرعات سخية جدًّا وبلا حدود لأنشطة الأندية الثقافية.

وفي الوقت نفسه يستأجر النادي أحد «المصوّتين» المعروفين ويشرح له ماذا يريد من الدعاية للمسرحية وغيرها. ويعمل هذا «المصوّت» لمدة تقارب الأسبوع بالإعلان عن المسرحية في الأسواق والمقاهي وبأسلوب هزلي في كثير من الأحيان. علاوة على تأليف أنشودة خاصة عن المسرحية.

قبل بداية المسرحية بيوم أو يومين أقوم بإعداد موسيقى المسرحية الذي كان يعتمد كثيرًا على العود والطبلة.

ويبقى لدي في النهاية إعداد أكسسوارات الممثلين، ولأن غالبية المسرحيات التي كنا نقدمها مسرحيات تاريخية فاللحى والشوارب

المفتولة هي التي يكون عليها الطلب كثيرًا وتجري استعارتها فيما بين الأندية.

ولصنع لحية عادية كنت أقص شعر ذيل الأغنام وأصبغها وألصقها على قماش خفيف ثم نضعها على الوجه، لكن صنع اللحى يتطلب أيضاً معرفة الدور، فلحية القاضي عادية ولحية رجل الدين كثيفة وهكذا.

أما الماكياج الذي يتطلّب تغيير الوجوه فنستعمل الفحم الأسود لسواد الوجه للممثل الذي يقوم بدور العبد مثلًا في المسرحية. كما نستخدم «البودرة» لتبييض شعر الرأس للدلالة على الشيخوخة.

وإذا انتهى كل شيء تبدأ المسرحية.

من الساعة الثالثة والنصف ظهرًا يبدأ توافد الناس حيث يحتلّون الـ 500 كرسي أو أكثر الموجودة وحتى الرابعة عصرًا موعد عرض المسرحية يكون الجمهور الواقف في الساحة أكثر من الجالسين. كما تشكل تجمعات النساء بسواد عباءاتهم قسمًا كبيرًا من الواقفين.

في مقدمة حضور المسرحية يجلس في الصف الأول كبار الأعيان والشخصيات المهمة في البلد والمستشار البريطاني وغيرهم. وما إن تفتح الستارة في الرابعة عصرًا حتى تضجّ الساحة بالتصفيق والتهليل.

كان إقامة مسرحية في تلك الأيام عرسًا حقيقيًّا لكل الناس. فيشعرون في أيامها القليلة بالفرح والسعادة وتمتلئ الساحة طوال الأيام الأربعة بشباب الأحياء والنساء والأطفال للحضور والمتعة. وبالرغم من عدد الأيام القليلة التي هي بحساب هذا الزمن لا شيء، إلّا أن انتهاء المسرحية كان يعبر أيامها عن انتهاء الجمهور

القادر على الحضور. فالغالبية شاهدت المسرحية، فلماذا إذًا توجب زيادة مدتها؟

والملاحظ في قضية التفاعل الكبير مع المسرحيات هو استمتاع الجمهور وإصراره على الحضور بالرغم من الجدية الواضحة في المسرحيات التي لا تخرج عن الإطار التاريخي العربي والإسلامي، علاوة على تأديتها باللغة العربية الفصحى. وبالرغم من اهتمام مسؤولي المسرحيات بهذا الجانب عبر تقديم فصول هزلية فكاهية لتسلية الجمهور.

لم تقتصر مشاركتي في المسرح على النادي الأهلي فقط بل امتدت إلى الأندية الأخرى. حيث شاركت أكثر من مرة في صنع ديكورات مسرحيات نادي العروبة. وأتذكر أن ديكور إحدى مسرحيات «العروبة» رسمت فيه لوحات فنية كثيرة بقيت في النادي لمدة طويلة ثم بيعت في «سوق المقاصيص» لضيق المكان.

لكن ظهور السينما بسحرها العجيب في ذلك الوقت جعلها تلقى تأثيرها الواضح على المسرح بشكل كبير، فمشاهدة السينما الجميلة أخذت الكثير من جمهور المسرح وأفقدته بعض حماسه.

في الفترة الزمنية نفسها تقريبًا كنت أتردد على نادي البحرين بالمحرّق. وبالصدفة قرأتُ في إحدى المرات إعلانًا صغيرًا بالقرب في بوابته يقول: «كل من يريد دراسة الرسم ضمن دروس خصوصية مقابل 25 روبية في الشهر فأنا على الاستعداد والعنوان موجود لدى النادي».

في الحال أخذت العنوان وعرفت بأن المدرس هو أحد أعضاء البعثة المصرية بالبحرين واسمه «محمد متولّي»، وفي اليوم ذاته بدأت الدراسة.

كان «محمد متولي» مدرسًا للرسم في «مدرسة الهداية» بجانب كونه فنانًا تشكيليًّا جيدًا.

ومع مضي الوقت راح يعلّمني، عبر الدروس الأسبوعية، الأصول الأكاديمية للرسم، كنت أرسم وهو يصلح أخطائي. يعلّمني مثلًا أساسيات كيفية نقل الصور أو الكتابة أو المنظر على الورق. وعملية رسم الخطوط الخارجية للصورة إضافة إلى المسافات وقياساتها وغير ذلك. بقيت مع المدرّس المصري «متولّي» مدة أربعة شهور تقريبًا أتعلم أصول وتكتيك الرسم لمبتدئ مثلي. وفي الأيام الأخيرة شعر المدرّس بأن كل ما يمكنني دراسته قد انتهى تقريبًا. وأحسست أنا بذلك وبضرورة التفكير بشيء آخر.

في الدرس الأخير الذي كنت أنوي فيه توديع مدرّسي وجدت في مكتبته بالصدفة كتابًا اسمه «التصوير الفوتوغرافي». فسألته عن محتواه، وعندما أخبرني بأنه يمكن عن طريقه تعلم التصوير، قلت له مقاطعًا: أريد أن أتعلّم التصوير.

وافق «متولّي» وبدأت دراسة أخرى ودخلت في عالم جديد آخر.

خلال أسابيع قليلة تعلّمت تقنية التصوير وكيف يمكن صنع مواد تحميض الأفلام وغسلها. ومع الأيام رحت أحمّض الأفلام في البيت وبدأت في صنع «الدارك روم» دون معرفة الأستاذ.

استمرّ ولعي بالتصوير أكثر عندما انتهيت من دراستي مع الأستاذ المصري، ولأقترب أكثر من هذا الولع طلبت من المستشفى نقلي إلى قسم تصوير الأشعة وصرت أحصل على الأفلام التي أريدها بسهولة.

ووصل أفق التصوير إلى إصراري على شراء كاميرا بمبلغ ضخم جدًّا آنذاك وهو مائة روبية. وبمساعدة الكثير من الأصدقاء وبتبرعات الكثيرين اشتريت الكاميرا من صاحب الاستديو الهندي الذي يعتبر المصوِّر الوحيد في البحرين.

استمر «إظلام» غرفة التصوير واستمر معها فن السباحة ضد التيار لتبدأ الحكايات الجديدة.

[في كل مرة تكتشف الحياة «يوسف قاسم». وفي كل يوم كان يكتشف هو فنونها وعالمها الكبير. وعندما ينجح في معرفة كل أسرار مخابئها يحلّق في آفاقها. لذلك لم تكن «الكاميرا» الصغيرة والغالية الثمن سوى لقطة فوتوغرافية جديدة لفن آخر يبحث عنه ويريد أن يجيده].

في أثناء هذا الولع المستمر بالتصوير أصدرت الحكومة قرارًا ألزمت جميع عمال الغوص الذين يدخلون البحرين من الكويت والسعودية وإيران وعمان وغيرها بضرورة لصق صورهم الفوتوغرافية على تأشيرات دخولهم.

انتهز أخي الموظف في إدارة الجوازات هذه الفرصة واقترح عليَّ افتتاح استديو للتصوير مقابل أن يرسل لي عمال الغوص لتصويرهم والكسب المادي من وراء هذا المشروع.

لم أتردد طبعًا في افتتاح الاستديو فهي فرصة كان لا يمكن تحقيقها بهذه السهولة وقتها.

وبالفعل استأجرت دكانًا صغيرًا في سوق المنامة ورفعت عليه يافطة كتب عليها «استديو أوال». منذ اليوم الأول امتلأ الدكان الصغير بعشرات العمال الذين جاؤوا لتصوير صورهم الشخصية بنقود

قليلة، يا بلاش. وبسبب الربح الكثير الذي كنت أحصل عليه يوميًّا والذي يصل إلى حوالي 300 روبية في الشهر لم أعد أذهب إلى عملي في المستشفى الأميركي.

وفي لحظة سماع د. «هيرسن» بموضوع فتحي للاستديو جاء إليَّ غاضبًا وسألني عن سبب عدم حضوري للعمل، لم أجبه، فقط فتحت درج المكتب المملوء بالنقود وقلت له: انظر.. هل يستطيع المستشفى إعطائي هذا المبلغ.

خرج «هيرسن» غاضبًا مرة أخرى كما جاء، لقد كان هدفي الحقيقي من إطلاعه على النقود الكثيرة هو إقناعه برغبتي في ترك العمل بالمستشفى والتفرغ نهائيًّا للتصوير.

بعد أيام ذهبت إلى المستشفى بناء على طلبهم في مقابلتي والحديث معي حول العمل. وفي المقابلة «العاصفة» رضخ «هيرسن» في نهايتها لرغبتي وقَبْلَ توديعي، قام عن كرسيه وقرأ عليَّ بعض الأدعية المسيحية ثم خرجت.

أنهت المقابلة الثياب البيض النظيفة التي كنا نرتديها في المستشفى. ولم أعد أسمع طلبات المرضى الكثيرة، وانتهى معها تصوير العظام المكسورة. لقد انتهى كل شيء في «الدارك روم» التي راحت تصنع الصور.

عندما وقع تقسيم فلسطين ظهرت بوضوح كبير مشاعر البحرينيين القومية التي عبروا عنها في تظاهرات كبيرة صاخبة. كانت مشاركتي في هذه التظاهرات مع الكاميرا.

أغلقت الاستديو في ذلك اليوم كباقي دكاكين السوق المغلقة ورحت ألحق المتظاهرين وأتسلّق أسطح منازلهم لتصويرهم لتكون

الحصيلة النهائية ما يقارب من عشرين صورة فوتوغرافية للتظاهرات. ووجدت هذه الصور إقبالًا كبيرًا على شرائها وبشكل لا يصدق من الناس عندما طرحتها للبيع كمجموعة كاملة بروبية واحدة.

مع تطور أحداث القضية الفلسطينية تفاعل الشارع البحريني كثيرًا معها وراح يشارك في جميع الاحتجاجات ومشاعر الغضب القومية.

في أثناء قيام الكيان الصهيوني بفلسطين طلب التاجر المعروف «محمد طيب خنجي» وعضو «لجنة إغاثة أيتام فلسطين» البحرينية والمشكّلة في نهاية الثلاثينيات لدعم القضية الفلسطينية، أن أرسم لوحة تشكيلية للمفتي والزعيم الفلسطيني «أمين الحسيني» على أن تكون تبرعًا ودعمًا مني للقضية الفلسطينية. حيث إن اللجنة ستقوم ببيعها في مزاد علني ويعود ثمنها للقضية الفلسطينية.

وافقت طبعًا على هذا الدعم المتواضع واستعرت منه في الوقت نفسه صورة شخصية للمفتي.

في اليوم ذاته أخذت كيسًا أزرق فارغًا من البيت وأحضرت جميع الأدوات اللازمة وبدأت العمل فورًا، وبعد مضي يومين كانت اللوحة جاهزة، وكان مقاس اللوحة مترًا ونصفًا، حيث رسمت فيها الصورة الكاملة للمفتي.

ذهبت باللوحة إلى أعضاء اللجنة فدهشوا بها وأبدوا إعجابهم وقرروا الاحتفاء بها على طريقتهم.

وفي التظاهرة الاحتجاجية الكبيرة في المنامة أثناء قيام الكيان الصهيوني وضع المتظاهرون اللوحة في مكان بارز في سيارة «بيك أب» كانت تسير في مقدمة المتظاهرين.

وعندما وصلت التظاهرة الكبيرة إلى مكان الحفل الخطابي في «بيت فاروق» (مركز ابن سيناء الصحي حاليًا) أنزلت اللوحة من السيارة ووضعت أيضًا في مكان بارز على منصة الخطباء.

بعد انتهاء الخطابات النارية وإلقاء الأشعار الحماسية، بدأ مزاد بيع اللوحة بـ 10 روبيات وارتفعت الأصوات: 20، 30، 40، 50 وينادي المنادي: من يزيد؟ ترتفع الأصوات مرة أخرى وترتفع الأرقام: مائة، مائتان حتى ينهي «يوسف عبيدلي» المزاد بـ 300 روبية ويشتريها ولتذهب نقودها إلى القضية الفلسطينية. وليعلن بذلك بيع أول لوحة تشكيلية في البحرين.

ومنذ نكبة فلسطين نشأ في البحرين الفن التشكيلي الحديث الذي يرسم المناظر الطبيعية والشخصيات بعد أن كان مقتصرًا على الحِرَفِ اليدوية وغيرها.

بقي «استديو أوال» مستمرًّا في التقاط الصور، ولكن من دون عمال الغوص الذين كانوا يأتون إلى البحرين. فتغيرت نوعية الزبائن، ازدادت نسبة الإقبال حتى وصلت إلى النساء. وسبّب حضور الفتيات إلى الاستديو للتصوير الكثير من المضايقات من قبل جيراني في السوق. فلم تكن الظروف الاجتماعية وقتها تسمح حتى بخروج الفتيات فما بالكم بالتصوير. وبعد فترة زمنية قليلة تطورت هذه المضايقات إلى احتجاجات وغضب من هذه «المسخرة» حسب رأيهم. وعندها لم يكن أمامي إلّا الخضوع لهذه الاحتجاجات وإغلاق الاستديو نهائيًّا.

بعد «استديو أوال» وجدت الفرصة ممكنة لفتح استديو بالمملكة السعودية وفي الخبر بالتحديد. وبالرغم من مرور العديد من السنوات على استمراري في عملي بالاستديو بالخبر كعمل تجاري مربح إلّا

أن بعض الظروف الخاصة التي حدثت لي هناك قضت بضرورة الخروج من غرفة التصوير المظلمة وربما إلى الأبد. وهكذا انتهى «ظلام» التصوير في نهاية العام 1957م. بالضبط.

لم يبق من عصارة الذاكرة غير الكويت، فمع بداية العام 1958م. عملت موظفًا في دائرة الشؤون الاجتماعية ـ قسم المسرح المنشأ حديثًا. ومنذ الأيام الأولى اشتركت مع فرقة المسرح الشعبي في صنع ديكورات مسرحياتها. في مسرحية «فرحة العودة» كان الديكور يتطلب إظهار البحر على خشبة المسرح في الفصل الأول واستطعت عن طريق الخدع السينمائية التي تعلمتها في بومباي من تحقيق ذلك.

في بقية الفصول جعلت خشبة المسرح كأنها جزيرة تحتوي على الرمال والطيور وغيرها.

في نهاية الخمسينيات توقف عملنا المسرحي بسبب الظروف السياسية التي مرت على الكويت. ففي هذه الفترة حدثت المطالبة العراقية بقيادة عبد الكريم قاسم بضم الكويت. فانقلب عملنا إلى حراسة المرافق الكويتية المهمة وتطور العمل معي إلى أن وصل إلى ابتعاثي إلى الحدود الكويتية - العراقية للعمل كمترجم للجنود والضباط الكويتيين مع فرقة جنود الجيش الإنكليزي الذي طلبته الكويت للدفاع عن أراضيها آنذاك. وعندما انتهى التوتر على الحدود رجعنا إلى العاصمة مرة أخرى لنشارك في أعمال أخرى.

فقبل أيام قليلة من خروج الشعب الكويتي في تظاهراته المنددة بعبد الكريم قاسم طلب مني المشاركة في دعم المتظاهرين عبر صنع تمثال لعبد الكريم قاسم يحرق في التظاهرة.

صنعت التمثال ومشى به المتظاهرون وهو مغطى بعباءة نسائية سوداء حتى إحدى ساحات الكويت الكبيرة، وأُحرق وسط هتافات حماسية. وبعد انتهاء الأحداث رجعنا إلى المسرح مرة أخرى، واستمر عملنا مع الفرق المسرحية الكويتية، وراح المسرح الكويتي يرتقي ويتطور باستمرار. وأسهمت مشاركة المسرحي العربي الكبير المصري «زكي طليمات» معنا في الكويت إضافة إلى دعم الدولة الكبير في إبراز المسرح وإثبات حضوره المتفوّق على الصعيد العربي.

[وبعد عشرين عامًا من الغربة يعود الفنان «يوسف قاسم» إلى البحرين مع بداية عام 1977م. لتبدأ ربما مغامرة جديدة في خريف العمر، لينهي في المقابل توقف ذاكرته عن الكلام المباح](*).

(*) مذكرات سجلها الكاتب مع الفنان يوسف قاسم في يوليو/ تموز 1984م.

يوسف قاسم تلميذ بالمدرسة الجعفرية

يوسف قاسم في الهند

يوسف قاسم قبل ذهابه إلى الهند

عمل
إئتلاف شباب ثورة 14 فبراير
مركز لؤلؤة البحرين للدراسات والبحوث

يوسف قاسم مطربًا

في الاستديو مصورًا

يوسف قاسم في المرسم

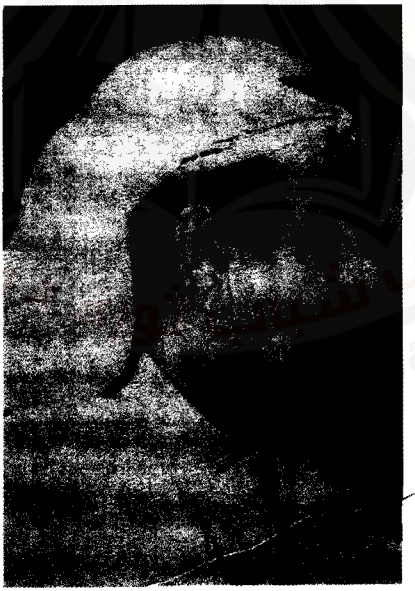

ائتلاف شباب ثورة 14 فبراير
مركز لؤلؤة البحرين للدراسات والبحوث

الشاعر والمثقف سلمان التاجر
صداقة العلم والصحف والأشعار!

في بداية عام 1875م. سجلت روزنامة عائلة التاجر في البحرين ولادة طفل غير عادي اسمه سلمان بن أحمد التاجر. وبعد أن كبر الطفل بعثه والده إلى أحد الكتاتيب المنتشرة آنذاك في مدينة المنامة ليتعلم قراءة القرآن الكريم وأساسيات اللغة العربية.

وفي الكتّاب لوحظ نبوغ الطفل سلمان غير العادي. فعلاوة على حفظ وتلاوة القرآن في فترة وجيزة، سجّل معلموه ذكاءه غير العادي. فقد أقبل على تلاوة القرآن الكريم بطريقة أذهلت الملأ، وأظهر براعة في تعلم الأبجدية وكتابة الحروف الأولى بطريقة بهرت أقرانه. واستفاد من ذلك لاحقًا في دراسة التراث العربي والفقه الإسلامي والعلوم الأخرى.

لم يكتف سلمان التاجر، وهو الصبي الصغير، بالدروس التي يتلقّاها من أساتذته، بل كان يذهب إلى كل مصدر علمي وينكب على القراءة والاطلاع.

شجّع حبّ سلمان التاجر للثقافة والتهام الكتب والتردّد على المجالس والحلقات العلمية والدينية على طلب العلم في العراق. وفي كربلاء والنجف بالعراق تخطى الشاب الصغير التاجر كل مصاعب الغربة وهمومها وراح يدرس اللغة العربية والفقه الإسلامي ويقرأ في الثقافة والأدب كل ما تقع عليه عيناه.

ففي العراق بداية القرن العشرين وجد دنيا جديدة، في دنيا الثقافة التي طالما راودت خياله. فالمكتبات الضخمة ومجالس المثقفين والصحف والكتب التي لا تحصى، وهو جو يفتقده في البحرين آنذاك.

وبعد سنوات قليلة أنهى التاجر كل مقرّراته التعليمية ونال شهادته في النهاية في اللغة العربية وآدابها والفقه الإسلامي.

وقبل أن ينال التاجر الشهادة ويرجع إلى بلاده البحرين اشتهر في النجف بقوة الذاكرة والذكاء الحاد، وعرف كطالب علم مثابر. ودرس التاجر أيضًا فلسفة اليقين. فقد قرأ على يد أساتذته بأنه لا بد للمسلم قبل كل شيء أن يزيل حجاب النفس لكي يحصل على الإيمان والعلم الحقيقيين، ولا بد له من جهاد النفس ليدرك نفسه على حقيقتها، واليقين لا يأتي الإنسان دفعة واحدة، حيث يجب السعي إليه، وكل يوفق إلى الاستزادة بحسب قابليته.

عاد التاجر إلى البحرين مسلحًا بالثقافة والعلوم لكن الأهم تفجّر موهبة شعرية كبيرة عنده.

قبل الحرب العالمية الأولى بدأ سلمان التاجر كتابة الأشعار، ولكن لم يكن بباله أن تلك الأشعار ستقوده يومًا إلى أن يقدر وفي فترة قصيرة على أن يحدث تغييرًا كبيرًا في الأسس الشعرية وأن يحدث انقلابًا كبيرًا في أساليب وأغراض الشعر السائدة في المنطقة. وبرغم أن بدايات التاجر الشعرية كانت في كتابة الأشعار الدينية إلَّا أنه سرعان ما راح يكتب القصائد التي تحمل هموم وطنه وقضايا أمته.

وعاصر الشاعر التاجر كثيرًا من الأدباء والشعراء في عصره.

وارتبط بعلاقة وثيقة مع الأديب المعروف الشيخ إبراهيم بن محمد الخليفة، عبر عنها شعرًا بقوله:

سمعت باسمي فشاقك الوصف ... والوصف يخطئ إن لم يسبق العرفُ
فإن ترد صفتي خذها مفصلة ... ما شابها كذب كلاّ ولا عسفُ
إني امرؤ أبلت الأفكار جدّته ... وأتعبت جسماً لهما وقفُ
لي مقول صارم حرٌّ أصون به ... مني الوفاق لئلا يلزم الخلفُ
أهوى اتحاد جميع المسلمين ولا ... يصدّني عن هوائي جاهلٌ جلفُ
وإنني لا أرى في شهرتي سببًا ... يقودني للذي في صحفي الحتفُ
وكيف لا ولسان الصدق عادلته ... له النصيحة خدن الوفا حلفُ
ولم يكن لي صديق أستعين به ... على الجهالة، إلّا العلم والصحفُ

في شتاء عام 1922م. زار البحرين الأديب اللبناني المشهور أمين الريحاني، وأقيمت للريحاني العديد من الاحتفالات، كان أشهرها المهرجان الخطابي الذي أقيم له في النادي الأدبي بالمحرّق.

وكان الشاعر التاجر من أبرز أدباء البحرين الذين تباروا في الاحتفاء بالأديب الريحاني، حيث ألقى التاجر قصيدة طويلة وجميلة تقول بعض مقاطعها:

وجدتك للعلا كنزًا ثمينا ... فكنت لسرها الغالي (أمينا)
فلا عجب إذا أَمَّنْتَكَ شوقًا ... قلوب العالمين العاملينا
فإنك عالم الشرق المفدى ... وإنك فيلسوف العصر فينا
وإنك ثالث (البحرين) علمًا ... وإنك ثالث البدرين زينا
فأهلًا بالهمام وألف سهلًا ... يجدد كل عام ما بقينا

قدمت وخير مقامك استنارت ... به أرض تضيف الزائرينا
زهت لما زها معناك فيها ... (أوال) كم زهت بالأولينا
وفاحت نفحة (الريحان) فيها ... بخلق شاكل الماء المعينا

كذلك ارتبط الشاعر سلمان بعلاقة حميمة مع التاجر والأديب المصري محمد علي أفندي يحيى السعيد عند زيارته للبحرين في اليوم الخامس عشر من شهر رجب في العام 1342 هجرية، ونظم التاجر من وحي ذلك اللقاء قصيدة قال فيها:

وافى (السعيد) وحفّنا ... ما كان نأمل من سعاده
وتشرّفت (بحريننا) فيه ... وأكرمت الوفاده

ثم يستطرد:

زهرت بطلعته (أوال) ... وذا لها منه شهاده

وقال في ختام القصيدة:

فليحيا مولانا (السعيد) ... حياة أبطال وزاده
ولتحيا مصر بسعدها ... والمصر أبطال عماده

وخارج هذه العلاقات كانت له مشاركات عدة في رثاء أدباء عصره، حيث رثى أستاذه الشيخ أحمد العصفور بهذه الأبيات:

حملوه والعرش تحمله الأملاك ... نعشًا لهم لديه ازدحامُ
وأهالوا الثرى على علم بيت الوحي ... لو كان يعلم الأقوامُ
ولكم عرفت بتعفير خد ... منه في الأرض فيه وجهًا كرام
يا نظام العلياء بعدك ما للعلم ... والعدل والقضاء نظامُ
إن حزني عليك حزن طويل ... فيه تفنى الشهور والأعوامُ
طبت حيًّا وميتًا فسلامٌ ... لك مني لم تعمه الأيامُ

علاوة على الشعر، اشتغل التاجر ببعض المشروعات الثقافية كان أهمها الشروع في تأليف كتاب ضخم عن أعلام البحرين عبر العصور، غير أنه توفي قبل إكماله.

خارج المشروعات الثقافية شارك الشاعر سلمان التاجر بفعالية في أهم منتدى ثقافي بالبحرين هو «نادي إقبال أوال» عام 1913م. فشارك مع مجموعة مثقفين بحرينيين أمثال: الشيخ محمد صالح، ناصر الخيري، محمد العريّض، خليل المؤيد، محمد التاجر، علي الفاضل، محمد الباكر، علي كانو وسعد الشملان، في تأسيس أولى المؤسسات الثقافية في البحرين.

وفي «نادي إقبال أوال» يبدأ الشاعر سلمان التاجر ومثقفو المنامة في عملية التواصل الثقافي والفكري بين البحرين والوطن العربي، فيكتب بعض أعضائه إلى الصحف والمجلات، ويقوم النادي بتنظيم العديد من الأنشطة الثقافية التي تجسّدت بشكل واضح في المحاضرات ذات الطابع الديني والفلسفي، كما أنها عبرت عن خط النادي الإصلاحي في مواجهة الفكر السلفي.

لكن تأسيس النادي نفسه، ضمن بدايات المناخ الثقافي المبكر، والأنشطة الثقافية ذات الطابع الإصلاحي، كانت وكما يبدو تلقى مقاومة كبيرة. فخلال نشاطات النادي ذهبت مجموعة من رجال الدين واحتجوا لدى قاضي البحرين «قاسم المهزع» على النادي بقولهم: إنهم يا شيخ يأتون في ناديهم المنكر عبر قراءة صحف النصارى.

لم يكن هذا الاحتجاج إلّا البداية. فعندما يقرر أعضاء النادي أداء مناسك الحج، يكتب ناصر الخيري رسالة إلى صاحب «**المنار**»، رشيد رضا يسأله، باسم أعضاء النادي، عن بعض شعائر

الحج، التي يبدو أنهم اختلفوا في تفسيرها، كتقبيل الحجر الأسود والطواف وغيرهما، وفي رسالتهم سألوا أيضًا عن عدم حج زعماء المسلمين ومفكريهم كالشيخ رضا نفسه والإمام محمد عبده وعبدالرحمن الكواكبي، ويجيبهم الشيخ رشيد رضا عن جميع أسئلتهم ولكنه يخبرهم أن هذه الأسئلة فيها «مس من الفكر التبشيري المسيحي».

وقبل أن يكمل أعضاء النادي، ربما قراءة إجابة الشيخ رضا، كان القاضي المهزع قد وصله عدد «**المنار**» وقرأ كل شيء فيه، وعبر عن غضبه الشديد على ما جاء به، بأن أمر بإغلاق النادي في الحال! بل إنه أصر على معاقبة أصحاب الرسالة وخاصة «الخيري» كاتبها، حين أصدر أوامره بـ «جدع أنفه».

تسلسلت الأحداث بعد غضب القاضي، بأن اعتذر أعضاء النادي للقاضي وبرروا له موقفهم على أساس أنهم لم يطلعوا على الصيغة التي وضع بها ناصر أسئلتهم حتى يوافقوا أو لا يوافقوا على إرسالها إلى صاحب «**المنار**».

وقالوا غير ذلك أيضًا.

وبعد حياة ثقافية وشعرية صاخبة يتوقف نبض الشاعر والمثقف البحريني سلمان التاجر عن الخفقان في نهاية العام 1925م. لكنه يترك أشعاره وتراثه الثقافي متواصلين في الوجدان والروح.

لوحة للشاعر سلمان التاجر

مكتبة التاجر في المنامة

ائتلاف شباب ثورة 14 فبراير
مركز لؤلؤة البحرين للدراسات والبحوث

المثقف ناصر الخيري يسابق العصر
شجاعة طرح الأسئلة المشاكسة

لم يسجل الشيخ الأزهري البحريني «أحمد بن مهزع» في أوراق مدرسته الدينية العام 1888م. سوى اسم طالب وحيد، لاحظ فيه نبوغًا مبكرًا بين زملائه، وبخاصة في اللغة العربية. وراح يخط بقلم الحبر الأسود اسمه بثقة كبيرة: «ناصر مبارك الخيري» وعندما حفظ «بن مهزع» اسم طالبه جيدًا بدأ يتابع أخباره بعد تخرجه في مدرسته.

فلما أسس المبشرون الأميركيون مدرستهم في المنامة انتظم الخيري في أحد فصولها العام 1894م. وأمضى فيها ثلاثة أعوام، أجاد خلالها اللغة الإنجليزية وبعض العلوم الحديثة، وتخرج في هذه المدرسة وعمره يقارب الثانية والعشرين.

بعدها اشتغل «الخيري» كاتبًا لدى التاجر الحاج عبداللّه بن جمعة إبراهيم أحد رجال الأعمال المعروفين في المنامة آنذاك. وخلال ذلك العمل البسيط تردد الخيري على المكتبة العامة، التي أنشأها المبشرون الأميركيون العام 1894م. وألحقوها بالمدرسة، ثم طوروها العام 1906م. ونقلوها إلى مقرها الصغير في سوق المنامة، حيث أصبحت فيما بعد ملتقى كثير من الشباب من أصدقاء الخيري الذين راحوا يقرؤون كتبًا تختلف عن كتب علماء وأدباء البحرين في تلك الفترة، من حيث اهتمامها بالعلوم والمخترعات الحديثة.

ومع هذا الوعي الجديد الذي راح يكتسبه وتلك الثقافة

الواعدة، راح الخيري يقرأ الصحف العربية بانتظام ويعجب بها وبأسلوبها الحديث المختلف عن الكتب المعروفة.

ويتطور هذا الإعجاب إلى مراسلتها، فيرسل في العام 1910م. رسالة إلى صحيفة «المقتطف» المشهورة بالقاهرة يسأل فيها سؤالاً عن الرقيق يقول فيه: البحرين- السيد ناصر مبارك الخيري:

1 ـ ما قولكم في بيع الرقيق؟ أفضيلة هو أم رذيلة؟ فإن كان الأول فلماذا يصادره الغربيون؟ وإن كان الثاني فلماذا لا يقول بتحريمه رجال الدين في الشرق؟ ويقول الغربيون إن علة هذا الداء بالإسلام والمسلمين. فهل هذا صحيح؟ وإن لم يكن كذلك فما سبب تأصله حتى صار يصعب قطع جرثومته من الشرق؟

وفي رسالة ثانية للخيري يسأل فيها صحيفة «المقتطف» أيضاً ثلاثة أسئلة تقول:

س 1 ـ جاء في دائرة المعارف تحت عنوان (البحرين) ما نصه: وفتحها أردشير بن بابك ورمى ملكها نفسه من حصنه خوفًا منه فمن هو هذا الملك الذي رمى نفسه، وفي أية سنة كان ذلك؟

س2 ـ من اكتشف مغاوص اللؤلؤ في الخليج العربي؟

س3 ـ ما هو التأريخ الذي يؤرخ به العثمانيون؟ ومن أي عهد يبتدئ؟

وتجيب «المقتطف» الأديب الخيري كالآتي:

ج1 ـ ذكر الطبري في تاريخه أن اسمه «سنطرق» قال: ثم توجه أردشير من «جور» إلى «البحرين» فحاصر «سنطرق» ملكها، واضطره الجهد إلى أن رمى بنفسه من سور الحصن فهلك. وقد نقل ابن

الأثير هذه الرواية عنه وأغفل الاسم. والظاهر أن دائرة المعارف نقلت عن ابن الأثير.

وأردشير بن بابك هذا أول ملوك الدولة الساسانية، نزع الملك من أدوان الرابع آخر ملوك الدول الأشكانية سنة 226 للمسيح، فلا بد أن حصار البحرين حدث بين هذه السنة وبين سنة 241 م. وهي السنة التي توفي فيها أردشير وخلفه ابنه سابور.

ولا نظن أن «سنطرق» هذا كان أميرًا عربيًّا، فإن الدولة الأشكانية كانت متسلطة على العراق العربي وعلى جزء كبير من سواحل الخليج العربي، واثنان من ملوكها يعرفان باسم «سنطرق» أو «سنطروقيس»، أو «سنطروقيوس»، ولعل «سنطرق» ملك البحرين كان من عمال الأشكانية أو أحد أمرائها.

ج2 ـ لا يعلم ذلك بالتحقيق فقد كانت هذه المغاوص معروفة عند اليونان قبل زمن المسيح ولا بد أن معرفة الفرس والعرب بها أقدم من ذلك بكثير، ومن المحتمل أن اللؤلؤ الكبير الذي يوجد في الآثار المصرية مستخرج من هناك.

ج3 ـ كتبنا في ذلك مقالة في المجلد الرابع عشر من «**المقتطف**» لخصناها عن كتاب (إصلاح التقويم لمختار باشا الغازي) أهم ما جاء فيها أن السنة المالية العثمانية تبتدئ بشهر مارث (مارس / آذار) وهي اثنا عشر شهرًا شمسيًّا، وكانت أموال بعض المقاطعات تجيء على حساب هذه الشهور لا على حساب الشهور القمرية، ففي سنة 1086 الهجرية ابتدأت السنة الشمسية التي أولها مارث في الخامس والعشرين من ذي الحجة، فلما تمت السنة الشمسية ودخلت السنة التالية كانت سنة 1087 الهجرية قد دخلت، ودخلت سنة 1088 هـ فوقع الاختلاف والاضطراب في دفاتر

الحكومة، وعرض الأمر على الحضرة السلطانية لتصحح السندات التي حررت لشهر مارث سنة 1087 هـ فصدر الفرمان العالي وقيد في 29 مارث سنة 1088 هـ أي ألغيت سنة 1087 هـ.

وقد أخذت الحكومة العثمانية بعد ذلك تحصل الإيرادات وتصرف المرتبات على حساب الشهور الشمسية، ولكن لما كانت السنة الشمسية تزيد على السنة القمرية نحو أحد عشر يوماً، فيكون الفرق نحو سنة كل ثلاث وثلاثين سنة لتلحق السنين الهجرية.

ولما طبعت سندات القنصلية العثمانية في عهد المرحوم فؤاد باشا لم ينتبه إلى إلغاء سنة 1088 هـ منها فعرض الأمر على الباب العالي فأصدر قراراً بإبقاء هذه السنة. وقد كانت السنون المالية والهجرية متقابلة إلى سنة 1287 هـ مالية فدخلت سنة 1289 هجرية أمام سنة 1288 مالية، وبقي الفرق سنة إلى سنة 1323 هجرية، فصار الفرق سنتين، فالسنة المالية الآن 1327، والهجرية 1329.

وتكشف أسئلة «الخيري» غير العادية إلى صحيفة «المقتطف» عن اختلافها عن الأسئلة العادية، فهي تمتاز بحسب المؤرخ البحريني «مبارك الخاطر» عن «أسئلتهم تلك بصدورها من أديب مؤرخ يفهم جيدًا ما يريده من طرحها. وباستقراء شامل لأسئلة ناصر تلك نجدها قد طرحت بهدف الحصول على أجوبة تاريخية علمية محددة.

في مقابل القراءات وأسئلة الصحف يكشف ناصر الخيري ومعه بعض أصدقائه محاولات أصحاب المكتبة المستمرة بإقناعهم بأن «الحضارة الغربية» تقدمت وازدهرت لأنها مرتبطة بالدين المسيحي، بينما تخلّفُ الشرق مرتبط بالدين الإسلامي حسب زعمهم. ولما كانت للمبشرين قدرة كبيرة على الإقناع لا يستطيعون الوقوف أو الرد

عليها، إلَّا على بعض ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية، يأتي قرارهم بالامتناع عن ارتياد مكتبة المبشّرين نهائيًا.

لكن الخيري يدرك أنهم بحاجة إلى مكتبة يقرؤون فيها ويجتمعون لتكون بديلًا عن مكتبة المبشرين. وبالفعل أسست المكتبة وتحوّلت بعد فترة قصيرة في عام 1913م. إلى نادٍ باسم «نادي إقبال أوال الليلي».

غير أن تأسيس هذا النادي الحلم لم يوقف كتابات الخيري ولا مراسلاته إلى الصحف العربية، فيرسل إلى مجلة «**المنار**» الإسلامية في القاهرة التي يترأس تحريرها المفكر الإسلامي المعروف الشيخ رشيد رضا رسالة يقول فيها: «وبعد، فقد حدث في بلادنا توًّا حادث يستحق الذكر. وذلك أن امرأة من عامة المسلمين ادعت أن أحد المشايخ أو الأولياء على زعمها أتاها في المنام، وأُخْبِرنا أنه على مسافة نصف ميل من البلاد يوجد نهر جارٍ (وهو كذلك إذ إن النهر معروف من القدم) وعلى حافة النهر توجد صخرة كبيرة (وهي أيضًا مشاهدة منذ حين) وأنه ضرب بيده تلك الصخرة فتفجر منها الماء العذب، وأمرها أن تخبر أهل البلاد كي يأتوا ويغتسلوا ويشربوا من هذا الماء، لأن كل من شرب، أو اغتسل منه برأ من جميع العلل والعاهات. وبالفعل فإن المرأة أخبرت أهل البلاد بذلك فصدقها كثيرون من الناس، وذهبوا إلى ذلك النهر، وأخذوا يغتسلون ويشربون منه وينقلون منه إلى القرى المجاورة. وبسرعة البرق انتشر هذا الخبر بأطراف البلاد فتهافت الناس على هذا النهر. وعكفوا عليه عكوفهم على الحجر الأسود، معتقدين فيه كاعتقادهم باللَّه، حتى كثر الضجيج والازدحام عليه بما يفوق التصور.

حتى أصبح هذا النهر الصغير في بلدنا شبيهًا بنهر (الغانج) بالهند. ولقد ذهبت بنفسي مع بعض الأصدقاء لمشاهدة ذلك، ولكثرة الزحام لم أقدر أن أصل إلى ذلك النهر إلَّا بعد شق النفس، فرأيت النهر لم يتغير فهو كما كان عليه سابقاً. ولقد رثيت لحالة بعض الأطفال الذين يكادون يموتون غرقًا لكثرة ما تغطسهم أمهاتهم في الماء ابتغاء البركة والتقديس».

ويختتم الخيري رسالته «للمنار» بسؤال إلى الشيخ رضا قائلًا: «فما قول سيدي الأستاذ في ذلك؟ وهل الشرع يبيح مثل هذا؟ وهل من العدل أن يترك هؤلاء العامة على ضلالهم؟ أجيبوا عن ذلك في صفحات مناركم الزاهر. أدامكم اللَّه نبراسًا يهتدي به من ضل عن محجة الصواب».

وتردّ مجلة «المنار» على سؤال ناصر الخيري حول النهر الجاري في البحرين على لسان الشيخ رضا قائلًا: «اعلم يا أخي أن المجتهد لا يكون له في المسألة إلَّا رأي واحد، ومن نقل عنه قولان أو أكثر في مسألة واحدة، فإما أن يكون قد قال أحدهما في وقت ثم رجع عنه، فقال القول الآخر في وقت آخر، وإما أن يكون النقل عنه غير صحيح، والمسائل التي يتردّد فيها ليس له فيها رأي.

والمذهب له في عرف الناس إطلاقان: عامّ وخاصّ، فالأول هو نقل الأحكام التي قررها أو أفتى بها المجتهد، فمن عرفها وعمل بها من غير وقوف على دليل المجتهد عليها واقتناعه به يسمى مقلدًا له. وهذا هو معنى المذهب الذي يدعيه الآن جميع المنتسبين إلى المذاهب، لأنهم يظنون أن ما يقوله فقهاء مذاهبهم وما هو منقول في كتبهم كله مرويّ عن أئمتهم، وأن هؤلاء الفقهاء لا حظ

لهم إلَّا نقله وتفسيره، وعلى هذا بنيتم تعجبكم من تناقض فقهاء كل مذهب في المسألة الواحدة.

والصواب أنه يقل في هؤلاء من اطلع على كتاب للإمام الذي يدعي أنه درس فقهه أو قرأ شيئًا مما نقله عنه تلاميذه، ككتاب (**الأم**) للشافعي، و(**المدونة**) لمالك وكتب أبي يوسف ومحمد صاحبي أبي حنيفة، رحمهم اللَّه ورضي عنهم، وإنما قرؤوا بعض كتب المتأخرين التي سنذكر وصف أصحابها لها، وما فهموها حق فهمها، وكلهم يتجرأ على الفتوى فتختلف فتاواهم، وتتناقض آراؤهم، وفي كل قطر أفراد منهم، يثق بهم عوام بلادهم، كما هي عادة جميع العوام من جميع الملل مع رؤسائهم، يقلدونهم كيفما كانوا، ومهما كانت درجة علمهم أو جهلهم، فإن قاعدة التقليد والاتباع هي أن يثق الأدنى بمن هو أرقى منه ولو في القراءة والكتابة، فالأمي يرى متعلم القراءة أو الكتابة أرقى منه، وإن كان عاميًّا مثله.

وكل هؤلاء المفتين عاميهم ومتفقههم وفقيههم (إن وجد) ينسبون كل ما يفتون به إلى أئمة المذاهب، ويتعزّزون بأسمائهم، ويتخذون هذه الأسماء أتراسًا ومجانًا يدافعون بها كل من يتصدى لإرشاد العامة وينهاها عن البدع والخرافات، بل يتّخذونها سلاحًا يحاربون به السُّنّة وأنصارها».

وفي «نادي إقبال أوال» تبقى مجموعة الخيري تقرأ ما يتوفر عندها من الصحف والكتب، وتقوم ببعض النقاشات، ويقوم النادي ببعض المحاضرات والندوات الثقافية والدينية. وفي أحد الأيام يقرر بعض أعضاء النادي ومن ضمنهم الخيري أداء فريضة الحج. وعندها قام الخيري بالكتابة إلى الشيخ رشيد رضا في «**المنار**» يسأله فيها

بعض الأسئلة، حيث قال: «وبعد، فالداعي لتحريره عرض مسألة عرضت لنا في هذه الأيام. وهي أننا عشرة أشخاص نوينا هذه السنة أداء الحج ومناسكه، فالتجأنا إلى طلب الاستهداء من حضرتكم لإرشادنا إلى السبيل الأقوم والصراط المستقيم، فعليه قدمنا هذا الكتاب مؤملين فيه الجواب من حضرتكم عن هذه الأسئلة وهي:

نعلم أن اللّه سبحانه وتعالى قد اختار لنا الإسلام دينًا، وجعل هذا الدين مقامًا على خمسة أركان رئيسة، وهي: شهادة أن لا إله إلّا اللّه، وأن محمد (هكذا في النص) رسول اللّه، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، والحج إلى بيت اللّه الحرام من استطاع إليه سبيلاً.

هذه هي الخمسة الأركان التي لا يكمل الإسلام إلّا بها، وبفضل «**المنار**» المنير، وباقي كتب العلماء المصلحين الأفاضل قد فهمنا المقاصد، والحكم من الصلاة والزكاة، والشهادتين والصيام. كما فهمنا المقصد من الحج على الوجه العام.

ولكن اسمح لنا يا حضرة المفضال الحكيم أن نقول إن في الحج بعض الأعمال لم نعرف الحكمة منها، فلذلك جئنا بهذا الكتاب إليك نلتمس منك هدايتنا إلى ما جهلناه وهو:

1 ـ ما هي الحكمة من تقبيل الحجر الأسود إذا عرفنا أنه حجر عادي، لا يضر ولا ينفع، ولا يخفى ما في ذلك من المظاهر الوثنية؟

2 ـ ما الحكمة من رمي الحجارة «الجمار» في القليب في مزدلفة؟

3 ـ ما الحكمة من الهرولة بين المروتين؟

4 ـ ما المقصد من ذبح الذبائح على كثرتها، ودفن لحومها في منى، وفي ذلك ما فيه من النتائج الوخيمة التي تصدر من تعفن اللحوم

إذ تنتشر الأوبئة منها؟ ولماذا يمنع الناس من أكلها؟ وهل ذلك لازم ومن المناسك التي لا يتم الحج إلّا بها على هذه الصورة؟

ولا يخفاكم مبلغ النقود الطائلة التي يدفعها الحجاج ثمنًا لهذه اللحوم، إذ هي لا تقل عن خمسين ألف جنيه، فما قولكم لو صرفوا هذه المبالغ على إصلاح آبار مكة وطرقها وتكاياها وتنظيفها، وعلى كل ما يعود إلى الحجاج بالراحة والصحة والسلامة؟

5 ـ لماذا أقاموا دون عرفة بناءين عن اليمين وعن الشمال تعرف بالعلمين، وكل من لم يكن خلف هذين البناءين ليس مقبول الحج، مع أنه تكلف العناء ووصل إلى ما دونهما؟ ولماذا يكون من خلفهما مقبول الحج، وهو في لهوه ولعبه وممارسة ما اعتاده في بلاده من الأعمال؟ ومن كان دونهما غير مقبول، ولو كان على غيرك ذلك؟ وهل هذان البناءان حد فاصل بين اللّه والناس، أو بين الجنة والنار؟

6 ـ نرى كثيرًا من علماء الأمة الإسلامية ومرشديها المصلحين منهم من عاش ومات ولم يحج، مع أنه رحل في سنته مرتين، أو ثلاثًا إلى أوروبا، أو غيرها من البلاد، ولم يذهب إلى مكة، مع أنه كان الألزم والأوجب أن يقصد مكة والحج كل موسم للنصح والإرشاد، فهذا ساكن الجنان الأستاذ الإمام والمرحوم السيد عبدالرحمن الكواكبي وغيرهم عاشوا وماتوا وهم لم يروا مكة في وقت الحج، وحضرتك أيضًا كذلك.

فما هي الأسباب يا ترى؟ ونحن نعتقد أن امتناعكم جميعًا عن الحج لا بد له من سبب، فما هو ذلك السبب العظيم الذي يمنع رجال الإصلاح العظام عن الحج المقدس؟

7 ـ وكذلك نرى أن جميع ملوك الإسلام وأمرائه وأغنيائه لا

يحجون، ولا نرى الحجاج سواهم إلّا من فقراء الهند والصين وروسيا وجاوا وبلاد العرب كمصر وتونس وسوريا والعراق وغيرها، وهكذا كسلاطين آل عثمان (الخلفاء) وأمراء البيت السلطاني، وأعاظم الرجال من الوزراء والحكام والأغنياء المشار إليهم بالبنان، كلهم لا يحجّون ولا يدور في خلد أحدهم بأن يحج. فما هو السر في ذلك يا ترى؟

وكم عجبنا لما سمعنا بحجّ أمير مصر قبل سنتين، وكثر تحدّث الناس في ذلك حتى تجرأ أحدهم فقال: إن المقصود من حجّ العزيز غرض سياسي، ورحلة في جهات الحجاز لا غير، وليس له مقصد في الحج قطعًا.

هذا ما وجهناه لحضرتكم ملتمسين التنازل بمجاوبتنا عليه. ولك يا سيدي الخيار في المجاوبة أن تكون على صفحات «**المنار**»، أو كتاب مخصوص، وإذا كانت في «**المنار**» تكون أعم وأنفع، وإن أردت أن تجاوب على بعضها في «**المنار**»، وبعضها كتابة مخصوصة، فالأمر إليكم. ونحن قد اتكلنا بعد اللّه عليك، ولنا كبير الأمل أن حضرتك تهدينا إلى سواء السبيل، لا سيما وحجّنا يتوقف على جوابكم، لأنه لا يخالف أننا نقصد الحج نطلب الأجر والغفران لا الإثم والخسران.

فأمط لنا بما أعطاك اللّه من سعة العلم نقاب الباطل عن وجه الحقيقة. أدامك اللّه سراجًا يهتدي به من ضلّ منّا عن محجة الصواب، والسلام عليك.

4 شعبان سنة 1331هـ. إلى مصر القاهرة

من المخلص ناصر مبارك الخيري»

لم تعبر هذه الأسئلة، في رأي المؤرخ مبارك الخاطر في كتابه (ناصر الخيري) الصادر عام 1982م. إلَّا عن كونها أسئلة يشتمّ منها رائحة الفكر التبشيري والاستشراقي، الذي قد يكون تأثر به ناصر أثناء دراسته في مدرسة المبشّرين الأميركيين وارتياده لمكتبتهم.

غير أن الأسئلة المشاكسة والمثيرة جلبت وراءها مصائب ليست في الحسبان، بل وكوارث على «نادي إقبال أوال» وعلى المثقّف ناصر الخيري نفسه. فلما قرأ قاضي البحرين المشهور آنذاك الشيخ قاسم المهزع أسئلة الخيري وإجابات الشيخ رشيد رضا حتى أمر بإغلاق نادي إقبال بل ومعاقبة أصحابه.

وبالفعل يغلق النادي ويعتذر الأعضاء عن أية إساءة غير مقصودة. لكن بقي الخيري مغضوبًا عليه من الشيخ المهزع الذي أمر «بجدع أنفه»، ولولا تدخل بعض أصدقائه لنُفِّذَ أمر القاضي، وكان ما كان.

وطبعًا أثرت هذه الحادثة كثيرًا في نفس وعقل المثقّف الخيري، غير أنه ومن غير المتوقع يواصل الخيري نشاطاته الثقافية ويواصل الكتابة بنفس الهمة. وفي العام 1914م. يعمل كاتبًا لدى الشاعر محمد بن عيسى آل خليفة، وتنشأ بينهما علاقة فكرية قويّة يستفيد منها الخيري في الحصول على الكثير من المعلومات للكتاب الذي كان يكتبه عن تاريخ البحرين.

ويسجّل المثقف الخيري تقدمًا مهمًّا في سجّله الثقافي والفكري في البحرين حينما يشترك مع مجموعة من الأدباء والمثقفين في مدينة المحرّق العام 1920م. بتأسيس تجمّع ثقافي كبير هو «النادي الأدبي». ويتذكّر صديقه الشاعر محمد آل خليفة أن (الخيري): كان شغوفًا بالنادي الأدبي خاصة، فكان يفرغ من عمله في دار الحكومة

مساء، فإن استطاع أن يحصل على سفينة تقله إلى جزيرة المحرّق فعل، لذلك فقد كان يحدث في كثير من ليالي الأسبوع أن يحضر مع أصدقائه المحرّقيين من أعضاء النادي تلك الأمسيات الجميلة التي كانوا يقضونها في النادي، وقد يضطر في بعض ليالي تلك الأمسيات للبقاء في المحرّق وينام في أحد بيوت أصدقائه.

ويتذكّر محمد آل خليفة عن «الخيري» أيضًا: إنه كان، رحمه اللّه، دؤوبًا على العمل لإنهاض النادي، وهو المعروف بخطبه القيّمة في كل المناسبات الاحتفالية، التي كان يقيمها النادي لضيوفه من زعماء البلاد العربية ومفكّريها، مثل الزعيم التونسي عبدالعزيز الثعالبي والشيخ المجاهد محمد الشنقيطي، والأستاذ المفكّر أمين الريحاني وحافظ وهبة.

وعندما يعمل الخيري في دار الحكومة بالمنامة، تبدأ مرحلة مهمة في حياته العملية، فحين تبدأ مشاهد المفاضلة بين الوطنيين من جهة وبين مؤسسات الاستعمار البريطاني من جهة أخرى، كان الخيري قد تعزز مركزه الوظيفي، وأصبح بحكم وظيفته هذه في الضفة الأخرى المواجهة للوطنيين، وإن كان فيها قلبه وفكره معها، كما يتضح من رسائله.

غير أن ذلك لم يشفع له أن يصنّف أنه من غير فريق الوطنيين، وهنا لم يبق من أصدقائه في الحركة الوطنية إلّا قلة على رأسها الشيخ محمد بن إبراهيم آل خليفة وعلي الفاضل وخالد الفرج، الذين كان ناصر كثيرًا ما يبثّهم شكواه من ذلك التصنيف الظالم.

ورغم ذلك فموقف الخيري يزداد سوءًا، ليس بالنسبة له شخصيًّا بل بالنسبة لفكره الإصلاحي وموقفه الوطني المعتدل. وتفاقم هذا الإحراج حين كلّفته دار الاعتماد البريطاني في البحرين تلاوة

ترجمة بيان رئيس الخليج في الحفلة التي دعي إليها أعيان وشخصيات البحرين، ذلك البيان الذي تحدث عن تعيين المغفور له الشيح حمد بن عيسى آل خليفة حاكمًا للبحرين مكان والده.

غير أن الخيري لم يستطع ترك وظيفته بعد ذلك «لحراجة الموقف السياسي في البحرين آنذاك، بتدخل سلطة الحماية البريطانية الموغل في شؤون البحرين الداخلية».

بقي الخيري يمارس عمله في وظيفته، حتى بدأ يشعر بالألم في قلبه في أواخر العام 1924م. وهو يكتب وقتها الصفحات الأخيرة من كتابه (تاريخ البحرين).

وفي أحد أيام الشهر الأول من العام 1925م. ركضت ابنته الوحيدة إلى المستشفى الأميركي في المنامة لتخبر صديقه الطبيب الأميركي المعروف «ديم» عن شدة مرض والدها. وفي منتصف الطريق أوقفهم أحد جيران الخيري وأخبرهم بوفاته.

ناصر الخيري

الشيخ رشيد رضا

والمقتين وجعلها كنصوص الشارع هو الذي جعل اكثر كتب المتأخرين بمعزل بالغلو مبعدة عن حقيقة الدين

لا موضع للمراء في كون ضرب الناقوس للاعلام بالصلاة بدعة في عبادة هي أظهر شعائر الاسلام فتل هذا لا يحتاج القول بتحريمه الى دليل لانه معلوم من الدين بالضرورة والادلة العامة عليه كثيرة كقوله تعالى «أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله» وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث احمد ومسلم «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار» وتقدم المراد بالبدعة آنفا، وقوله (ص) في حديث الصحيحين عن عائشة «من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو ردّ» والمراد بأمرنا أمر ديننا فلا يرد ماقاله بعضهم في سائر الاحداث لنهالتربيا الاحكام الحسنة بل السوء في الحديث على ظاهره. على أنه لا يمكن لاحد ان يدعي ان جعل شعار دين النصارى شعارا دينيا للمسلمين من غير قسم الحرام. والا لجاز تغيير جميع شعائر الاسلام، والجمع بين الكفر والايمان

هذا وان من أراد أن يأخذ من كلام الفقهاء مايستدل به على ردة من يضرب الناقوس مستحلا له في مثل واقعة السؤال فانه لا يعوزه ذلك من كلامهم وقد كفر بعضهم من عمل ماهو دون ذلك. وناهيك بابن حجر الهيتمي الذي هو عمدة أهل جاوه في دينهم فانه شدد في المكفرات لتشديد الحنفية كما يعلم من كتابه (الاعلام في قواطع الاسلام) فانه ذكر كثيراً من المكفرات باللازم القريب بل البعيد جداً. وما لنا والتكفير والتوسعين فيه، حسبنا ان ننكر هذه الضلالة أشد الانكار ونحث كل من يصل اليه صوتنا في تلك البلاد على ازالتها ما استطاع الى ذلك سبيلا

***

﴿ عبادة نهر في البحرين بزؤيا امرأة ﴾

(س ٤٠) من صاحب الامضاء بجزيرة البحرين

(بسم الله الرحمن الرحيم)

سيدي الفاضل صاحب المنار المنير أدام الله وجوده

ثم سلام الله عليك ورضوانه وبعد فقد حدث في بلادنا توا حادث يستحق الذكر وذلك ان امرأة من عامة المسلمين ادعت ان أحد المشايخ او الأولياء على زعمها اتاها في المنام واخبرها أنه على مسافة نصف ميل من البلاد يوجد نهر جار (وهو كذلك اذ أن هذا النهر معروف من القدم) وعلى حافة النهر يوجد صخرة كبيرة (وهذه

من رسائل المثقف ناصر الخيري إلى مجلة «المنار» في يوليو/تموز 1911م

(التارج ٧ م١٤) نزعات الوثنية في المسلمين · حكمة الحجر الاسود ٥٠٧

بمشاهدة منذحين) وانه ضرب بيده تلك الصخرة فتفجر منها الماء العذب وامرها ان تخبر أهل البلاد كي يأتوا ويغتسلوا ويشربوا من هذا الماء لان كل من شرب أو اغتسل منه برئ من جميع العلل والعاهات . وبالفعل ان هذه المرأة أخبرت أهل البلاد بذلك فصدقها كثير من الناس وذهبوا الى ذلك النهر واخذوا يغتسلون ويشربون منه وينقلون منه الى القرى المجاورة وبسرعة البرق انتشر هذا الخبر باطراف البلاد فتهافت الناس على هذا النهر كتهافت القطا وعكفوا عليه عكوفهم على الحجر الاسود معتقدين فيه كاعتقادهم بالله حتى كثر الضجيج والازدحام عليه بما يفوق حد التصور حتى اصبح هذا النهر الصغير في بلادنا شبيهاً بنهر الكنج بالهند . ولقد ذهبت بنفسي مع بعض الاصدقاء لمشاهدة ذلك ولكثرة الزحام لم اقدر ان اتصل بذلك النهر الا بعد شق النفس فرأيت ان النهر لم يتغير عما كان عليه سابقا ولقد رثيت لحالة بعض الاطفال الذين يكادون يموتون غرقاً لكثرة ما تغطسهم امهاتهم في الماء ابتغاء البركة والتقديس فما قول سيدي الاستاذ في ذلك وهل الشرع يبيح مثل هذا . وهل من العدل أن يترك هؤلاء العامة على ضلالهم . اجيبوا عن ذلك على صفحات مناركم الزاهر ادامكم الله نبراسا يهتدي به من ضل عن محجة الصواب . واقبلوا في الختام فائق احترام

الداعي المخلص

ناصر مبارك الخيري

(ج) حاش لله لا يبيح دين التوحيد هذه الضلالة بل الوثنية الظاهرة وماجنبتنا والمسلمون قد لبسوا دينهم مقلوبا فانكر كثيرون منهم النفع والضرر من طريق الاسباب زعما منهم ان ذلك ينافي التوحيد الذي يحصر النفع والضرر على الخالق عز وجل ولذلك قصروا كلهم في علوم هذه الاسباب التي قوي بها غيرهم حتى سلبهم ملكهم ، والاسباب لاتنافي التوحيد بل تؤيده لانها سنن الله تعالى ، ولكن الذي ينافيه هو التماس النفع ودرء الضرر من المخلوقات التي جرت سنة الله بجعلها اسبابا عامة لذلك وهو ما فشا فيهم بتوسعهم باسم الكرامات فقدسوا الانهار والاشجار والاحجار، وطلبوا منها جلب المنافع ودرء المضار ، وهذه هي الوثنية الجلية بعينها، فتقديس نهركم ليس بالامر الذي لا نظير له عندهم بل له نظائر في جميع الاقطار الاسلامية أو اكثرها

جعل الحجر الاسود في الكعبة مبدأ المطاف لكيلا يختل النظام بطواف الناس من أماكن مختلفة فيختلط الحابل بالنابل فصار بذلك من شعائر الحج وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنده «إني لأعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع» وكذا ابو بكر راو مابن

الصحافي والأديب عبدالله الزائد
اللآلئ تصدر الصحف..
والشعر يُلقى في «عصر المضحكات»

في صباح أحد أيام العام 1894م انتزع علي الزائد: تاجر اللؤلؤ المعروف، ورقة تاريخ ذلك اليوم من روزنامته المعلّقة على جدار الغرفة، وكتب عليها بضع كلمات تقول: «ولادة عبداللّه علي الزائد».

بعد سنوات عدّة ، يكمل عبداللّه عادة تسجيل الأحداث المهمة على ورق الروزنامة ذاتها، كما كان يفعل والده في السابق. فلقد أصبح تاجرًا معروفًا في سوق اللؤلؤ المزدهر في البحرين في العشرينات، بعد أن أكمل دراسته في مدرسة الشيخ «محمد صالح» الأهلية خلال سنتين. تعلّم فيها أصول اللغة العربية والعروض والحساب. واستفاد منها بزمالته لبعض المثقفين أمثال: الشيخ إبراهيم الخليفة وعبدالوهاب الزياني وغيرهما.

مع بداية عمله التجاري وزمالته لهؤلاء المثقفين، تبدأ اهتماماته الثقافية الفكرية في البروز. حيث يستفيد من زياراته المتكررة للهند، التي بدأها من العام 1918م فيقضي كل وقته المتبقي بعد العمل في قراءة روائع «طاغور» و«إقبال» الشعرية المنشورة في الصحف الهندية، إضافة إلى فلسفة «غاندي» وتعاليمه في ثورويته السلمية على الإنكليز، ومرافعات المحامي محمد علي جناح.

لكن إحدى زياراته للهند (التي يستفيد منها) تُوْقِعُهُ في مشكلة كبيرة أيضًا! فعندما يشتري من أحد تجار الهند في بومباي «ملا إبراهيم» لؤلؤة ثمينة ويرجع بها إلى البحرين، يكتشف بعد أن باعها لتاجر بحريني أنها لؤلؤة مزيّفة خُدع في شرائها. وعندما لم يستطع الزائد والتاجر التفاهم على هذه المشكلة، قدّم الثاني شكواه للمحكمة، التي قضت بنفي الزائد سنتين إلى الهند، واعتبرت المشكلة قضية خطيرة على سمعة تجار اللؤلؤ، ركيزة الاقتصاد البحريني آنذاك.

ومرة أخرى، يستفيد الزائد من نفيه في الهند، عبر مطالعات مكثّفة لكل ما يتوفر عنده من الأدب العربي وحتى الأجنبي، ثم يستفيد من وجوده في الخارج، فيزور البلاد العربية، ويبقى في بعضها شهورًا عدة، كمصر التي ينتهز فرصة بقائه فيها ليتصل بمفكّريها وأدبائها، مثل: الشيخ رشيد رضا وطه حسين وعباس محمود العقاد، كما تعطيه سنوات النفي الفرصة لزيارة بعض الدول الأوروبية، كفرنسا وبريطانيا وإيطاليا.

بعد ثلاث سنوات فقط من رجوعه إلى البحرين، يبدأ في العام 1934م الاستعداد لاستقدام أول مطبعة آلية حديثة إلى البحرين، هذا المشروع الكبير، الذي يتطلّب منه بيع كل ما لديه من لآلئ وابتعاث أحد أصدقائه لإهداء بعضها إلى أمراء الخليج.

وعند عودة راشد الجلاهمة، المبتعث في بغداد، من قبل الزائد لتعلم فن الطباعة، وجد آلات الطباعة قد وصلت من أوروبا وأن مطبعة البحرين قد بدأت العمل فعلاً بإنجاز بعض المطبوعات التجارية والحكومية. ثم وجد الزائد بعد سنوات عدة، أن أول دار للطباعة في منطقة الخليج بإمكانها أن تحقّق طموحه الصحافي.

وهكذا عاد مرة ثانية لنفس العادة القديمة في تسجيل الأحداث المهمة، حيث كتب في يوم التاسع من شهر مارس/آذار من عام 1939م على ظهر ورقة الروزنامة بضع كلمات تقول: صدور جريدة البحرين: أول جريدة في منطقة الخليج.

أما الكلمات الأخرى، التي لم تتسع لها ورقة الروزنامة الصغيرة، فكانت: جريدة يومية تصدر موقتًا مرة كل أسبوع، ثمن النسخة الواحدة: آنة واحدة، الاشتراك السنوي: أربع روبيات داخليًا، وعشرة روبيات خارجيًا.

أما الزائد فحسبه - كما كان يقول أصدقاؤه - أنه حقّق أمنية اختزنت في ذهنه سنوات عدة، قبل أن تبرز إلى حيِّز الوجود حقيقة واقعة وأمنية كان يهدف من ورائها خدمة بلاده عن طريق جديد عليها: طريق الصحافة.

وعبّر الزائد عن هوية جريدته فقال في افتتاحية العدد الأول منها ما نصّه: «لقد صمّمت على جعل هذه الجريدة حرّة لا تُستعبد لأحد كائنًا من كان، صريحة لا تعرف الرياء ولا النفاق. ستقول عن الأبيض أبيض وعن الأسود إنه أسود. وإذا اضطرتها الظروف إلى السكوت، فهي على كل حال لن تسمِّي الأبيض بالأسود. ولن تكون لها عين للتطلع إلى عورات الناس الشخصية، ولا أذن لسماع الوشاية المغرضة. ولا يد لاستجداء المال، أو ابتزازه، ولا رجل للسعي لغير الصالح العام. وأخيرًا لن يكون لها قلب ينبض بغير حب العروبة والوطن. فإن عاشت فلهما، وإن ماتت ففي سبيلهما. وهي تؤمل بعطف الأهالي، وتشجيع الشباب أن تؤدي رسالتها على أكمل الوجوه . وترجو من الهيئات والأفراد أن لا ينظروا إلى النقد البريء في سبيل الصالح العام بعين ضيّقة، فلن يكون الإصلاح في

المستقبل إلا بمعرفة عيوب الحاضر، ولولا الخطأ ما عُرف الصواب. هذه الجريدة ستكون منبرًا عامًّا ليس لأبناء البحرين فقط، ولكن لجميع أبناء الخليج والجزيرة العربية.

وما إن صدر العدد الأول من جريدة «البحرين» حتى تلقّفه القرّاء في البحرين وإمارات الخليج والبلاد العربية الأخرى المجاورة، التي استطاعت الجريدة الوصول إليها، بالإضافة إلى مدينة بومباي بالهند. وانهالت على مكتب الجريدة في المنامة عشرات الرسائل من القرّاء من داخل البلاد وخارجها، وكلها تحمل آيات الثناء والتأييد والإعجاب بجريدة الزائد الجديدة.

وينتظم صدور «البحرين» بالتوزيع المتواضع، الذي لا يتجاوز الثلاثة آلاف نسخة، والإمكانات المتواضعة، والتي (كان عبداللّه يمارس تنفيذ هوايته الصحافية، في تحريره لوحده جميع صفحات جريدته. ولخفاء هذا الأمر عن كثير من المثقفين ـ آنذاك ـ فإن بعض هؤلاء كثيرًا ما صارحوه بدهشتهم لقيامه وحده بتحرير الجريدة وتبويبها)، كما يقول المؤرخ مبارك الخاطر في كتابه عن الزائد.

لكن مجيء الحرب العالمية الثانية، خلق مناخها أيضًا على الجريدة، فخرجت إلى الناس، وجلّ صفحاتها تكاد تكون محشوّة بأخبار الحرب ودعايتها لمصلحة الحلفاء. إضافة إلى وضعها تحت رقابة السلطات البريطانية.

وخارج جريدة «البحرين» كان الزائد من أكثر شخصيات البحرين عملًا في المجال الاجتماعي والوطني والقومي. فيتزعم الزائد مشروع إعانة الفقير، ويسخّر جريدته لهذا المشروع الخيري والوطني.

ويروي صدقه راشد الجلاهمة حكاية ذلك المشروع قائلًا: «ذهبت في أحد الأيام إلى المطبعة متأخرًا جدًّا، فسألني الزائد عن سبب تأخيري هذا وألح في السؤال. فأجبته بأني قد سهرت وزوجتي عند جارنا الفقير المعدم، حيث كان مثقلاً بالمرض، وقد طرق زوجته المخاض. فلم يتركهما إلا حين انبثق الفجر، بعد أو وضعت المرأة طفلاً جميلاً، وكذلك خفّت وطأة الحمى عن الزوج، بما قمنا به من إسعافات أولية».

وقلت له أيضًا: «لقد كان بيت جارنا خاليًا من متاع الدنيا، ولا سراج به يبدد عنه ظلمة الليل. وقد أعطيناه سراجاً وبعض المؤن. وفي نيتنا أن نستمرّ في رعايتنا له ولزوجته حتى يتعافيا».

وقال الجلاهمة: «كنت أودّ أن لا أسرد للزائد هذه القصة، لاعتبارات أدبية، ولأن الزائد كان عطوفًا عامرًا قلبه بالرأفة على الفقراء، ولكنه ألحَّ عليَّ فذكرت الحادثة له. فما كدت أتمها حتى انكفأ يبكي ويكفكف من دموعه، لئلا تسقط على ما أمامه من أوراق فوق مكتبه. وإنه لكذلك إذ قال لي: اكتب يا راشد، وأخذ يملي علي، ومدير الطبع يستعجلنا؛ فالجريدة على وشك الصدور، حتى أملى علي الزائد في موضع «إسعاف الفقير» ما حملته جريدة ذلك العدد إلى قرائها من شعور زاخر بالعاطفة المشفقة على فقراء الأمة ومعدميها».

بعد نشر المقال في إسعاف الفقير، قابل الزائد شيوخ البلاد وأعيانها مقترحًا وداعيًا إلى تأليف هيئة أهلية لإسعاف الفقراء في البلاد، فاستجابت له مجموعة من أمراء البلاد وأعيانها، ثم تألفت الهيئة المقترحة واتخذت بلدية المنامة مقرًّا لها.

ويتحقق مشروع الزائد لإعانة الفقير في البحرين، وتظهر إلى

الوجود هيئته المقترحة، وتبدأ أعمالها فتختار الزائد أمين سر لها. وقامت هذه الهيئة بجمع التبرعات من أهل البلاد وأنقذت بها كثيرًا من الأسر المعوزة، كما يقول المؤرخ مبارك الخاطر.

على الصعيد الوطني والقومي، يتزعم الزائد مشروع دعم القضية الفلسطينية. فبعد ثورة 1936م. في فلسطين والانتكاسة التي حلّت بها، قام الزائد ومعه مجموعة من المثقفين والتجار البحرينيين بالتنادي لدعم الشعب الفلسطيني، وقاموا بمبادرة الاكتتاب لإغاثة الفلسطينيين. وبعد عملٍ شاقٍّ من الزائد ومجموعة الوطنيين في البحرين، تألفت في المنامة لجنة عرفت باسم «لجنة إغاثة أيتام فلسطين»، تولى رئاستها المرحوم الشيخ عبداللّه بن عيسى آل خليفة، وزير المعارف آنذاك، بينما تولى أمانة الصندوق المحسن النجدي المعروف عبدالعزيز العلي البسام، أما أمانة السر فقد أنيطت بعبداللّه الزائد.

تمكنت هذه اللجنة من جمع نحو ثلاثين ألف روبية، حُولت إلى جنيهات مصرية، وأُرسلت بصكٍّ حوالة إلى رئيس اللجنة العربية العليا لإغاثة منكوبي فلسطين في القاهرة، وورد وصل بذلك المبلغ من اللجنة في مصر إلى اللجنة الأهلية بالبحرين.

مما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن المبلغ الذي تبرّع به أهل البحرين لمنكوبي فلسطين، دفعوه عن حماسة، برغم أنهم كانوا في حالة اقتصادية سيئة آنذاك.

وبالرغم من المشكلات الكثيرة التي واجهت جريدة «البحرين»، فقد بقيت المنبر الصحافي الوحيد لمنطقة الخليج، حيث راحت تنشر كتابات أدباء الكويت، مثل: عبدالرزاق البصير وغيره، وتابعت حوادث الشارقة ودبي في عامي 1939 و1940م.

لكن الغريب أن الزائد نفسه لم يعتبرها كذلك، فلم ينشر فيها نتاجاته الشعرية، وهو الأديب المعروف، والعضو النشيط في النادي الأدبي بالمحرّق.

لذلك يختار مسابقات إذاعة لندن الشعرية، ليقول في إحدى قصائده:

«يقولون إن الشرق والغرب ضدانِ ... وليس لهم فيما أدعو أي برهانِ
شقيقان مذ كانا قرينان دائمًا ... هما في فنون العلم والدرس صنوانِ
لقد أصبحا بعد اختلافٍ وفرقةٍ ... شريكين في دفع العنوّ من الجاني»

ورغم نشاط الزائد الصاخب في العمل الوطني والصحافي والاجتماعي، إلّا أنه لم ينس تذوقه للشعر وحبه القديم له. والأهم أنه لم ينس أنه شاعر قبل أن يكون أي شيء آخر.

ففي منتصف العشرينيات يلقي الزائد قصيدة سماها «الحقيقة المرة» تحية لضيف البحرين الكبير «أمين الريحاني» يقول فيها:

«أمين الشرق جبتَ الأرض، قل لي: ... أَقَوْمٌ في المشارق أم نساءُ؟
ثيابُ العزِّ مزّقها التعادي ... وصرحُ المجدِ جدَّ به العفاءُ
غنيهمُ: بخيلٌ، والمداوي ... عليلٌ، والأجانب أولياءُ
مفتحة عيونهمُ نيامٌ ... أنومٌ أم ذهولٌ أم فناءُ؟
فيا للشرقِ من داءِ التواني ... أطال به على الضيمِ الثواءُ
مُضلونا الكثير ومُرشدونا ... قليلٌ لا يجاب لهم دعاءُ
شبابَ الشرقِ جدًّا واتحادًا ... فإن الأمر جدٌّ واعتناءُ
شبابَ الشرقِ إن لم تجر بحرًا ... لأجل حياته منكم دماءُ
فلا عشتم ولا جادت بنبت ... أراضيكم ولا هطلت سماءُ

ألا تُعس امرؤ بلهبه أمرٌ يشرّف قومَه العيشُ الرخاءُ»

ويلقي الزائد في النادي الأدبي بالمحرّق العام 1922م. قصيدة نالت شهرة كبيرة، تحمل اسم «عصر المضحكات»، يتألم فيها من واقع العرب حينها قائلاً:

على المجد مكسوفًا على المجد خاسفًا على الحق مكسور الجناح طعينا
تذكرت أسلافًا لنا لو تنبهوا لفاض بهم ماءُ الحياة معينا
أناديهُمُ والجسم يسحقه الأسى وللقلب قفزاتٌ ترنُّ رنينا
ألا فانظروا بين الرجام بنيكمُ يجرعهم دار الشقاء رجينا
فنحن بعصر المضحكات شؤونه يعيش عزيزًا من يعيش خؤونا»

على صعيد جريدة «البحرين» تستمر الجريدة في الصدور رغم مناخ الحرب، وشحة الإمكانات حتى العام 1944م. حيث يتجاهل الزائد في أحد الأعداد رفض الرقابة لنشر موضوعه عن وحدة إمارات الخليج، ويأمر بنشره، لتصدر السلطة المسؤولة قرارها بإيقاف الجريدة. لكن الزائد يتفق مع الرقابة في أن يصدر عددين آخرين، ليوقفها هو نهائيًا بحجة «أزمة الورق في العالم»، ولتكتب الجريدة في مارس/آذار 1944م.: «إن جريدة البحرين تعلن لقرائها الكرام: أن هذا العدد هو آخر عدد يصدر منها، وستحتجب حتى انفراج أزمة الورق. وعندما انتهت السنة الأولى من إغلاق الجريدة، بدأ الزائد يعاني من المرض، الذي راح يلازمه، ويقول الزائد وهو على فراش مرضه الأخير:

«مللت الحياة وكثر السهرْ ورمت الممات وسُكنى الحفرْ
ففي الموت بُعدٌ عن النائبات إذا ما الزمان جفا أو غدرْ
وفي الموت قصفٌ لسهم القضا وفي الموت كسرٌ لسيف القدرْ

غـريـبُ الـديـارِ خـلـيُّ الـوفـاضِ فـلا لـي صـحـبٌ ولا لـي مـقـرْ
هـنـالـك تـحـت سـجـف الـظـلام وفـوق فـراش الـثـرى والـحـجـرْ
تـرى الـقـلـب بـارحَ كـل الـهـمـومِ وعـاد إلـى رُشـده واسـتـقـرْ
لـقـد عـفـت كـل أمـانـي الـشـبـاب ولـمـا أعـش مـثـل عُـيـش الـزهـرْ
ومـلّ فـؤادي عـراك الـحـيـاة كـأنـي شـيـخٌ رذيـل الـعـمـرْ
ومـالـت بـعـودي دواعـي الـشـجـون فـحـطـت شـبـابًـا زهـا وازدهـرْ
ولـم آلُ جـهـدًا ولـكـنـه هـو الـدهـر - يـا صـاح - فـظٌّ بـطـرْ
أروم الأمـانـي وأسـعـى لـهـا فـألـقـى سـرابًـا وشـؤمًـا وشـرْ»

لم يمهله المرض كثيرًا فتوفي، وعندها كتب أحد أصدقائه الأولياء على ورقة روزنامة «الزائد» وللمرة الأخيرة: «اليوم الخامس من شهر مايو/أيار من العام 1945م. وفاة الأديب الصحافي عبداللّه الزائد».

الأديب عبدالله الزائد

طبعة
البحرين
لصاحبها
عبدالله بن علي آل زايد
تطبع
الكتب والرسائل وغيرها بأسعار معاوده
وسرعة وإتقان وتصحيح مكمل والشروط سهله موافقه

جريدة البحرين

المطرب الشهير محمد زويد:
جسد ناحل .. وقلب جريح

لم يكن المقرئ البحريني «سيد علي الهولي» المسؤول عن المدرسة الصغيرة لحفظ القرآن في مدينة المحرّق، صاحب أذن موسيقية تستطيع تمييز بعض الأصوات الجميلة بين طلّابه، لأنه كان يعتبر مهمته تتركّز في تخريج الأطفال، أي الختمة فقط، بحفظ القرآن الكريم كله عن ظهر قلب.

لذلك لم يحتفظ المقرئ بأحد تلاميذه محمد زويد، الذي ترك الدراسة وذهب إلى مدرسة أهل الخليج الكبيرة «الغوص» التي يقوم فيها بكل أعمال المهنة، من «التبابة» و«الغوص» حتى يجد فرصة ليكون «نهّام» سفينته عندما أهلّه صوته الشجي وحنجرته القوية للقيام بذلك، كما يذكر أحد أصدقائه القدامى.. وليسامر الغوّاصين في كل ليلة بأغاني البحرين وبإنشاد عذاباتهم.

لكنه بعد عام واحد فقط يترك البحر، لازدياد ولعه بالغناء، واكتشافه المبكر أنه لا يصلح للغوص ولا لفلق المحار. وعندما تقوده خطواته إلى دار محمد بن فارس في حي بمبي القريب من بيته، ليتعلّم عزف العود على يديّ محمد بن فارس نظير قيامه ببعض حوائجه.

كانت خطوات زويد إلى هذه الدار تكملة طبيعية للخطوات السابقة والمتشكّلة في نهاية طبيعية لرغبة كانت تشّده شدًّا إلى كل ما له

علاقة بالطرب. ومع دخول زويد دار محمد بن فارس كانت أجهزة «الفونوغراف» والأسطوانات تصدح بأغاني سيد درويش وغيرها في دور الطرق التي جمعت الكثير من الفنّانين والغواصين والأهالي. حيث كانوا يتخذونها أماكن للترفيه بعد العودة من موسم الغوص. ودور أهل الطرب والشعراء مثل دار ابن فارس ويطلق عليها دار السلام، ودار الخضاري (لبنان)، ودار محمد بن فارس (البصرة).

علاوة على ظهور مجموعة من الشعراء والفنانين مثل الشاعرين الكويتيين خالد الفرج وفهد بورسلي ومطربين مثل: محمد بن فارس، ضاحي بن وليد، وعبداللطيف الكويتي.

في دار أستاذه ابن فارس دندن زويد بأول تقاسيم العود الذي برع فيه في فترة وجيزة، حتى اعتبره (الأستاذ) فناناً بارزاً يشاركه الغناء في داره.

ثم بدأ (الفنان) يعزف أول تقاسيم أغنياته في سهرات بعض الفنّانين الخاصة وفي حفلات الزواج، لقاء مبلغ لا يزيد على عشر روبيات رغم ما عُرف عنه من استعداد لتلبية جميع الطلبات وقبوله إحياء هذه الحفلات من دون ترفّع وحرصه على مواعيدها. واستمراره الغناء من دون انقطاع حتى يطلب منه التوقف.

في العام 1929م. يجد تلميذ ابن فارس الفرصة لتسجيل أولى أغنياته سلام يا زين واثنتي عشرة أغنية أخرى عن طريق شركة بيضافون في بغداد، التي يتردد إليها كثير من زملائه المطربين. ويضطرون للبقاء فيها لمدة طويلة بسبب صعوبة المواصلات في تلك الأيام. لكن زويد مدين لهذه الفترات الطويلة في بغداد. فقد ساعدته على الاطلاع على الفن الغنائي العراقي والتأثر بالألحان والمقامات العراقية، والاقتباس منها وغناء بعضها.

ويذكر أحد العاملين آنذاك في إذاعة البحرين، التي بدأت بثّها العام 1940م. أن: أغاني محمد فارس ومحمد زويد وضاحي بن وليد كانت تُذاع فيها باستمرار عندما كان البثّ مباشرًا، وكان المطربون الثلاثة يتناوبون الغناء كل مساء، وحينما تبدأ أصواتهم تصدح عبر الأثير، كانت المقاهي تعجّ بالمعجبين، يتحلّقون حول أجهزة الراديو، شخصيات من أمثال عبدالله بو شيخة، علي خالد، أحمد خالد وغيرهم ممن كانت تلك الأمسيات مدخلهم إلى عالم الغناء الذي ولجوه في فترة لاحقة.

ويضطر زويد بعد توقف الإذاعة في العام نفسه إلى الترحال مرة أخرى وتحمّل مشاق السفر لتسجيل أغنياته التي وجدت بعدها آذاناً صاغية في جميع دول المنطقة.

وبوفاة الأستاذ محمد فارس العام 1947م. يدخل زويد مرحلة جديدة من حياته الفنية، فيعمد إلى استئجار دار فارس لتؤدي الدور نفسه السابق. ويبدأ نجم محمد زويد يسطع في الأفق بعد رحيل أستاذه. حيث اعتبر زويد أحسن من أدّى فن الغناء بعد فارس وابن وليد كما يقول المطرب محمد علّايه.

وتجيء سنوات الخمسينيات ليجوب زويد منطقة الخليج كلها ملبّياً دعوات أهلها للغناء. وتساعد إذاعة البحرين التي أُعيد افتتاحها العام 1955م. على انتشار أغانيه إضافة إلى تطور آلات التسجيل والأسطوانات بحيث أصبحت أصغر حجماً وأكثر انتشاراً.

ومن بغداد في الثلاثينيّات إلى القاهرة العام 1957م. يسجّل في صوت العرب مجموعة جديدة من أغانيه، ويلتقي هناك الفنان المصري كارم محمود، ثم يذهب إلى بيروت في العام نفسه، حيث

يلتقي الفنان فريد الأطرش الذي يُعجب بصوت زويد ويقول عنه: إن في صوت زويد رنة لطيفة.

كانت سنوات الستينيّات قمة الفن الغنائي لزويد فلقد أصبح ينافس الفنان العراقي المشهور حضيري أبو عزيز، المطرب المحبوب لدى أهل المنطقة، وصارت الإذاعات الخليجية تخصّص له وصلات غنائية طويلة في يوم الجمعة من كل أسبوع.

وفي الفترة نفسها يستعين زويد لأول مرة بإحدى الفرق الموسيقية البحرينية، «أسرة هواة الفن» التي شاركته في جولاته الغنائية في الخليج وبعض الدول العربية، حيث تعزف له على آلة القانون والكمان بعد أن كان يعتمد على العود والمراويس، ويستمر زويد في الغناء وفي الجولات وإحياء الحفلات حتى تخطّيه الخامسة والسبعين من عمره وحتى يسكت صوت زويد عن الغناء عندما يدركه الأجل صباح اليوم السادس من شهر يونيو/حزيران العام 1982م.

نشرت الصحف في ذلك الوقت خبرًا خجولًا في صفحاتها الأخيرة بعنوان: رحل آخر رواد الفن الخليجي، يقول: استمر الفنان محمد زويد متشبثًا بالعود والعود متشبثًا به إلى أن تراخت يداه وعجزت رجلاه عن حمله بعد أن ضعف بصره وكبرت سنه وبقي في بيت أحد أبنائه الثلاثة الذين رافقوه في مسيرته الفنية وورثوا عنه حبّ الغناء.

ترك زويد إرثًا غنائيًا بلغ حوالي ثلاثمائة أغنية سجّل منها لإذاعة البحرين نحو مائة وخمس وثلاثين أغنية بين مقام وصوت وبستة، ومدة هذه الأغاني خمس وعشرون ساعة. لم ينقطع عشاق فنه عن زيارته فهم يترددون عليه باستمرار ومن كافة دول الخليج

للاطمئنان على صحته، حتى توفي في اليوم السادس من شهر يونيو/ حزيران من العام 1982م، عن عمر يناهز اثنين وثمانين عامًا.

كانت آخر حفلة شارك فيها الفنان زويد هي الحفلة التكريمية التي أقامتها وزارة الإعلام البحرينية تقديراً له في العام 1978م، حيث قدّمت له الهدايا التقديرية التي أسهم فيها معظم المؤسسات البحرينية.

وعندما يذكر المطرب علي خالد أن شهرة زويد ملأت الآفاق إلى درجة أن أحد الصحافيين الغربيين بحث عن زويد في جميع بلدان الخليج إلى أن وجده في إحدى الحفلات بدولة الإمارات وطلب مقابلته، بعد أن شرح له المشاق التي تحمّلها في سبيل العثور عليه. أما صديقه الكويتي فاضل مقامس فيقول: بالرغم من الجهود التي بذلها زويد من أجل الحفاظ على مستوى الفن الغنائي الخليجي والعمل على نشره على مستوى واسع، إلا أنه لم يُقدّر التقدير الذي يستحقّه.

رحل جسد المطرب الناحل محمد زويد، وبقيت أغانيه عصيَّة على الرحيل من ذاكرة الخليج ودندنات العود العذبة.

محمد زويد ومعه الفرقة البحرينية يغني في بغداد نهاية العشرينيات

ائتلاف شباب ثورة 14 فبراير
مركز لؤلؤة البحرين للدراسات والبحوث

محمد زويد يغني في إذاعة البحرين بالخمسينيات

ائتلاف شباب ثورة 14 فبراير
مركز لؤلؤة البحرين للدراسات والبحوث

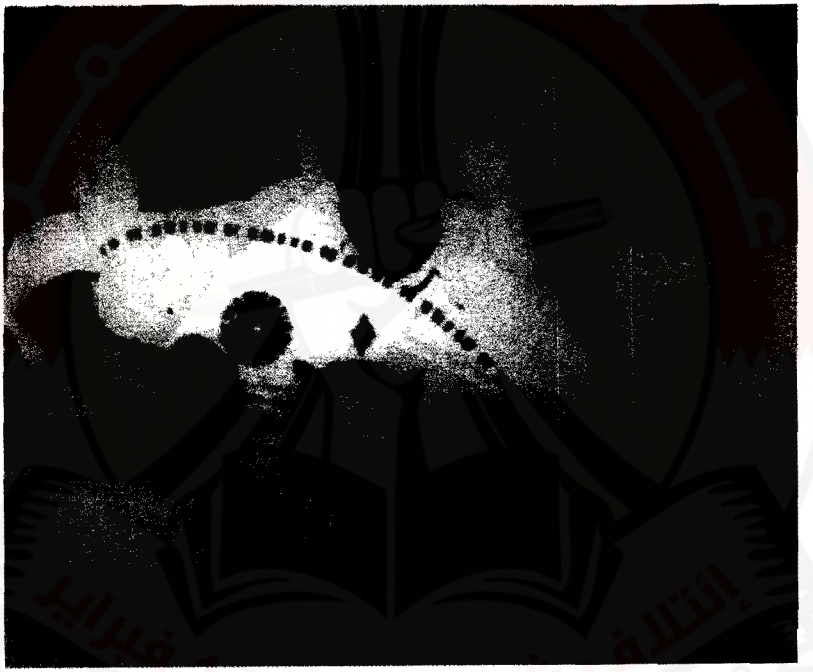

محمد زويد يدندن بالعود

مركز لؤلؤة البحرين للدراسات والبحوث

الفهارس العامة

ائتلاف شباب ثورة 14 فبراير
مركز لؤلؤة البحرين للدراسات والبحوث

ائتلاف شباب ثورة 14 فبراير
مركز لؤلؤة البحرين للدراسات والبحوث

فهرس الأعلام

أ

إبراهيم (ملا): 196.

إبراهيم العريض: 8، 11، 12، 13، 14، 15، 16، 17، 18، 19، 20، 21، 23، 24، 25، 26، 27، 29، 30، 32، 33، 34، 35، 36، 37، 38، 41، 42، 43، 46، 47، 48، 144.

إبراهيم بن محمد الخليفة: 173، 195.

إبراهيم عبدالله غلوم (د): 24.

إبراهيم يعقوب: 93.

ابن الأثير: 181.

ابن حجر الهيتمي: 193.

أبو بكر الصديق: 128.

أبو حنيفة: 185.

أبو نواس: 40، 82.

أبو يوسف: 185.

أحمد الخطيب: 116.

أحمد الزياني: 130.

أحمد الشوملي: 83، 89، 96.

أحمد الصافي النجفي: 29.

أحمد الصاوي: 93.

أحمد العصفور: 174.

أحمد العطاس: 130.

أحمد بن لاحج: 74، 78.

أحمد بن مهزع (الأزهري): 179.

أحمد جاسم: 108.

أحمد حسن الزيات: 24، 29، 94.

أحمد خالد: 209.

أحمد زكي (أبوشادي): 35.

أحمد ياسين: 143.

أحمد يتيم: 107، 108، 112.

أدريان فالانس: 79.

أردشير بن بابك: 180، 181.

إسحاق الموصلي: 22.

أفشتين: 23.

ألبير أديب: 29.
أم المعتصم: 23.
أم كلثوم: 83، 142، 143، 150.
أمين الحسيني: 35.
أمين الريحاني: 173، 190، 201.

ب

باقر خريبط: 115.
بدر الحداد: 78.
برهان الدين فروغي: 132.
البستاني: 38.
بشير أحمد: 57.
بلغريف: 105، 111، 112، 113.

ت

توفل: 24.

ج

جاسم العمراني: 141، 142.
جاسم القطامي: 116.
جاسم زباري: 143.
جليل إبراهيم العريض: 12.
جمال عبد الناصر: 31، 32، 46، 47، 107، 109، 110، 111، 112، 113.
جميل بشير: 142.
جورج طليا: 143، 144.

ح

حافظ وهبة: 190.
حجي الزياني: 70.
حسن المدني: 93.
حسن جواد الجشي: 22، 23، 89، 93، 94، 97، 98.
حسن كمال: 150.
حسين منديل: 93.
حضيري أبو عزيز: 210.
حمد الرحيب: 114.
حمد السعيدان: 115.
حمد بن عيسى آلخليفة: 23، 191.

خ

خالد (الشيخ): 89.
خالد البسام: 170.
خالد الفرج: 190، 208.
خالد المسعودي: 114.

خالد لمشاري: 56، 57.
خليفة مطر: 142.
خليل المؤيد: 175.
خليل ترابي: 132.

د

درويش المقدادي: 21.
دعد (ابنة إبراهيم العريض): 11.
ديم (طبيب): 191.

ر

راشد الجلاهمة: 196، 199.
الرافعي: 82.
رشيد رضا: 175، 176، 183، 184، 185، 189، 192، 196.
رضا الموسوي: 22، 112.

ز

زكي طليمات: 163.
زكي مبارك: 93.
الزهاوي: 39.
زويمر: 136.
زيد الأطرش: 147، 150، 210.

س

سابور بن أردشير: 181.
سالم العريض: 27.
ستورن (د): 134، 137، 138.
سعد الشملان: 49، 50، 51، 52، 53، 54، 55، 62، 175.
سعد تقي الدين: 152.
سعد زغلول: 83.
سعيد طبارة: 81.
سفنديار: 68.
سلامة موسى: 34.
سلمان التاجر: 8، 171، 172، 175، 176، 177، 179.
سلمان الصباغ: 143.
سلمان كانو: 93.
سنطروقيس: 181.
سيد درويش: 208.

ش

الشافعي: 185.
شيخان الفارسي: 78.

ص

الصافي: 39.

صالح شهاب: 78.
الصراف: 39.
صقر الرشود: 118.

ط

طه حسين: 82، 196.

ع

عباس محمود العقاد: 82، 196.
عبد العزيز السريع: 118.
عبد العزيز الشملان: 8.
عبد الوهاب الزياني: 53، 56، 195.
عبدالحسين سبكار: 132.
عبدالحميد الشتر: 93.
عبدالرحمن الباكر: 22.
عبدالرحمن تقي: 22.
عبدالرحمن الجودر: 83، 89.
عبدالرحمن الداخل: 72.
عبدالرحمن كانو: 93.
عبدالرحمن الكواكبي: 176، 187.
عبدالرحمن المؤيد: 22.
عبدالرحمن المعاودة: 69، 70، 71، 75، 78، 104، 144.
عبدالرحمن الناصر: 152.
عبدالرزاق البصير: 200.
عبدالرسول التاجر: 22، 23.
عبدالستار القرغولي: 16.
عبدالعزيز حسين: 114.
عبدالعزيز البسام: 22، 200.
عبدالعزيز الثعالبي: 190.
عبدالعزيز الخضر: 131.
عبدالعزيز الشملان: 49، 50، 51، 52، 53، 54، 55، 56، 57، 58، 59، 60، 61، 100.
عبدالعزيز الشيخ علي: 108.
عبدالقادر الحجازي: 57.
عبدالكريم قاسم: 162.
عبداللطيف الشملان: 52، 57، 58.
عبداللطيف الكويتي: 203.
عبدالله (الشيخ): 21.
عبدالله بن جمعة: 179.
عبدالله بن عيسى: 72، 127، 200.
عبدالله الباكر: 22.
عبدالله الحمد: 78.
عبدالله الشروقي: 131.

عبدالله بو شيخة: 209.
عبدالله جميل: 69.
عبدالله الزائد: 8، 195، 196، 197، 198، 199، 200، 201، 202، 203، 205.
عبدالله عاشور: 65.
عبدالله الكارش: 21.
عبدالله مبارك الصباح: 121.
عبدالنبي سبكار: 132.
عبدالوهاب: 147.
عبيد اليماني: 150، 151.
عثمان الحوراني: 20.
عرابي باشا: 83.
علي ابن الشيخ: 89.
علي حسين خلفان: 22.
علي خالد: 209، 211.
علي السبتي: 108، 115.
علي سيار: 8، 63، 64، 69، 70، 71، 76، 83، 89، 96، 105، 106، 114، 119.
علي الفاضل: 175، 190.
علي فخرو (د): 22.
علي كانو: 175.
علي المسقطي: 93.
علي الهولي: 207.
عمر الخيام: 38، 39، 40، 41.
عمر يحيى: 16.
عيسى المحيمد: 89.

غ

غازي (الملك): 76.
غسان كنفاني: 116، 117.

ف

فؤاد باشا: 182.
فؤاد صروف: 34.
فائق أدهم: 20.
فاروق (الملك): 63، 96، 97، 109.
فاضل مقامس: 211.
فجحان هلال المطيري: 117.
فدوى طوقان: 28، 36، 37.
فهد الظاعن: 89.
فهد بورسلي: 208.
فيتزجيرالد: 38، 39، 40.

ق

قاسم الشيراوي: 53.
قاسم المهزع: 175، 189.

ك

كارم محمود: 209.
كارنيك جورج ميناسيان: 106.
كلايف ديلي: 49.
كمال المهزع: 79.
كندي: 134.

م

مؤيد أحمد مؤيد: 105، 106، 107.
مالك: 185.
المأمون: 23.
مبارك الخاطر: 182، 189، 198، 200.
المتنبي: 82.
محمد الباكر: 175.
محمد بن إبراهيم آل خليفة: 190.
محمد التابعي: 91.
محمد التاجر: 175.
محمد السديراوي: 54.
محمد الشنقيطي: 190.
محمد العريض: 175.
محمد بن عيسى آل خليفة: 189، 190.
محمد بن فارس: 144، 207، 208، 209.
محمد بن هارون الرشيد: 23.
محمد بو زيد: 70.
محمد جلال: 70.
محمد دويغر: 27.
محمد زويد: 8، 144، 150، 207، 209، 210، 211، 212، 213، 214.
محمد سعيد الجمعة: 15.
محمد صالح: 175، 195.
محمد طيب خنجي: 160.
محمد عبده: 85، 176.
محمد علايه: 209.
محمد علي جناح: 54، 195.
محمد علي أفندي يحيى السعيد: 174.
محمد علي التاجر: 16.
محمد علي خميس: 23.
محمد علي زينل: 57.
محمد علي: 57.
محمد متولي: 156، 157.
محمدﷺ: 16، 186.
محمود المردي: 100، 101، 102، 106، 107، 108، 119، 153، 158.

مختار باشا الغازي: 181.
مصطفى علام: 96.
مطر علي مطر: 89.
المعتصم: 23، 24.
المعري: 82.
منصور العريض: 21.
منصور سرحان: 11، 12.
المنفلوطي: 82.
منير بشير: 142.
المهاتما غاندي: 54، 195.
موشي ديان زاده: 100.

ن

نازك الملائكة: 28، 33.
ناصر الخيري: 8، 175، 179، 180، 182، 183، 184، 185، 188، 189، 190، 191، 192، 193، 194.
ناصر المشاري: 58.
ناصر بو حميد: 107، 108.
ناظم خوجة: 58.
نجيب الريحاني: 87، 96.
نزار قباني: 28.

هـ

هارون الرشيد: 70.
هتلر: 76، 143.
هيرسن (د): 134، 135، 137، 139، 145، 149، 159.
هيكنز: 83.

و

وداد إلياس: 34.
وديع (أديب مصري): 34، 35.
وليد أبو بكر: 115.

ي

يوسف بحري: 77.
يوسف بك وهبي: 96.
يوسف السباعي: 31، 38.
يوسف الشيراوي: 107، 108، 112.
يوسف طه: 127.
يوسف العبيدلي: 161.
يوسف قاسم: 8، 104، 105، 125، 132، 139، 145، 151، 158، 163، 164، 165، 166، 167، 168، 170.

فهرس الأماكن

أ

أبو ظبي: 118.
الاحساء: 139، 140.
الأزبكية: 95.
الأزهر: 84، 95.
الإسكندرية: 35.
إمبابة: 86، 98.
أميركا: 35.
الأندلس: 152.
إنكلترا: 30.
أوروبا: 76، 187، 196.
إيران: 135، 158.
إيطاليا: 196.

ب

باكستان: 54.
البحرين: 7، 9، 13، 14، 15، 16، 20، 21، 23، 25، 26، 27، 28، 29، 31، 32، 34، 37، 38، 49، 50، 51، 52، 53، 55، 56، 60، 63، 64، 72، 76، 77، 80، 84، 86، 88، 89، 90، 91، 93، 94، 95، 96، 98، 99، 100، 102، 103، 104، 105، 106، 107، 108، 109، 110، 111، 113، 118، 125، 126، 127، 133، 134، 136، 138، 139، 141، 142، 143، 144، 149، 150، 151، 153، 156، 158، 161، 163، 164، 171، 172، 173، 175، 179، 180، 181، 184، 189، 190، 191، 193، 195، 196، 198، 199، 200، 207، 209، 123.
برلين: 77.
بريطانيا: 59، 98، 196.
البصرة: 16، 86، 99، 208.
بغداد: 15، 23، 33، 58، 86، 99، 196، 209، 212.
بلاد العرب: 188
البنجاب: 57.
بولاق: 92.
بومباي: 13، 14، 52، 53، 54، 55، 56، 58، 59، 60، 147، 150، 151، 152، 196، 197.

بونا: 13.
البيت الحرام: 186.
بيروت: 35، 98، 209.

ت

تل أبيب: 86، 98.
تونس: 188.

ج

الجامعة الأميركية: 93.
جامعة الدول العربية: 37، 38.
جاوا: 188.
الجزيرة العربية: 198.
الجفير: 50، 85.
جور: 180.

ح

الحجاز: 188.
حضرموت: 31، 130.
حماه: 16.
حوطة أبل: 153.
حوطة الباكر: 153.

خ

الخبر: 101، 105، 108.
الخليج العربي: 13، 20، 25، 27، 76، 109، 118، 133، 180، 181، 191، 196، 198، 209، 210، 211.

د

دار الخضاري: 208.
دار السلام: 208.
دبي: 118، 200.
دجلة: 24.

ر

رانيب: 147، 150.
روسيا: 188.

ز

الزمالك: 93، 97.

س

سر من رأى: 24.
السعودية: 64، 101، 135، 139، 158، 161.
سوريا: 16، 130، 188.
سوق المنامة: 15، 21، 158، 179.

ش

شارع عماد الدين: 87.
الشارقة: 200.
شط العرب: 86.

ص

الصين: 188.

ع

عراد: 127.

العراق: 13، 16، 21، 22، 26، 171، 172، 181، 188.

عرفة: 187.

العلمين: 187.

عمان: 158.

عمورية: 24.

عوالي: 77، 132.

عين أبو زيدان: 127، 144.

غ

الغانج (نهر): 184، 194.

ف

فرنسا: 196.

فلسطين: 27، 28، 34، 35، 36، 48، 86، 100، 101، 159، 160، 161، 200.

ق

القاهرة: 24، 31، 32، 34، 46، 64، 83، 84، 85، 86، 87، 89، 90، 95، 96، 98، 99، 180، 183، 188، 200، 209.

قصر عابدين: 96، 97.

القضيبية: 127.

قطر: 118، 135.

القليب: 186.

ك

كربلاء: 13، 26، 171.

كلكتا: 39.

كوبري عباس: 92.

الكويت: 64، 80، 104، 114، 115، 116، 117، 135، 158، 168، 200.

ل

لبنان: 28، 29، 34، 106، 208.

لندن: 109، 201.

م

المحرق: 30، 49، 51، 63، 65، 66، 69، 80، 81، 141، 146، 173، 189، 190، 201، 202، 207.

المحيط الهندي: 52، 53.

مدراس: 147، 150، 151.

مدرسة الإصلاح الأهلية: 69، 70.

مدرسة انجمن إسلام سكول: 56.

المدرسة الأهلية: 21، 22، 24، 63، 69.

المدرسة الجعفرية: 15، 20، 128، 129، 132، 164.

المدرسة السعيدية: 89.

مدرسة السيد علي: 69.
مدرسة الصناعة: 78، 80، 82، 87، 90، 100.
مدرسة عبدالرحمن الداخل: 72.
مدرسة عبد العزيز للمعلمين: 89.
مدرسة عبدالله عاشور: 65.
مدرسة المطوع: 127، 128.
مدرسة المعاودة: 71، 72، 79.
المدرسة النظامية: 15، 49، 63، 65.
مدرسة الهداية: 15، 20، 49، 50، 65، 66، 68، 70، 71، 157.
مركز ابن سينا الصحي: 161.
المزدلفة: 186.
مسجد العيد: 153.
مسقط: 52، 146.
المشعاب: 101.
مصر: 34، 88، 89، 92، 95، 113، 115، 188.
مطبعة النجاح: 16.
مكة: 187.
مكتبة البحرين: 12.
المنامة: 11، 15، 20، 21، 22، 26، 30، 49، 79، 81، 99، 125، 127، 140، 146، 153، 160، 171، 179، 190، 191، 198، 199.
منى: 186.
ميناء المنامة: 16، 50، 51، 146.
ميناء كراتشي: 52، 53.

ن

نابلس: 36.
نادي إقبال أوال: 175، 183، 185، 189.
النادي الأدبي: 30، 189، 201، 202.
النادي الاهلي: 153.
نادي البحرين: 32.
نادي الخرّيجين: 93.
نادي العروبة: 12، 26، 27.
النجف: 171، 172.
النقرة: 118.

هـ

الهاشمية: 24.
الهند: 13، 14، 27، 30، 39، 49، 50، 51، 52، 53، 54، 57، 60، 61، 84، 145، 146، 147، 150، 151، 152، 165، 184، 188، 194، 195، 196، 198.

ي

اليونان: 181.

فهرس الكتب والمجلات والجرائد

أ

الأدب في تاريخ العرب: 57.

الأغاني: 15.

الأم: 185.

ب

بين الدولتين: 25.

ج

جريدة آخر ساعة: 91.

جريدة أخبار اليوم: 91.

جريدة اضواء المدينة: 115، 117، 119.

جريدة الاثنين: 91.

جريدة الأهرام: 32.

جريدة البحرين: 77، 80، 82، 106، 139، 146، 197، 198، 202.

جريدة البلاغ: 91.

جريدة الخميلة: 106، 110.

جريدة روز اليوسف: 91.

جريدة الشعب: 115.

جريدة الشعلة: 111.

جريدة الطليعة: 115.

جريدة القافلة: 107، 108، 109، 110، 111، 112.

جريدة القصر: 91.

جريدة المقتطف: 180، 181، 182.

جريدة المقطم: 91.

جريدة الميزان: 111.

جريدة الهدف: 115، 117.

جريدة الوطن: 115.

خ

الخطط الشامية: 57.

د

ديـوان أرض الـشـهـداء: 29، 34، 35، 37.

ديوان إطلالة من شرفة الألفية الثالثة: 33.

ديوان الذكرى: 16، 17، 18.

ديوان شظايا رماد: 34.

ديوان العرائس: 29.

ديوان قبلتان: 29.

ديوان وحدي مع الأيام: 37.

ديوان يا أنت: 33.

س

سيرة ابن هشام: 57.

ع

العقد الفريد: 15.

ق

القرآن الكريم: 14، 65، 71، 130، 171، 207.

م

مجلة الأديب: 29.

مجلة البعكوكة: 95.

مجلة الثقافة: 82.

مجلة الرسالة: 24، 25، 29، 82، 94، 115، 117.

مجلة الشرق الجديد: 95.

مجلة صدى الأسبوع: 119.

مـجـلـة صـوت الـبـحـريـن: 36، 102، 104، 106، 110، 111.

مجلة صوت الخليج: 115.

مجلة كتابات: 29.

مجلة المصور: 88، 89.

مـجـلـة الـمـنـار: 176، 183، 184، 185، 188، 193.

المدونة: 185.

ن

نهج البلاغة: 15.

و

وامعتصماه: 24، 26.

كتب خالد البسام

المؤلفات:

1 ـ **تلك الأيام**، حكايات وصور من بدايات البحرين، الطبعتان الأولى والثانية 1986م، 1987م على التوالي، مطبوعات بانوراما، البحرين. الطبعة الثالثة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2005م.

2 ـ **رجال في جزائر اللؤلؤ**، الطبعة الأولى، البحرين 1991م. الطبعة الثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2007م.

3 ـ **خليج الحكايات**، الطبعة الأولى، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1993م.

4 ـ **مرفأ الذكريات**، رحلات إلى الكويت القديمة، الطبعة الأولى، دار قرطاس للنشر، الكويت، 1995م.

5 ـ **بريد القلب**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2000م.

6 ـ **بساتين**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2000م.

7 ـ **عزف على السطور**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2000م.

8 ـ **حكايات من البحرين**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2001م.

9 ـ **يا زمان الخليج**، دار الساقي، لندن، 2002م.

10 ـ **كلنا فداك، البحرين والقضية الفلسطينية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005م.

11 ـ **النجدي الطيب**، سيرة التاجر والمثقف سليمان الحمد البسام، 1888-1949م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2008م.

12 ـ **لا يوجد مصور في عنيزة** (رواية)، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2008م. الطبعة الثانية، الأمل للنشر، بيروت، 2009م.

13 ـ البحرين تروي، الطبعة الأولى، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، 2011م.

الترجمات:

1 ـ **القوافل**، رحلات الإرسالية الأميركية إلى مدن وقرى الخليج والجزيرة العربية، 1901-1926م، الطبعة الأولى، البحرين 1993م، الطبعة الثانية، دار قرطاس، الكويت 2000م. الطبعة الثالثة، الأمل للنشر، بيروت، 2009م.

2 ـ **صدمة الاحتكاك**، حكايات الإرسالية الأميركية في الخليج والجزيرة العربية 1892-1925م، الطبعة الأولى، دار الساقي، لندن 1998م. الطبعة الثانية، دار الساقي، بيروت، 2010م.

3 ـ **ثرثرة فوق دجلة**، حكايات التبشير المسيحي في العراق 1900-1935م. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2004م.

الإعداد:

1 ـ **نسوان زمان**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2002م.

2 ـ **يوميات المنفى**، عبدالعزيز الشملان في سانت هيلانة 1956-1961م، البحرين، الطبعة الأولى، 2007م.

البريد الالكتروني للكاتب: albassamk@hotmail.com

ائتلاف شباب ثورة 14 فبراير
مركز لؤلؤة البحرين للدراسات والبحوث

يتناول هذا الكتاب محطّات مهمة في حياة عدد من رجالات البحرين، كان لكلٍ منهم مساهمته الجادة في بناء مجتمعه وفي إثراء الحياة البحرينية بكثير من الإبداع والتألق في مختلف مجالات الحياة.

تتميّز محطات الكتاب بأنها جمعت ما بين السياسي والمثقّف والشاعر والفنان والصحافي، الذين شاركوا جميعًا في صناعة الإبداع الذي عاشته البحرين خلال القرن العشرين، مما جعل لمحطاتهم في الحياة وتجاربهم طابع تاريخي مختلف، يستحقّ التدوين والتوثيق.

ISBN 978-614-418-007-5
9 786144 180075

Jadawel جداول
www.jadawel.net